

الظاهر بيبرس

الجزء الثالث

دار المعارف

الظاهر بيبرس

القصص الشعبى

الظاهر بيبرس

الجزء الثالث

حسن محمد جوهر

محمد أحمد برانق   أمين أحمد العطار



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

عرقوص بن معروف

١

ودع إبراهيم داود وشاهين ، ووافاه سعد ، وسارا حتى كانا فى الإسكندرية ، وهناك جمعا أصحابهما . وركبوا فى البحر ، ومضوا متجهين إلى رومة .

كان الملعون جوان وصاحبه سيف الروم مقيمين عند دونش ابن الملك رومان ، وكان قصره يطل على البحر ، فنظر جوان إلى البحر فرأى فلك المسلمين قادمة ، فقال لصاحبه : هؤلاء المسلمون قادمون إلى رومة ، ولا بد من هلاكهم قبل وصولهم ، فقال « الطبجى » رئيس المدافع : مرنى بما شئت ، فقال : صوب مدفعاً كبيراً من مدافعك إلى هذه الفلك القادمة واقذفها بقذيفة تمزقها ، فقال « الطبجى » : سمعاً وطاعة وسأريحك من هذه الفلك ومن فيها ، ثم صوب مدفعه إليها ، وأطلق منه القذائف ، وكان قائد الفلك قد أدرك ذلك ، فحول اتجاه الفلك إلى جهة أخرى ، فلم تصبها القذائف ، وأسرعت الفلك إلى الميناء ورست .

كان جوان قد جاءته نساء الملوك الأسرى عند بيبرس وطلبن منه أن يخلص أزواجهن من يد بيبرس ، فقال لهن : إن أمركن هذا ليس له إلا الملك رومان ، فاذهبن إليه ، فعسى أن يرثى لحالكن ، وسأذهب أنا إلى ابنه ليعاونه فى ذلك ، فأطعنه وذهبن إلى رومان ، وذهب هو

إلى ابنه دونش ، ودبر تلك المكيدة التي أراد بها أن يغرق الفلك ، ولكن قائدها لوى عليه غرضه ، وأبطل بمهارته كيده .

رست الفلك ، فأمر إبراهيم أن تضرب الخيام على الشاطئ له ولصاحبيه سعد وأيدمر ، أما أبو بكر فقد بقى فى الفلك هو وبقية الرجال والملوك الأسرى ، وجلس إبراهيم ، ومضى الوزيران مارين ومخبتون إلى الملك رومان وأخبراه بمجىء المسلمين ومعهم الملوك الأسرى ففرح رومان واطمأن .

وكان إبراهيم جالساً ، فجاءه بطريق من الكفار ، فقال : أأنت إبراهيم الحورانى ؟ فقال : نعم ، فقال البطريق : أعطنى ألف دينار أجرة فلكك التى رست فى الميناء ، لأنى اشتريتها من الملك رومان ، وجعلت على كل سفينة ترسو فيها ألف دينار ، فقال سعد : يا ابن الخالة ، أعطه ما طلب ، لأنه من حقه ، فقال إبراهيم : اسكت يا سعد ، ودعنى أبين للبطريق وجه الحق ، والتفت إلى البطريق ، وقال : نحن ما جئنا تجاراً ولا سائحين ، ولكننا جئنا بملوككم ملبين رجاء ملككم ، ولولا ذلك ما أتينا ، فكيف نأتى بسببكم وتأخذون منا مالا ؟ ! فقال البطريق : سآخذ منك المال رغم أنفك ، فغضب إبراهيم وضربه بسيفه ، فوقع على الأرض قتيلا ، وأمر رجاله أن يسحبوه إلى التلال ، فجروه وألقوه فيها ، وكان هذا البطريق ابن أخت الملك رومان ، فصاح رجال البطريق غاضبين وهموا أن يقاتلوا إبراهيم ، فحمل هو ورجاله عليهم ، ففروا هاربين ،

وانتهى المسير بإبراهيم من خلفهم إلى قصر عبد الصليب الجركشى ، وكان مطلا على الميناء فأخذه وصار فى حوزته ، وأمر أن ينقلوا ما فى الفلك من الأموال والزاد إلى ذلك القصر ففعلوا .

أما رجال البطريق الهالك فإنهم حملوه وذهبوابه إلى رومان وأخبروه بمافعله إبراهيم، فغضب رومان والتفت إلى وزيره مارين قائلا : أينبغى أن يفعل المسلمون هذا ؟ فقال مارين : ما عليهم من ذنب، وما أخطأوا فيما فعلوا ، ولكن الخطأ كان منك ومن رجالك وأتباعك، فقال : وكيف كان ذلك ؟ فالتفت مارين إلى مخبتون وسأله : حينما رست سفينتنا فى ميناء الإسكندرية ، هل طلب منا أحد من المسلمين نقوداً ؟ فقال : لا ، فقال مارين للملك : ونحن كنا ذاهبين إليهم فى أمر يخصنا ، فكيف تأخذون من المسلمين نقوداً ، وقد جاءوا إلينا بملوكنا ملبين رجاءنا ؟ فقال رومان : الحق معهم، ونحن مخطئون، فأرسل إلى إبراهيم ليحضر لدينا وننظر فى الأمر معه ، فأرسل مارين إلى إبراهيم أربعة من البطارقة ، فذهبوا إليه وقالوا : أجب دعوة الملك رومان، فنهض إبراهيم وأخذ معه سعداً والملوك الأسرى، ودخل هو على رومان، فأكرم لقاءه وأجلسه بجواره على كرسى من ذهب، وقال : يا سيدى إبراهيم ، أين الملوك ؟ فنادى إبراهيم سعداً ، فدخل عليهم، وجعل يقدم لرومان الملوك واحداً واحداً ، وهو يضرب كلاًّ منهم ويقول له : من أمرك أن تذهب إلى المسلمين وتقاتلهم ؟ فيقول : ما أغرانى بهم إلا جوان . فيقول : سر إلى بلدك وأرسل إلينا خزينة من المال فدية

لك . وما زال كذلك حتى أطلقهم جميعهم وهو يسب جوان ويلعنه .

فقال إبراهيم : لقد جئنا بالملوك ، ونريد خزائن المال لأرحل برجالى إلى ديارنا ، فقال رومان : انتظر عشرة أيام حتى أجمع المال الذى تريده ، ثم ترحل مصحوباً بالسلامة ، فقام إبراهيم ومضى إلى القصر .

وذات ليلة سار إبراهيم ومن معه فى المدينة ، وبينما هم سائرون سمعوا دوياً تحت الأرض ، فحفرها إبراهيم بخنجره ، فوجد خلقاً كثيراً ، وسمعهم يقولون : اللهم أحسن خلاصنا على يد إبراهيم بن حسن الحورانى ، فعجب إبراهيم وقال : يا سعد ما الخبر ؟ فقال سعد : لا أظن هؤلاء إلا من الجان ، وهم يستغيثون بك ، ولا أعرف عنهم شيئاً . فقال إبراهيم : إنى أخشى الجن ، فتعال أنت واسألهم عن حالهم ، فعسى أن يكون خلاصهم على أيدينا ، فتقدم إليهم سعد وقال : يا خلق الله ، من أنتم ؟ أمن الجن أم من الإنس ؟ فقالوا : نحن من الإنس وقد حبسنا فى هذا المكان مدة طويلة ، وكنا أربعة عشر ألفاً ، ونحن مؤمنون بالله ورسوله ، فات منا سبعة آلاف جوعاً وضيقاً ، فلما سمع إبراهيم قولهم قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وتقدم إليهم وقال لهم : لا بأس عليكم ، فقد جاءكم الفرج من ربكم ، وأين باب مكانكم هذا ؟ فعرفوه به ، فذهب هو ورجاله إليه ، فوجد الحرس جالسين عنده ، وكانوا نحو مائة رجل ، فما أمهلوهم وقتلوهم بسيوفهم ، وكسر إبراهيم باب السجن ، ودخل على الأسرى من المسلمين ، وقال لهم : تعالوا معى ، وغداً يفعل الله ما يشاء ، ومضى

بهم إلى القصر فأسكنهم فيه وأطعمهم ، وباتوا فى فرح عظيم .

وفى الصباح أخذ إبراهيم الأسرى وذهب إلى رومان فدخل عليه غاضباً وقال : يا رومان لقد أقمت الدنيا وأقعدتها ، وحملتنا على المجىء إليك من أجل بضعة ملوك لا يزنون جميعهم عندنا قلامة ظفر ، فكيف تبيح لنفسك أن تأسر أربعة عشر ألفاً من المسلمين وتحبسهم تحت الأرض ، يقاسون الجوع والعطش والضنك حتى مات نصفهم ؟ وأريد منك الآن دية من قتل منهم ، فزاد فزعه ورعبه وقال له : اقترح ما شئت من الدية والنفقات فإنى معطيكه ، وما أنا براد لك حكماً ، وفرض إبراهيم على الملك ما شاء من الأموال وأخذه ، ورجع بالأسرى .

كان جوان فى المدينة إذ ذاك ، وعرف ما حل بها من إبراهيم وجماعته ، ولم يشأ أن يظهر خوفاً من إبراهيم أن يقتله ، ولكنه دبر مكيدة لقتله وقتل أصحابه ، وذلك أنه ذهب إلى دونش بن رومان ، وكان أبوه يحبه حبًّا جمًّا ، وقال له : لم يبق لك فرصة لذيوع اسمك إلا أن يلعب الأربعة الأبطال من المسلمين والأربعة الأبطال من أتباع والدك ليلة زفافك ، فأسرع بذلك قبل أن يرحل المسلمون من المدينة ، فذهب دونش إلى أبيه وأخبره ، فأمر بما عرضه عليه ابنه ، وكان الأربعة المسلمون إبراهيم وسعداً وأيدمر والبطرنى ، وكان الأربعة الكفار عبدالصليب وشماط القبطان ومسرور الطيار ويعقوب الكناوى ، وكان أيدمر مع عبد الصليب ، والبطرنى مع بشماط القبطان ، وسعد مع مسرور الطيار ،

وإبراهيم مع يعقوب الكناوى .

أما أيدمر فقد غلب عبد الصليب وقتله ، وذلك أنه حاول أن ينفذ من بين رجليه فلم يقدر ، وضغط بهما على رقبته فمات ، وكذلك قتل البطرنى بشماط ورماه فى البحر ، وأما سعد فإنه قطع بالسيف رأس منافسه ، وأما إبراهيم فإنه استمر يناجز يعقوب ثلاثين يوماً ، وفى اليوم الحادى والثلاثين أشار إلى المسلمين أن يطبلوا ، فلما طبلوا التفت يعقوب إليهم ، وبغته إذ ذاك إبراهيم ورفعه إلى السماء ، وأراد أن يهلكه ، فقال يعقوب : ذلك غدر لا يليق بمثلك ، فقال : ما تغلب به العب به ، ولكنى سأبقيك طمعاً فى إسلامك فإن الإسلام أحق بك وأولى ، فاذهب إلى قلعتك ، والزم المقام فيها ، ولا تساعد أهل الكفر أبداً ، فإنك إن رجعت إلى معونتهم قتلتك ، وبودى أن ينتفع بك الإسلام ، فقال : لابد من الهداية يا إبراهيم ، ولكن لكل أمر وقت معلوم ، ثم رحل بأهله ولزم المقام بهم فى قلعته .

ورجع إبراهيم إلى رجاله وأذن فيهم بالرحيل إلى مصر ، فأخذوا يستعدون للسفر ، ولكن دونش ورومان أقسما عليهم ألا يرحلوا حتى يقيما لهم وليمة تكون بينهما رباط صداقة ومظهر وداع كريم .

حضر إبراهيم وسعد وأيدمر الوليمة ، أما أبو بكر البطرنى وبقية الرجال فإنهم كانوا فى الفلك ، فأمر دونش أن يرسل إليهم طعام الوليمة فى فلكهم وانتهز جوان هذه الفرصة ، ووضع البنج فى الطعام المرسل إلى الفلك

بمعونة الملعون دونش ، فلما أكلوه أغمى عليهم جميعهم ، فنهض الكفار إليهم وأوثقوا كتافهم ، وأقلعت بهم الفلك ، وجروا بها إلى جزائر الفلق ، وأرسل جوان معهم كتاباً إلى الاصطالود الفلّق ، ودخل الرسول على الاصطالود الفلّق وناوله كتاب جوان ، فقرأ فيه ، من جوان عالم الملة إلى الاصطالود الفلّق ، قدم إليك أبو بكر البطرنى ومن معه من المغاربة ، فاقتل البطرنى ، واتخذ رجاله أسرى ، تستخدمهم فى قطع الأخشاب والحجارة ونقلها ، ولك منى الرضا والغفران ، فاستشار وزراءه فى كتاب جوان هذا ، فقالوا : ما أراد جوان بك خيراً ، ولكنه يجرك بهذا إلى الهلاك والبوار ، فأرجع البطرنى ورجاله مكرمين ، وسيكون هذا معروفاً لك عنده ، وعند بيبرس ملك المسلمين . فقال : لا أستطيع مخالفة عالم الملة جوان ، كما لا أستطيع قتل البطرنى وتعذيب رجاله ، ولكنى سأحبسهم فى السجن إلى حين ، فإن سئلت عنهم كانوا تحت يدى ، واستخدمت إطلاق سراحهم فى دفع الشر عنى ، وجلب النفع لى ، وإن لم أسأل عنهم نفذت فيهم ما أمر به جوان ، ثم نقلهم إلى سجن من سجونه ، وألقاهم جميعهم فيه مقيدين ، وأعطاهم شيئاً أيقظهم ، وأزال الإغماء عنهم فانتبهوا ووجدوا أنفسهم محبوسين فى أسوأ حال . وكان أمرهم خفيًّا ، وما علم بهم أحد من أهل رومة إلا جوان ودونش ورسول جوان .

أقام إبراهيم فى الوليمة ثلاثة أيام وهو غير عالم بما وقع لأبى بكر ورجاله ، فلما رجع إلى قصره طلبه ليأخذ الأهبة للرحيل فلم يجد الفلك ولا أبا بكر

ورجاله ، فغضب غضباً شديداً أغلق فى وجهه أبواب الرأى وسد منافذ النظر ، وقال : إن أبا بكر استكثر المال وطمع فيه فأخذه لنفسه وهرب ، وسأتركه بما أخذه ، ولن أرجع إلى مصر بأموال رومة إلا فى البر ، فبكى سعد وقال : لا تفعل ذلك يا ابن الخالة ، فإن هذا البر لا يسلكه إلا هالك ، فقال إبراهيم : لا يكون إلا ما قررت ، ونهاه أيدمر ومارين فما قبل ، وقال رومان : لو كان فى المسلمين عشرة رجال مثلك لملكوا الدنيا ، فقال إبراهيم : ما كنت عند الملك الظاهر إلا أقل رجاله وأضعفهم ، وأخذ إبراهيم المال وركب طريق البر وارتحل .

ولما سار إبراهيم وجد مارين معه ، فقال إبراهيم : ما شأنك بنا يا مارين حتى سرت معنا ، فقال : إن لى حارساً فى قلعة من قلاع المدينة ، وقد أمرنى الملك أن آتيه به ، فأردت أن أسير معك حتى أصل إليه ، وفى الوقت نفسه أكون أماناً لك من أى مكروه ، فقال إبراهيم : لولا أنك مسلم وأنا أعلم ذلك لقتلتك فارجع لشأنك ، فرجع مارين بعد أن ودعه ، ودأب إبراهيم فى سيره حتى قطع الستين قلعة التى فى حكم رومان . ولما بعد عنها بمقدار أربعة فراسخ لقيه جيشان للملكين ، فقال قائلهم لإبراهيم : كيف تأخذون الأموال من رومة ، وترجعون بها إلى بلادكم ، ونحن هنا فى طريقكم ، فنادى إبراهيم فى جماعته ، قائلا : يا عصبة الإسلام ، ادفعوا عن أنفسكم الموت ، فمن عاش منكم عاش سعيداً ، ومن مات مات شهيداً ، ثم حملوا عليهم حملة رجال صادقين ، وأنزلوا بالكفار البوار ،

فنكصوا على أعقابهم وولوا الأدبار ، وكان قد قتل من رجاله عدد غير قليل ، واستأنف سيره إلى الديار ، وبعد قليل لقيهم أربعة جيوش فى قيادة أربعة ملوك ، فلقيهم المسلمون وأذاقوهم بسيوفهم لباس الهزيمة والفرار ، ودفن إبراهيم من استشهد من المسلمين ، واستأنف المسير ، وخاض بعد ذلك معركتين حاميتين هزم فيهما الكفار ، وقتل من معه من المسلمين ولم يبق معه إلا عشرة رجال ، وسعد وأيدمر فقال : أنت يا سعد لحماية المال ، وأنا وأيدمر للقتال ، والعشرة الباقية للحراسة والخفر ، ثم شجعهم وقوى أفئدتهم ، فقال سعد وهو فى أشد حالات الخوف والاضطراب : لا تهلك نفسك يا إبراهيم ولا تهلكنا معك فقال إبراهيم : لا تقل هذا ياسعد ، وتوكل على الله فهو حسبنا ، فقال سعد : إن قلبى غير مطمئن ، ولا أتوقع إلا أننا هالكون ، ولسنا براجعين إلى أوطاننا ، وقال أيدمر : ارجع بنا يا إبراهيم ، فما نحن إلا قادمون على هلاك محتوم ، وتذكر الرؤيا التى رآها الملك بيبرس فى منامه ، قبل أن نبرح الديار ، وتطأ أقدامنا هذه البلاد ، وتذكر كم كان عددنا ، وكم أصبحنا ، فارجع يا إبراهيم ، ولا تلق بنفسك وبأنفسنا إلى التهلكة ، فقال إبراهيم : أما علمت ما لنا من المنزلة عند الله وعند الملك ؟ أما علمت أن الآجال محدودة ، وأن الموت بإذن الله تعالى ؟ لقد حلفت ألا أسير إلا فى البر ، وإن أمطرت السماء جيوشاً من الكفار فإنى أكفيكم شرها ، فاعتمدوا على الله وسيروا .

واستأنفوا سيرهم ، وجدّوا فيه حتى كانوا فى وادى الأزهار ومنبع الأنهار

فقابلتهم جيوش أكثر عدداً ، فقاتلهم إبراهيم وأيدمر حتى الزوال ، ثم ولى الكفار هاربين ، فقال إبراهيم ، ما نكص الكفار على أعقابهم فى هذه المرة هرباً منى ، ولكنهم فروا من وجهى لأمر آخر لا أعرفه ، فانتظرونى هنا حتى أتبين الأمر وأرجع به إليكم ، ثم استراح قليلا ، وسار وحده إلى الطريق فوجد غلاماً جميلا ، ومن حوله ثلاثة وأربعون غلاماً فى جماله وشكله ، فتقدم إبراهيم إلى أحد أتباعه ، وسأله عن هذا الغلام فقال : إنه ابن الملك مغلون صاحب جزيرة الرتقان ، ومعه أولاد ملوك الجزائر ، فتقدم إبراهيم إليه وسلم ، فنهض الغلام وقال : مرحباً بفارس الزمان ، اجلس بجانبي ، لا بد لك من طعام الآن ، فقال إبراهيم : شكراً لك ، فإنى لا آكل من طعامكم ، لأنكم تأكلون لحم الخنزير وهو محرم علينا ، فقال الغلام : اعلم يا أخى أنى لا آكل مع هؤلاء مما يأكلون ، ولكنى آكل لحم الضأن ، ولا يقوم بتجهيز طعامى وخدمتى إلا رجال مسلمون ، فاطمأن قلب إبراهيم ودعا بأيدمر وسعد والرجال العشرة ، وأرسل الغلام حرساً من عنده لحماية أموالهم ، ثم أحضر لهم جميعهم الطعام فأكلوا ، وشكروا له كريم ضيافته وهموا بالانصراف ، فقال الغلام : لا بد من الاستحمام قبل أن تنصرفوا ، ولما نزعوا عنهم ملابسهم رأى الغلام آثار السيوف فى صدر إبراهيم وفى ظهر أيدمر وفى كعب سعد ، فقال : أنت يا سيدى إبراهيم « بون البون » وأنت يا سيدى سعد طيار ، وأنت يا سيدى أيدمر فشار ، فقال : إبراهيم : ماذا تعنى بقولك هذا ؟ فقال : أنت تلتى

الضرب بصدرك ، وأيدمر بظهره ، وسعد بكعبه ، وكره أيدمر من الغلام قوله فيه « فشار » وأصبح عدواً له ، ولكنه كتم ذلك فى نفسه، ولما اغتسلوا وعزموا على الرحيل قال الغلام لإبراهيم: خذ هذا المنديل، وهذه «النشابة» ، فإن طلع عليك جنود البر وهذان معك ، فلن يثبت أحد منهم أمامك، فأخذهما إبراهيم وقال : جزاك الله خيراً ، وانصرفوا وكان سعد من أشدهم فرحاً بهذه « النشابة » .

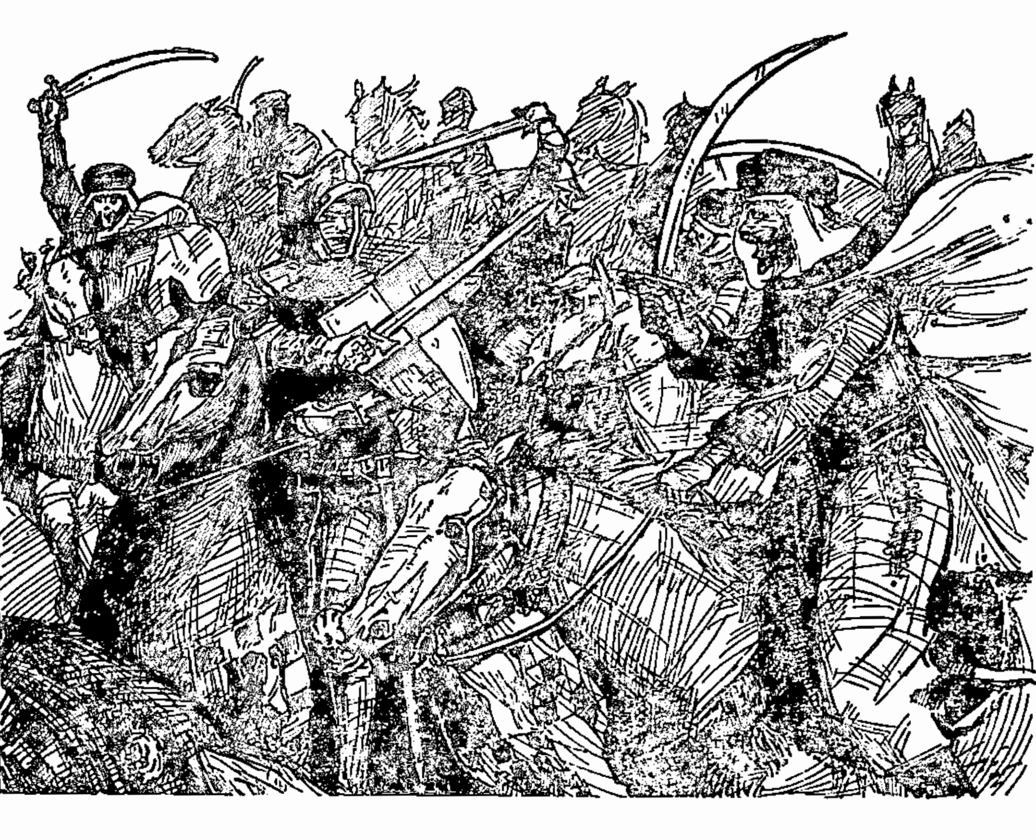
ولما ساروا قال إبراهيم لسعد : إن هذا الغلام شريف ومن نسل شريف ، ولا بد له من الظهور غداً ، فإذا جاء أوانه والتقيت به لأمر من الأمور عايرنى وقال : ما حفظك ودفع عنك إلا « نشابتى » ومنديلى ، وحينئذ يكون الموت أهون على نفسى من كلامه هذا ، ورأى أن من استعان بغير الله ذل ، ثم أمسك النشابة وكسرها ومزق المنديل ، ثم ناول الجميع إلى سعد وقال له احفظها ، فإن طلبتها منك فى أى وقت ولم أجدها معك قتلتك . فأخذها سعد وحفظها فى مكان حريز عنده ، وسار إبراهيم وصحبه حتى لم يبق بينهم وبين جسر الانجبار إلا مرحلة .

كان هذا الغلام عرنوس ابن الملك مغلون ، فاجتمع به أبناء ملوك الجزائر ، وكان رئيسهم .

ولما قرب إبراهيم من جسر الانجبار ظهرت له جيوش ملأت رقعة الأرض، وما كان لإبراهيم وأيدمر أن يرفعا سيفاً فى وجوه هذه الجموع ، ولكن إيمانهم بالله واعتمادهم عليه وثقتهم به، واعتقادهم أنه معهم وناصرهم—

كل أولئك جعلهم يخوضون المعركة ثابتين صابرين ، وجعلوا يجزون الرقاب جزًّا ، ويحصدون الأعداء حصداً ، حتى سقط أيدمر ، وتراكمت جثث القتلى من فوقه، وأصبح إبراهيم يقاتل وحده حتى انقضى النهار وسكت القتال ، ورجع إبراهيم إلى سعد بن دبل وهو متعب مكدود .

وكان جوان هو الذى حرض هؤلاء الملوك على لقاء إبراهيم وقتله فى كل موقعة من مواقعه ، وكان إذ ذاك معهم ، وجعل يحضهم على القتال ويؤنبهم قائلا : كيف تكونون فى هذا العدد الذى لا حصر له ولا تستطيعون الفتك بإبراهيم وحده ؟ ! وباتوا وقلوبهم تغلى من شدة وقع هذا الكلام على نفوسهم ، وقال إبراهيم لسعد : إنى متعب وأريد أن أنام قليلا لأستريح فكن حريصاً على ما معك من الأموال ، ونام إبراهيم ثم استيقظ وهو يقول : يا غوث المغيثين ، فسأله سعد عما به فقال رأيت فى المنام ما رآه أبى ، ثم نهض واستعد للجهاد والكفاح ، وإذا بملكين قد أتيا إليه فسلما على إبراهيم وقالا له : لقد أتيناك فى أمر فيه صلاحك ، وهو أن تعطينا ما معك من الأموال لنحفظها وتأخذ علينا حجة بذلك، فإن وصلت إلى أمير المؤمنين فسلمه هذه الحجة التى علينا بأموالكم ، لنسلمها إليه بمقتضى تلك الحجة ، فقال إبراهيم : وهل أنتم فى طاعة أمير المؤمنين ؟ فقالوا : نحن فى طاعته ونعطيه الخراج كل عام . فقال : ولأى شىء كنتم مع جوان وهؤلاء الكفار علينا ؟ فقالوا : أرغمونا على ذلك ، ولا نقدر أن نخالفهم وإلا أهلكونا . فقال : الحق معكم ،



إبراهيم بن حسن ومعه نفر قليل من المسلمين يقاتلون عشرات الألوف من الفرنجة

فاكتبوا الحجة وخذوا الأموال ، فكتبوا الحجة وأخذوها ثم قال : كيف أتعب فى الحصول على هذه الأموال ، ثم أضيعها بقطعة من الورق ، وصاح فيهم وطردهم ، فخرجوا من عنده نادمين ، وقال بعضهم لبعض إن المال أصبح فى ذمتنا بمقتضى الحجة التى أخذها ، ولا ينبغى أن نفرط فيه أبداً ، لأن إبراهيم لن ينجو من هذه الأمم ولن يسلم .

وفى الصباح نهض إلى الميدان ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، وكان جوان قد حرض الجموع على اغتياله ، وألبس واحداً من الكفار حلة شريف من الأشراف ، وقال له : اذهب إلى إبراهيم الحورانى وقل حين ورودك إليه : الله أكبر ، فتح ونصر ، وخذل من كفر ، فإن سألك : من أنت؟ فقل له : إنى من أتباع موسى ، وكنت عابراً بهذا الوادى فوجدتك وحدك ، وهؤلاء الألوف من حولك ، فرغبت أن أستشهد فى هذه المعركة أو يكون فى عونى لك نصر وفوز — قال جوان — ثم تقاتل بجانبه ، وانتهز غفلته ، واقطع بحسامك رأسه .

لبس البطريق الحلة ، وذهب إليه ، وكان قد تهيأ للقتال فقال : الله أكبر . . . فالتفت إليه إبراهيم وقال : من أنت ؟ فأجابه بما قال جوان فقال : تأخر عنى وقاتل ، فقد فزعت منك ، والاسم الأعظم ما فى بدنك رائحة للإسلام ، وإنى لنى فزع من جوارك وقربك ، وجعل إبراهيم يقاتل والكفار ينهمرون عليه انهماراً ، وهجموا على سعد فانبرى للدفاع ، وترك المال وحده ، وهم البطريق الذى لبس حلة الشرفاء أن يغدر بإبراهيم فضربه

بسيفه فأطار رأسه ، ورأى سعد رأس البطريق قد ارتفع فى الجو بمقدار قامة الرجل فظنه رأس إبراهيم فحزن وبكى ، وفر إلى البحر والكفار من خلفه ، فألقى بنفسه فيه .

أما إبراهيم فقد استمر يقاتل ، ولما دعا سعداً ، ولم يجبه ورأى أمواله وخزائنه فى أيدى الكفار أيقن أن سعداً قد قتل ، فخارت قواه ، وضعفت يداه عن حمل السلاح ، وسقط عن جواده ، وتاه فى جثث القتلى من الكفار ، وكان الليل قد مضى نصفه ، وظن الكفار أن إبراهيم لا يزال فيهم وهو دائب على قتالهم ، فجعل بعضهم يضرب بعضاً، ولما بان النهار بحثوا عن إبراهيم فلم يجدوه ، ففرحوا بفقده ، وهموا أن يقتسموا الأموال، فقال الملكان الانجبار والمتكبر : إن هذه الأموال فى ذمتنا ، وقد أخذت علينا حجة بها ، ولا بد أن يأتى ملك المسلمين ليثأر لنفسه ورجاله وبلاده ، ويطلب الأموال التى أخذتموها ، بما فى يده من حجة علينا ، فقال جوان احفظوا هذه الأموال فى مكان ، واصبروا مدة من الزمان ، فإن جاء بيبرس وغلبنا فدينا أنفسنا بهذه الأموال ، وإن غلبناه قسمناها بيننا ، واتفقوا على ذلك وحفظت الأموال .

° ° °

ألقى سعد نفسه فى البحر فابتلعه ، وانصرف الكفار عن طلبه ، ثم ارتفع على سطح الماء وجعل يعوم حتى أدركه التعب فغطس ، ثم صعد إلى سطح البحر ، وما زال على هذه الحال حتى أسلم الأمر وانتظر الموت ،

وبينما هو كذلك إذ بشيء كالمركب من جريد أخضر ، وله مجدافان من الجريد الأخضر يحمل رجلا جالساً فيه ، فمد يده وجذب سعداً من البحر ووضعه بجواره ، ثم أمسك المجدافين وحركهما مرة قائلا سبحان هاديه ، ثم حركهما ثانية وقال : سبحان مجريه ، وحركهما ثالثة ، وقال سبحان من يعلم ما فيه ، فكان هذا الشيء بقدرة الله أمام بلاق بمصر ، وكان هذا الرجل سيدى عبد الله المغاورى ، فوضع سعداً على الشاطئ ، ومضى هو إلى حيث أراد .

ولما طلع الصباح رآه الناس فظنوه غريقاً ، ولما تأملوا فيه عرفوه ، فنقلوه إلى مسجد ، وأوقدوا له ناراً ليدفأ ويجرى دمه فى عروقه ، ولما أفاق قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، أين أنا؟ فقالوا له : أنت فى بلاق بالقاهرة ، فعجب أن وجد نفسه فى هذا المكان ، وهو لا يدرى كيف جاء ، وتذكر ابن خالته فبكى بكاء شديداً ، وقام إلى ديوان الملك بيبرس ، ليخبره بما جرى ، ودخل سعد عليه وهو يقول : ذهب الأحباب ، وما جاءنى عنهم خبر ، أين إبراهيم وسعد وأيدمر وأبو بكر ؟ وماذا جرى لهم ؟ ليتنى ما بعثتهم ! فقال الوزير : ثلاثة لا تطلب العجلة فيها : الخبر ، والقمر ، والحمل .

دخل سعد وقال : نعم ، يا ملك الإسلام ، فنهض واقفاً وضمه إلى صدره ، وأجلسه بجانبه ، وقال مرحباً برائحة الأحباب ، وأين أصحابك ؟ فجعل سعد يقص عليه ما جرى ، ولما أخبره بموت إبراهيم حزن حزناً

شديداً ، وأقسم أن يجمع الجموع من كل قطر و بلد و يذهب بها إلى هؤلاء الكفار ليثأر لإبراهيم وصحبه ، وأرسل فى طلب الجنود من كل أرض تابعة له ، وأولاد إسماعيل ، حتى اجتمع لديه جنود لا تحصى .

أما سعد فإنه انسل من المجلس وسار حتى دخل قلعة حسن الحورانى ، فتلقاه حسن وسلم عليه ، وسأله عن ابنه فحكى له قصته ، فهاج سكان القلعة ، وملأوا الجو صياحاً وعويلا ، فلم يجد سعد له فى هذا الجو الحزين مقاماً ، وخرج من القلعة ومضى إلى أبيه دبل البيسانى فى قلعته ، فرحب به أبوه ، وسأله عن ابن خالته ، فأخذ يقص قصته ، وما كاد ينتهى منها حتى كتفه أبوه ، وأمسك خنجره، وهم أن يذبحه، وإذا بحسن الحورانى قد أقبل فقال : اقبل شفاعتى فيه ، فقال : إنه نشأ هو وابن خالته ، ولازمه من محياه إلى مماته ، فكيف يموت إبراهيم ولا يموت سعد معه ؟ وكان حسن الحورانى ملثماً ، فقال : ألا تعرفنى ؟ فقال دبل : ومن أنت ؟ فكشف اللثام عن وجهه فعرفه ، فقال حسن : لا تعدم الرجلين ، وشفعنى فيه ، فقال : أما قتله فقد قبلت شفاعتك فيه ، ولكنى لا أحب أن أراه بعد ذلك ، وإن وقع عليه نظرى قتلته ، وفك حسن وثاقه ، وخرج سعد من القلعة هائماً على وجهه .

٢

رحل الملك بيبرس بجنود لا حصر لها حتى نزل بهم عند جسر الانجبار ، وامتلأت بخيامهم البقاع ، وألقوا الرعب فى قلوب الملك وجوان الملعون ، الذى جعل يخفف عنهم رعبهم ، ويعدهم أن سيكيد للمسلمين ، ويغلبهم على أمرهم بمكره وحيلته .

وفى اليوم الثانى من مقامهم أمر الملك أن تدق طبول الحرب ، فأوعز جوان إلى فارس من الكفار أن ينزل إلى الميدان ، فأسرع إليه ، وصال وجال ، متحدياً من يناجزه من فرسان الإسلام ، وأراد الملك أن يأمر بالخروج إليه ، وإذا بفارس من فرسان المسلمين شق الصفوف ، واندفع إلى الميدان اندفاع السيل ، فما لبث أن قضى على فارس الكفار وطوى حياته ، ثم هوى إلى أذنه فقطعها ، ونظمها فى حبل من ليف معه ، وجعل كلما برز إليه فارس من الكفار طواه وقطع أذنه ونظمها فى حبله ، ولما انتهى النهار ودقت طبول الهدنة والانفصال رجع فارس الإسلام ، وألقى الحبل بين يدى الملك بيبرس ، فعدوا ما فيه من الآذان فوجدوها ألفاً ، فقال الملك : لله در هذا البطل العظيم ، فقال حسن الحورانى : اعلم أيها الملك أن هذه فاطمة الحورانية أخت إبراهيم ، فقال الملك : يحق لها فوق ذلك ، ولكن الأقدمين قالوا : يا للرجال ! ولم يقولوا أبداً : يا للنساء !

فرها يا حسن ألا تخرج إلى الميدان ، ولما بلغها الخبر أبت ، وأصرت ألا تترك الميدان بأية حال ، واستمرت سبعة أيام ، وهى تفعل بالكفار ما فعلته فيهم أول يوم، والملك ساكت لا يتكلم،وكان اليوم الثامن يوم الأحد ، وفيه الهدنة والسلام وترك القتال . ومد السماط وقت الظهيرة ، وأقبل الرجال على طعامهم يأكلون ، فجعل الملك ينظر ذات اليمين ، وذات اليسار ، فرأى سعد بن دبل بين الرجال يأكل مما يأكلون ، فذهب إليه وأخذه من يده ، وسار به فى الخلاء ، وقال : أرنى يا سعد المكان الذى قتل فيه ابن خالتك إبراهيم إن كنت تعرفه ، فإنى أود أن أقبض منه قبضة من التراب أشم فيها رائحته ، فقال سعد : لا نقدر أن نصل إلى ذلك المكان ونحن بملابس المسلمين ، فغاب الملك عنه قليلا ، ثم حضر ومعه حلتان من حلل الكفار ، فلبس كل منهما حلته ، ثم ساروا حتى انتهوا إلى دكان رجل يصنع الفطير ويبيعه ، فقال سعد : وقع ابن خالتى فى وسط هذا الدكان ، فقال الملك : ادخل بنا إليه يا سعد ، وظن سعد أنه جوعان يريد الأكل ، فرحب بهم البطريق صاحب الدكان وقال : أأنتم على دين المسيح ؟ فقالوا : نعم ، وأمره الملك أن يصنع لهم فطيرتين بدينار ذهباً ، فتركهما جالسين على صندوق بالدكان طوله اثنتا عشرة ذراعاً وعرضه أربع أذرع فقال الملك : قص يا سعد ما جرى ، فجعل يقص ويقول : والاسم الأعظم لقد رأيته بعينى قد قتل ، وطار رأسه فى الجو أكثر من قامة ،

فسمعوا إذ ذاك من الصندوق الجالسين فوقه صوتاً ضعيفاً يقول : يا سعد يا ابن الخالة ، أنا مازلت حيًّا ، المال مائة وأربعون خزانة إلا نصف خزانة ، فقال سعد : ها هو ذا شيطانه ، تسمع صوته ، فقال الملك فى نفسه : كيف يكون مجاهداً فى سبيل الله ويكون له شيطان ؟ ! وهم أن يتبين الأمر وإذا البطريق مقبل بالفطيرتين فقال : أنتم تتحدثون وتتسارون ؟ ! كلوا وامضوا إلى سبيلكم ، فلما أكلوا أغمى عليهم ، فأوثق البطريق كتافهم ، وفى جوف الليل أيقظهم فقالوا : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقال البطريق : أأنتم مسلمون أيها اللؤماء ؟ ! ! قوموا إلى نطع الدم لأقتلكم ، فقال الملك : يا سعد : هل إذا نادينا جمال الدين شيحة يلبي النداء ويحضر ؟ فقال سعد : وأين هو الآن ؟ فقال الملك : وما علينا إذا ناديناه ؟ ثم قال : يا جمال الدين شيحة ، أين أنت الآن ؟ وإذا بالبطريق رفع عن وجهه اللثام ، وقال : والاسم الأعظم أنا جمال الدين شيحة ، واعلموا أنى كنت مع إبراهيم منذ خروجه من مصر إلى أن وقع ، وسوف يظهر لكم كل شىء خفى ، والصبر أجدر بكم وأولى ، واعلم أيها الملك أن جوان دبر لك مكيدة ما سبقه أحد إليها ، وذلك أنه وضع ألغاماً فى الأرض من البارود وهو محيط بجيوشكم ، يريد بذلك أن يحرقكم ويهلككم فارحل بجنودك إلى الجبال ، واتخذ فيها مساكنكم ، ثم قاتل الكفار إلى ظهر الغد ، فإذا هجموا عليكم ففروا من وجوههم واجعلوهم يجرون من خلفكم حتى يكونوا فى المكان الذى فيه البارود ،

وسأقوم أنا بتدبير ما أستطيعه ، ثم قال : امض أنت يا أيها الملك ونفذ ما أمرتك به ، واترك معى سعداً فإنى محتاج إليه فى بعض الشئون ، فرجع الملك وقام بما أمره به جمال الدين .

أما سعد فإن جمال الدين ناوله رسالة وقال : اذهب إلى حسن الحورانى وأعطه إياها ليعمل بما فيها، وائتنى بفاطمة الحورانية ، فذهب سعد وأعطاه الرسالة ، فلما قرأها وجد فيها أنه يأمره فيها بالرحيل هو وأتباعه من مكانهم الذى نزلوا فيه إلى مكان بالجبال مع بيبرس ، ولما حضر سعد وفاطمة قال لها جمال الدين خذى سيف أخيك وملابسه وهذا اللوح الصغير والمسمار ، واذهبى إلى الغار الفلانى ، وستجدين فيه جواد أخيك، ثم ثبتى هذا المسمار فى جدار الغار وعلقى فيه هذا اللوح وستجدين بعد ذلك أن هذا الصندوق قد انتقل إليك هناك بإذن الله وعونه، فإذا جاءك الصندوق فلا تفتحيه إلا بعد سبعة أشهر وسبعة أسابيع وسبع ساعات وسبع درجات وسبع دقائق ، فقالت : إنى لا أعرف هذا الحساب : فقال : لا تفتحيه إلا إذا سمعت طبلا وزمراً ، فقالت : وماذا فى الصندوق ؟ فقال : فيه روحى القديم ، فإن لى روحين ، إذا تعب روح تركته ولبست الثانى ، فصدقت قوله وظنته صحيحاً ، وذهبت إلى الغار وفعلت ما أمرت به .

أما جمال الدين فإنه وقف أمام الدكان وجعل يلطم وجهه ويصيح : وأبتاه ! ! فأهرع إليه الناس ، وسألوه عما به فقال إن أبى مات ، وأريد

أن أبيع الدكان ، فاشتراها منه أحد الناس ، وغادر مكانه هذا ، وساح فى القفار وهو يدعو ربه ، أن يسهل سبله ويقضى مآربه ، فعثر فى طريقه على رجل معمر يقول : عشت تسعين سنة وما رأيت سقر ! ! فتقدم إليه جمال الدين على هيئة بطريق وقال : إن كنت تريد أن ترى ما أنت فى شوق إليه هذه الساعة ، فخذ هذه الأكرة — وكانت مصنوعة من الكبريت — وألقها فى ذلك المكان ، وأشار إلى مدخل اللغم — فأخذ منه الأكرة وتوجه بها إلى المكان الذى دله عليه ، وذهب جمال الدين إلى أرباب الطبول وقال لهم : إن عالم الملة يأمركم أن تدقوا الطبول فدقوها ، وأهرع الكفار إلى مكان اللغم يطلبون المسلمين فى أماكنهم ، ليشتبكوا بهم ، ويجروهم إلى هذا المكان ، ورمى البطريق المعمر الأكرة إذ ذاك ، فالتهب اللغم وأكلت ناره الكفار وهذا البطريق معهم ، وذهب جميعهم إلى سقر وبئس المصير . وكان الملوك وجوان قد لاذوا بالحصون ، فلم تمسسهم نار الألغام ، وقال جوان لسيف الروم : ما رأيت مصيبة نزلت بنا مثل هذه المصيبة ، وما زال فى قلق وخوف حتى جاء الليل ، فقال لصاحبه : إن وقعنا هذه المرة فى أيدى المسلمين فلا مخلص لنا ولا مهرب ، فهيا بنا إلى القفار ، لنخلص من هذا البوار ، فقال له : انتظر هنا حتى يقتلك ملك المسلمين كما قتلت إبراهيم بن حسن الحورانى ، فقال جوان : وحق المسيح ما مات إبراهيم ولا فارق دنياه ، وسوف يظهر لك خبره ، ثم ركب وصاحبه السبيل إلى القفار .

وترك الكفار طعمة للنار وسيوف المسلمين ، فكانوا بين محترق ومقتول وهارب ، واستولى المسلمون على أموالهم ، وأقبل جمال الدين إلى بيبرس إذ ذاك ومعه الملوك فى القيود والأغلال ، وذلك أنه تنكر ودخل عليهم فى أماكنهم التى اعتصموا بها فما أنكروه وظنوه من أتباعهم وخدمهم ، فلما وضع الطعام بين أيديهم ، جعل فيه البنج وهم لا يشعرون ، فلما أكلوه أغمى عليهم ، فأحضر جمال الدين بعضاً من رجال المسلمين فشدوا وثاقهم ، وساروا بهم إلى بيبرس يقدمهم جمال الدين ، وكانوا ستة وثلاثين ملكاً ، فأمر الملك بقتلهم ، فجاء السياف وقطع رءوسهم أجمعين . وجاءه الملكان : الانجبار والمتكبر ، فقال : لا بد من قتلهما ، ليلحقا بأصحابهما . فقالا : أيها الملك لقد جرى منا كذا وكذا ، وأنهم طلبوا من إبراهيم المال ليحفظوه ، وأعطوه حجة عليهم به ، فعرف الملك أنهم لا ذنب لهم وعفا عنهم .

جعل المسلمون يتقدمون وينهبون ما يجدونه من الأموال حتى وصلوا إلى حارة قد علق على بابها قطعة من الحرير مكتوب فيها : هذه الحارة مكرمة من أجل أيدمر البهلوان ، فأسرع رجال من المسلمين إلى الملك وأخبروه بذلك ، فجاءها الملك فى الحال وسأل عن ذلك فتقدم إليه رجل اسمه قرقطين الحاجب ، وقال : اعلم أيها الملك أنه حينما وقع أيدمر ، جاءتنى سيدة مهيبة فى المنام وقالت : اذهب إلى المكان الفلانى وأحضر إليك أيدمر فإن علاجه على يدك ، ثم أسلم على يديه لتنجو من عذاب الله فأسرعت إليه وأحضرته إلى بيتى وعالجته ، وهو الآن عندى فى سلام

وعافية ، فقال الملك : هيا بنا إليه فأخذ قرقطين الملك إلى بيته ، ولما دخله وجد أيدمر سليماً ، ففرح وشكر لقرقطين جميل صنيعه ، وقال عفوت عن هذه الحارة من أجلك ، وإن أنت جئتنى فى مصر أكرمتك ، فقال قرقطين : إنى عازم على الرحيل إلى مصر ، لأنه لا يمكننى المقام فى هذه الديار . وانصرف الملك إلى الصوان ومعه أيدمر . . ففرح به الرجال وسلموا عليه وسألوه عما جرى له ولرفقائه فحكى لهم ما كان ، ثم أمر بيبرس الملكين الانجبار والمتكبر أن يحضروا المال فأحضروه كاملا لم ينقص منه شيء ، وكان بيبرس قد أقسم أن يحرث هذه الأرض ويزرعها بعد أن يبيد أهلها من الكفار وينهب أموالهم ، وقد خطر بباله الآن أن يرحل إلى مصر ويتركها ويكفر عن يمينه ، فجاءه جمال الدين وقال له : نفذ يمينك ، واحرث الأرض وازرعها شعيراً ، فإذا نبت الزرع فاجعل خيلك تأكل منه ثلاثة أيام ، فنفذ الملك ما أشار به جمال الدين ، ثم رحل هو ومن معه إلى مصر ودخلها دون مهرجان وزينة .

أما إبراهيم بن حسن الحورانى فإن أباه حينما رجع إلى قلعته أقام له مأتماً أربعين يوماً ، وبعد أن فرغ من مأتمه جلست أمه إلى جانب الصندوق تبكى وتندب ابنها ، فسمعت صوتاً ينبعث من الصندوق ويقول : لا تبكى يا أماه ، فإنى لا أزال حيًّا ، المال مائة وأربعون إلا نصف خزانة ، فقامت تجرى إلى أبيه حسن ، وكان مريضاً بالحمى فقالت له : إن شيطان إبراهيم ظهر فى الصندوق ، فقال : إن المجاهد فى سبيل الله

لا شيطان له ، فقالت : تعالَ معى ، لتسمع بأذنك ، فنهض معها إلى الصندوق وقالت له : اجلس وابك عليه حتى تسمع كلامه ، فجعل حسن يبكي و يندب ابنه فسمعه يقول : لا تبك يا أبتاه ، فلا أزال حيًّا ، المال مائة وأربعون خزانة إلا نصف خزانة .

فعجب حسن وقال : أين فاطمة أخته ؟ فلما حضرت قال لها : ما هذا الذى فى ذلك الصندوق الذى أحضرته ؟ فقالت : إن فيه روح شيحة القديم ، فقال : وهل يجوز أن يكون لابن آدم روحان ؟ إن هذا لا يسيغه عقل إنسان ، ثم انقض على الصندوق فكسر غطاءه، ونظر فيه ، وكاد يطير من الفرح إذ وجد ابنه فيه ، ولكنه وجد قطناً على جروحه التى انتشرت فى جسمه ، فاستخفه الفرح وصاح : إن جمال الدين طبخ إبراهيم وأرجعه إلى دنياه ، ثم أخرجه من الصندوق، وجعل يزيل القطن الذى على جسمه ، فوجد جروحاً شفيت ، وجروحاً لا تزال تنزف دماً ، وألبسه ثياباً من نسيج رقيق وأجلسه ، فقال إبراهيم : إنى جوعان وأريد أن آكل « كشكاً » ودجاجاً ، فصنعوا له الطعام الذى شاءه ورغب فيه ، ووضعوه أمامه ، وأخذ يأكل .

وبلغ سعد بن دبل أن إبراهيم ابن خالته فى قلعة حوران عند أبيه ، فقدم إليها مسرعاً وهو بين مصدق ومكذب ، ودخل عليه وهو يأكل « الكشك » ، فقال : سلمت يا إبراهيم وسلم سيفك ، والله لأذهبن من فورى إلى مصر وأبشر الملك بيبرس بحياتك . ثم انطلق لا يلوى على شيء .

أكل إبراهيم وأفرط ، وكان جوفه خالياً ، فلأه طعاماً ثقيلا ، فخر مغشياً عليه ، فاضطرب أبوه وقال : عليّ بطبيب ، فخفوا سراعاً فى طلب الطبيب ، فوجدوا رجلين سائرين فى ثياب الحكماء الذين يعالجون المرضى فأحضروهما إلى إبراهيم ، فلما فحصوه ، أخرج أحدهم من جعبته شيئاً كالإبرة ، ملوثة بالسم القاتل ، وهم أن يبيتها فى بطنه ، وإذا بتابع يدفعه بيده فرماه على الأرض رمية قاسية ، فصاح حسن الحورانى فيه وقال : شلت يداك ، وجازاك ربك ، كيف تفعل ذلك بالطبيب وهو يغيث مريضاً ؟! فكشف عن وجهه اللثام وبان له أنه جمال الدين شيحة ، فقال حسن : أيدك الله ، وبارك فيك ، فقال : لقد ضيعت تعبي يا حسن ، أتدرى من هذان الطبيبان ؟ فقال : لا ، فقال : هذا الملعون جوان ، وهذا صاحبه سيف الروم ، وإن ابنك لن يشفى ما دام هذا الملعون مطلق السراح ، فإن أردت النجاة لابنك ، فاسجنهما عندك واحذر أن يهربا ، فإنه إن هرب أحدهما قتل ابنك ، فسجنهما حسن الحورانى مقيدين ، ثم سقاه دواء فأخرج ما فى جوفه ، ووضع القطن على جروحه ، وأرجعه إلى الصندوق ، وأحكم عليه غطاءه ، وقال : لا تفتحوا الصندوق حتى تسمعوا منه طبلا وزمراً ، وتركهم ومضى .

وكان سبب مجيء جوان إلى إبراهيم أن سيف الروم حزن على إبراهيم ، وكان جوان يقول له : لا تحزن فإن إبراهيم لا يزال حيًّا ، وكان سيف الروم يقول : إن كنت صادقاً فأرنيه ، فلبسوا ثياب الحكماء وساروا



إبراهيم بن حسن في الصندوق وحوله أبوه وأمه وأخته

حتى طلبهم حسن الحوارنى . وكان جوان قد قرأ هذا فى كتاب اليونان .

أما سعد فإنه دخل على بيبرس فى ديوانه، فلما رآه رحب به، وقال: أهلا برائحة الأحباب اللهم ارحم إبراهيم، فقال سعد : على من تترحم ؟ فقال: على ابن خالتك . فقال : إن إبراهيم حى عند أبيه يأكل كشكاً، وقد رأيته ، وما أصابه شيء ، فقال : شفاك الله يا سعد ، لقد جننت لموت ابن خالتك ، وحق لك أن تجن لموته ، فقال الوزير : تبين منه الأمر أيها الملك . فقال : الأمر واضح ، وسأزيده لك وضوحاً ، والتفت إلى سعد وقال : من الذى رأيته يأكل الكشك ؟ فقال : إبراهيم ، فقال : ومن رأيته يا سعد قد قطع رأسه ، وارتفع فى الجو قدر قامة ؟ فقال : إبراهيم ، فقال الوزير : لقد أثبت الملك يا سعد جنونك ، إذ قلت له قولا يناقض بعضه بعضاً، ثم أمر الملك بإدخاله مستشفى المجانين ووصاهم به خيراً فأدخلوه فيه .

٣

أعطى الملك بيبرس محمد الهجام عشرة آلاف دينار وقال له : سر بها إلى قلعة حوران ، وسلمها إلى حسن الحورانى ، فإن فيها تخفيفاً لمصابه ، فسار بها الهجام حتى أدركه الليل عند قلعة مسياط فدخل على داود وشاهين، استقبلاه فرحين به مكرمين قدومه، ولما رأيا ما معه من الأموال رغبا فى أن يزوجاه أختهما ناقلة الحصون، وأجابهما محمد إلى رغبتهما ، فدخلا على أختهما ناقلة الحصون وقالا : نريد أن نزوجك من محمد الهجام ، لأن إبراهيم بن حسن قد مات ، فماذا أنت قائلة ؟ فقالت : إن إبراهيم زوجى فى الدنيا والآخرة ، ولن أتزوج من أحد من بعده أبداً ، وإن أنتم فعلتم ذلك فما أنا منكم ولا أنتم منى ، فقالوا : ما كان لنا أن نستشيرك ، ولا بد أن نزوجك ممن نريده ، وتركاها وخرجا، ثم أبرما عقد زواجها من محمد بن كامل الهجام ، ثم قالوا له : نريد عشرين رأساً من الغنم ، لنذبحها ليلة زفافك ، فقال : سآتيكما بما تطلبان ثم ركب وانطلق فى البيداء حتى أتى قلعة حوران ، وكان إبراهيم الحورانى قد شفى وخرج من الصندوق ، فهجم محمد الهجام على الرعاة وأخذ منهم المواشى ، وانطلق بها فى الفلاة طالباً قلعة مسباط ، فصاح الرجال وفزعوا إلى حسن الحورانى وأخبروه بما جرى ، فقال : اسكتوا حتى لا يعلم

إبراهيم بما حصل ، ولكن إبراهيم أحس أن شيئاً هاماً قد وقع وأن أباه يحاول كتمانه . فأقبل إليه وسأله : ماذا وقع ؟ فقال أبوه : كانت لنا بمرة فماتت وهى تلد ، فقلت لهم : ارموها فى الفلاة إلى الكلاب ، فقال إبراهيم : هات لأمة حربى ، فقال : لا تبرح مكانك يا ولدى حتى تقوى ، فقال : إن لم تحضر إلى ما طلبت قتلت نفسى بيدى ، فأحضر له ما طلب ، وخاف عليه السوء ، فركب ، وسار من خلف إبراهيم ، وانفلت إبراهيم فى الفلاة وهو لا يدرى أنأباه فى إثره . وما لبث إبراهيم أن أحس جرياً سريعاً من ورائه ، فالتفت إليه، فوجد فارساً كأنه الطود يطلبه ويسرع إليه ، ثم سمعه يقول : هات أجرة الخفر أيها السائر ، فقال إبراهيم : الأرض أرض قريش جدنا ، فقال : جئتك، فقال : مرحباً بك ، ثم اشتبكا وتصاولا ، ومرت بهما ساعة ما كان أقساها وأبشعها ، ثم ضيق إبراهيم عليه ولصق به، فرفعه من درعه وقال له : الآن من يعطى رفيقه أجرة الخفر ؟ فقال : كتب الله لك السلامة يا ولدى، وكشف اللثام عن وجهه فعرف إبراهيم أنه أبوه ، فقال له : لم فعلت ذلك يا أبى ؟ فقال : اشتد خوفى عليك ، فأحببت أن أختبرك ليطمئن قلبى ، فإن حميت نفسك منى حميت نفسك من غيرى ، وكان منى ما كان ، فقال إبراهيم : طب يا أبى نفساً ، وارجع إلى قلعتك ، ودع ابنك إلى خالقه ، وسلم إبراهيم على والده، وسار حتى كان عند قلعة مسياط ،فربط جواده فى مغارة ، وكانت هذه ليلة الزفاف ، ودخول الهجام على زوجته

ناقلة الحصون ، وكانت الجموع حاشدة ، والقوم سكارى من الفرح ومظاهر البهجة ، فانسل إليهم واختفى فى جموعهم وجعل يحتال حتى دخل قصر ناقلة الحصون ، وجلس فى أعلاه ينظر مايكون من أمرها وأمر زوجها.

ولما زف محمد ودخل على زوجته ، انصرف الناس ، وسكت الناطق ، وسكن المتحرك ، وغرق القصر فى سكون عميق ، فاستطاع أن يسمع ويعرف ما يجرى بين محمد وزوجته .

سمع إبراهيم ناقلة الحصون تقول : لا كان ذلك أبداً ، والله العظيم لن يتصل بى أحد بعد إبراهيم فى دار الدنيا ، ثم دفعت محمداً المجام بيدها وقالت : إن أنت دنوت منى قتلتك بيدى ، فلست أقوى منى ، أيها الوضيع الخسيس ، ألم يكن إبراهيم كبيرك وسيدك ؟ ! أليس له عليك حق حماية زوجته من بعده ؟ !

فأخذ محمد يتلطف إليها ويرقيها ، ولكنها لا تزداد إلا إباء وقسوة واحتقاراً له ، فلما أعياه أمرها عمد إلى استعمال القوة والجبروت ولكنها بكت بكاء من يطلب المعونة .

وقال إبراهيم إذ ذاك فى نفسه : إن استغاثت بى أغثتها وإلا تركتها وشأنها وانصرفت عنها ، ولما فرغ من حديث نفسه سمعها تقول لمحمد المجام بحق العهد الذى بينك وبين كبيرك إبراهيم أن تبتعد عنى ، فقال : مات كبيرى ، وبطل عهده بموته ، ثم دنا منها ، وكانت قد ضاق صدرها ، فقالت : أين أنت يا إبراهيم يا ابن حسن ؟! فما أتمت قولها حتى كان إبراهيم عندها ،

فلما رآه محمد أقسم أنه عفريت إبراهيم ، فاصطكت أسنانه ، وانحلت مفاصله ، وانخلع قلبه ، فقال له : احضن العمود ، والاسم الأعظم إن صحت لأجعلنك أنت والعمود أربع قطع ، ولا أبالى بمن فى القلعة جميعهم ، ثم ربطه إبراهيم وضربه ضرباً أليماً ، وأخذ ناقلة الحصون وخرج بها من حيث أتى وانطلق بها فى الفلاة .

انتظر داود وشاهين قدوم محمد الهجام فى صباح ليلة دخوله بأختهما فلم ينزل إليهما ، فذهبا إليه عندها ، فلم يجداها ، ووجدا محمداً مربوطاً ، وقد ضرب ضرباً أليماً ، فاطلقاه وأعطياه جواداً وقالا له : اذهب إلى ملك الإسلام وأخبره بما جرى لك ، فركب جواده ، وسار إلى مصر .

أما داود وشاهين فإنهما ركبا ، وسارا فى القفار والبرية يقتفيان أثر أختهما ناقلة الحصون ، حتى كانا على مقربة من المغارة ، فلما رأتهما عرفتهما ، فوضعت اللثام على وجهها ، وتقلدت سلاح إبراهيم وركبت جواده وخرجت إليهما وقالت : من أنتما ، وإلى أين تذهبان ؟ لقد ساقكما الأجل إلى إبراهيم بن حسن لتكونا طعاماً لسيفه ، فخافا وهمّا بالرجوع فهجمت عليهما ، وأمسكت أحدهما بيمينها والثانى بيسارها ، وألقتهما على الأرض ، وقالت : اذهبا من حيث أتيتما فقد أخذت أختكما ناقلة الحصون ، وقد عفوت الآن عنكما من أجلها ، ولولا أنى أعلم أنها تحزن من أجلكما لقتلتكما ، فقاما ينفضان عنهما غبار الذلة ، وركبا حصانيهما ورجعا ، واتفقا على أن يعرضا قضيتهما هذه على ملك

الإسلام ، فسارا إلى مصر .

ولما استيقظ إبراهيم حكت له ما جرى منها لأخويها ، فشكرها ، ثم سار بها إلى قلعة حوران ، فأقام فيها .

دخل محمد الحجام على بيبرس فى ديوان حكمه ، فقال له : أهلا بمحمد ، هل وصل المال إلى حسن الحورانى ؟ فقال : أخذت المال منك ، وانطلقت به إلى قلعة حوران ، ولما تعبت من المسير دخلت قلعة مسياط لأستريح بعضاً من الوقت ، ثم استأنف المسير إلى حسن الحورانى ، وقد أضافنى أهل بيت فى قلعة مسياط ، وأعجبتنى بنت لهم فزوجونيها ، ولما دخلت عليها فى غرفتها نزل علينا إبراهيم بن حسن ، وصلبنى على عمود وضربنى ضرباً وجيعاً ، ثم انفلت بزوجتى إلى الخلاء ، وقد رجعت إليك شاكياً ، فقال الملك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، حتى محمد أصابه مس من الجنون . وأمر أن يرسل إلى مستشفى المجانين !

وحضر بعده داود وشاهين فقالا : ظُلمنا أيها الملك ، وجئناك لتكشف عنا ظلامتنا ، فقال : ومن ظلمكما ؟ فقالا : إبراهيم بن حسن ، فإنه أخذ أختنا غصباً ، وقاتلنا وكدنا نموت بين يديه ، ففررنا منه وجئناك لتأخذ منه الحق لنا ، فابتسم ابتسامة كلها عجب وحيرة ، وقال أرسلوهما إلى المستشفى .

ثم التفت الملك إلى وزيره وقال : إن الحزن على موت إبراهيم أفقد رجالنا عقولهم ، فقال الوزير : هذا قضاء الله الذى لا مرد له .

وبعد قليل دخل على الملك جمال الدين شيحة ، ففرح بقدومه ،

ورجا فيه أن يجلو الغموض فى أمره، ويزيل الحيرة من نفسه ، فقال : يا أخى جمال الدين ، لقد كان موت إبراهيم بن حسن مصيبة على رجالى ، فأذهب عقولهم ، وكادوا لا يعرفون الليل من النهار ، فهذا سعد بن دبل قال لى : لقد رأيت بعينى رأس إبراهيم قد قطع ، ثم رجع وقال : ولقد رأيته بعينى يأكل الكشك عند أبيه فى قلعته ، فقال جمال الدين: لقد صدق سعد والاسم الأعظم ، كما صدق داود وشاهين ، فقال الملك : لا بد أنك أيضاً قد أخذ منك الحزن على موته مأخذه ، وأثر فيك كما أثر فيهم ، فقال جمال الدين . إنك معذور فيما تقول ، فاسمع منى قصته ، فقال: حدثنى يا أخى قبل أن يذهب عقلى . فحدثه جمال الدين بما جرى لإبراهيم ، ثم قال : وقد كنت حاضراً عند إبراهيم ، فى كل مكان ، وفى كل حادثة ثم أخذته من بين القتلى بعد سقوطه وداويته حتى شفى ، فاستمع لقصة علاجه وشفائه :

كان فى قديم الزمان رجل اسمه عبد المسيح ، وكان شيخاً لعلماء الفلك والنجوم واستفتاء الرمال ، وكان له أرهاط من الجن يخدمونه ، ومن أجل ذلك خشيه الناس وخافوه . وكان له ولد اسمه عبد الصليب ، فطر على الفسق والفجور ، حتى ضج الناس منه ، ولكنهم لا يعترضون سبيله ، ولا يقفون فى وجهه خوفاً من أبيه .

وذات يوم رأى بنت كبير الوزراء ، فهم بها كعادته ، ولكن الناس أخبروه أنها بنت كبير الوزراء ، فقال لهم : سأتركها احتراماً لأبيها ، ولكنه تبعها فى سيرها حتى عرف بيتها ، ليذهب إليها فيه ، حين لا يراه

أحد من الناس ، ولما بلغ الوزير ما كان من عبد الصليب مع ابنته شكاه إلى أبيه ، وقال له : مر ابنك أن يبتعد عن ابنتى ، فقال له عبد المسيح إن وجدته فى بيتك فاقتله ، وكان عبد المسيح لم يرد بذلك أن يقتله حقاً ، ولكنه أراد أن يقسو عليه، ويغلظ فى لقائه ، ويصرفه عن غيه وفجوره ، أما الوزير فإنه أخذ قول أبيه على عواهنه ، فلما دخل بيته ووجد عبدالصليب فيه دون أن يستأذنه صلبه على عمود وجعل يضربه حتى مات ، ثم وضعه فى مكتل كبير ، وألقاه فى الخلاء .

وخرج أربعة صيادين إلى هذا الوادى الذى ألقى فيه عبد الصليب ليصطادوا فعثروا بذلك المكتل ، وظنوا فيه شيئاً ثميناً وفتحوه فوجدوا فيه عبد الصليب بن عبد المسيح ، فساروا به إلى أبيه .

أدرك عبد المسيح أن الذى قتل ابنه كبير الوزراء ، فأحضره بين يديه وقال له : لم قتلت ابنى ؟ فقال : ما فعلت إلا ما أمرتنى به ، فاغتاظ وقال : إنك وزير جاهل ، لا يعرف وجوه القول ، ثم ضرب عنقه ، وكان قد حضر تلك الجلسة حكماء كثيرون ؛ فنهضوا وفحصوا عبد الصليب فوجدوه لا يزال به بقية من الحياة ، فقالوا : إنا نستطيع شفاءه ، فقال لهم : افعلوا ما شئتم مشكورين .

صنع العلماء صندوقاً على قده ، وصنعوا له حبوباً تغذيه وحبوباً ترويه ، وحبوباً تجر له الأنسام، وصنعوا تماثيل صغيرة من نحاس عليها رموز وكتابة تجعلها تقوم بوضع هذه الحبوب فى فم عبد الصليب ليبقى

حياً حتى يبرأ ، وكان منها ما يقوم بضرب الطبول والنفخ فى المزامير لتسليته، وأحضروا القطن الذى يضمدون به جروحه ، ولما هموا أن يضعوه فى ذلك الصندوق وجدوه قد مات .

حزن عبد المسيح لموت ابنه ، وأنطقه الله بسؤال العلماء فقال : لقد تعبتم فى صنع هذا الصندوق ، فهل له من فائدة بعد أن مات ابنى؟ فقالوا : سيظهر فى آخر الزمان نبى عربى ، ويتبعه خلق كثير ، ومنهم إبراهيم ابن حسن الحورانى ، وسيحصل لإبراهيم بن حسن هذا فى رومة كذا وكذا، ثم يأتيه شيخه الذى يلازمه ، ويضعه فى هذا الصندوق حتى يشفى ويبرأ، وتعود إليه حياته ، فإن جمال الدين هذا يعرف ذلك من كتاب اليونان ، لأنه سوف يقرؤه ويحفظه ، فقال عبدالمسيح : وأين يكون الصندوق حينئذ ؟ وكيف يعرفه جمال الدين ؟ فقالوا : سنضعه فى مغارة من جبل كذا، ونكل حراسته وحفظه إلى أعوان من الجن ، ونأمرهم أن ينادوا جمال الدين حين يقع إبراهيم تحت سنابك الخيل ويدلوه على مكانه ، فقال عبد المسيح : افعلوا ما قلتم ، ففعلوا ووضعوا الصندوق فى المغارة .

قصّ جمال الدين قصة الصندوق على الملك ، وذكره أنه جلس عليه هو وسعد فى دكان صانع الفطير ، فعجب الملك جد العجب ، وحمد الله على سلامة إبراهيم .

٤

وذات يوم جاء الملك الظاهر كتاب من محمد فارس صاحب الإسكندرية مع رسول يقول فيه : قدم إلى الميناء سفينة كبيرة وفيها تاجر يتكلم بلسان لا يعرفه أحد، وقد أحضرت له جميع القناصل ، عسى أن يكون من بينهم من يعرف لسانه ، فما عرف أحد منهم لغته ، فأخذته عندى ، وبعثت إليك رسولى بهذا الكتاب لأخبرك بأمره .

فكر الملك ملياً فلم يجد سبيلا يسلكه فى أمر هذا التاجر إلا أن يسافر هو نفسه وهناك يفعل الله ما يشاء ، فقال إبراهيم وأنا معك، وقال سعد كذلك ، وقال عز الدين : إن سمح الملك بسفرى معه كان خيراً له . فعسى أن أعرف لسانه ، فقال الملك لا بأس فى ذلك ، وسافروا جميعهم فى هيئة تجار إلى الإسكندرية وأمر الملك صاحبها أن يخفى أمرهم ، وأن يحافظ على تنكرهم ، واختفاء شخصياتهم فى هيئة التجار ، وهناك أمر الملك أن يحضر التاجر إليهم ، فلما جاء حاول جميعهم أن يعرف لسانه فما عرفوا ، ثم استأذنهم فى الدخول عليهم سمسار من المدينة ، وقال للملك ائذن لى أن أكلم هذا التاجر فلعلى أعرف لغته ، فأذن له الملك بذلك ، وتكلم التاجر فأجابه السمسار ودار الحديث الآتى :

قال السمسار : من أى البلاد ؟ وما الذى جاء بك إلى هذه البلاد ؟

وقال التاجر : إنى من جزائر الغلف ، وأتنقل فى البلاد للتجارة والكسب .
قال السمسار : إن جزائر الغلف بعيدة ، وإن تجارتك ليست من الكثرة بحيث تحتمل متاعب سفرك وتنقلك بين البلاد المتباعدة ، فأخبرنى بالحق والواقع ، قال التاجر : إنى من جزائر الغلف وتجارتى بمقدار حالتى ، وأنت تدعى أنك سمسار ، فلماذا تسأل عما لا يعنيك ؟ !

كان السمسار جمال الدين شيحة ، فقال للملك : إن هذا كافر ، وقد جاء فى مكيدة دبرت للإسلام والمسلمين ، ولهذا فإنى لن أفارقه ، حتى أتبين أمره ، وما جاء من أجله ، ثم التفت إلى التاجر وقال : أنت غريب ، وأنا غريب لأنى من جزائر الغلف ، وكنت « سرداراً » للملك إصطالود الغلفى ، فأنت من بلدى ، ولك على حق الإكرام وأن أكون تحت أمرك فيما تطلبه ، وأود أن تعيش معى فى بيتى ، لأتمكن من القيام بالواجب لك ، ولتستطيع أن تتحدث إلىّ بما شئت ، فليس فى المدينة من يعرف لغتك غيرى ، وإذا عزمت على الرحيل إلى بلدى فسأرسل معك كتاباً إلى أهلى ، فقال التاجر : أشكرك ويسرنى أن أقيم معك .

أخذ السمسار التاجر إلى بيته فأجلسه فى غرفة الضيوف ثم دعا الملك الظاهر وإبراهيم وسعداً وعز الدين ، وأحضر لهم شراباً ، فشرب التاجر حتى امتلأ ، ثم طلب المرحاض ، فأخذه السمسار وذهب به إليه ، وهناك أقفل مجرى البول فى جسم التاجر وعصبه حتى لا ينفذ منه شىء ، فكاد التاجر يجن من حبس البول واستغاث بالسمسار فقال له : لن أريحك ولن

أفك العصابة حتى تخبرنى بحقيقة أمرك ، وتبين لى لماذا جئت إلى هذه البلاد ؟ وهل أنت من جزيرة الغلف أو لا ؟ وإذا كنت منها فماذا حصل فيها ؟ فقال التاجر : سأقص عليك الواقع ، ولا أقول إلا الحق :

كان رومان ملك رومة أرسل كتاباً إلى ملك جزائر الغلف مع بشماطة قبطانه ، وكان معه قبطان المسلمين أبو بكر ، فأخذ منه الكتاب وأطلقه ، وحبس أبا بكر قبطان المسلمين عنده ، ولما رجع بشماطة أخبر الوزير مارين بما فعله ملك جزائر الغلف ، فقال مارين لملكه رومان إن ملك جزائر الغلف حبس عنده قبطان المسلمين ، فأرسل إليه ليطلق سراحه ، وأنا أذهب إلى ملك المسلمين ليطلق سراح أسرانا عنده ، فذلك أنفع لنا ، لأن جوان لا ينشد إلا حرباً تشتعل نارها بين النصارى والمسلمين ، ولا يبالى بكلا الفريقين ، وسواء عنده أماتوا أم عاشوا .

أرسل الملك بشماطة بكتاب منه إلى ملك جزائر الغلف إصطالود الغلفى وطلب إليه فيه أن يعتق قبطان المسلمين ، ويفك قيود أسره ، فلما قرأ كتابه سمع قوله وهم أن يطلقه ولكنه سمع ضوضاء وجلبة ، فانتظر قليلا وإذا جوان وصاحبه سيف الروم قد أقبلا ، فأجلسه الملك وأكرمه وسأله : أين تريد يا عالم الملة ؟ فقال : لقد كنت فى بحيرة إيفرة ، وقد علمت أحوالك من الحوارى مخبروت ، فجئتك طائراً على أكتاف الحواريين حتى أكون لك عوناً فى تدبير شئونك ، فقال إصطالود : جاءنى كتاب من رومان ملك رومة وهو يطلب إلىّ فيه أن أعتق من الأسر قبطان

المسلمين فما رأيك ؟ فقال جوان : إن أنت أطلقته كفرت بملة النصارى ، وحرمت عليك الجنة ، فبكى إصطالود وقال : وماذا أفعل يا عالم الملة ؟ فقال : قل لبشماطة : ارجع إلى رومان الملك ، وسأطلق سراح قبطان المسلمين بعد سفرك ، ثم ائتنى وأنا أدبر لك حيلة تقتل بها ملك المسلمين وتملك بلاده ، من غير تعب ولا مشقة ، ففعل إصطالود ما أمره به جوان ، وسافر بشماطة ومعه كتاب من الملك بذلك ، وهناك أعطى ملكه الكتاب فاطمأن لإجابته .

أما جوان فإنه جهز سفينة ووضع فيها تجارة وأحضر إفرنجياً وهو التاجر الذى لم يعرف لغته أحد — وقال له : لقد قرأت فى كتاب اليونان أنك ستكون ملك المسلمين ، إن كان اسمك بولص ، فقال : يا أبانا اسمى بولص ، فقال جوان : لقد جهزت لك سفينة وملأتها لك بالتجارة ، فارحل بها إلى الإسكندرية ، وامنح حاكمها كثيراً من الهدايا وانزل عنده ، واجتهد أن تعرف المسالك إلى قصر الملك الظاهر بيبرس ، ثم اتخذ ظلام الليل ستراً لك وحجاباً ، واذهب إليه ، واسرقه وإن تمكنت من ذبحه فاذبحه ، وسأمدك بجنود تملأ بلاد المسلمين ، وقد كتبت لك مائة سنة زيادة فى عمرك ، فقال بولص : بخرنى لتحل بركاتك بجسمى ، فبخره وأقلعت سفينته إلى الإسكندرية ، وهناك أخذه السمسار إلى بيته .

عرف جمال الدين شيحة قصة هذا التاجر ، فنقلها إلى الملك الظاهر ، ثم التفت إلى عز الدين وهو من أولاد إسماعيل ، وعاد بعد غياب يطالب بأن

يكون سلطاناً عليهم ؛ وقال له : أتستطيع السفر إلى جزائر الغلف وتخلص القبطان أبا بكر البطرنى ، والغراب المنصور؟ إنك إن فعلت ذلك، ورجعت إلى الإسكندرية تنازلت لك عن السلطان ، فقال عز الدين ، نسافر أنا وأنت ، والله يعطى من يشاء .

فالتفت جمال الدين إلى سعد وقال له : اذهب إلى مصر ، وأحضر إلينا من كان فيها من أبناء إسماعيل ليسافروا معنا ، وليشهدوا ما يكون بينى وبين عز الدين .

وبعد أيام قلائل كان أبناء إسماعيل فى الإسكندرية ، وأخبرهم شيحة بما جاءوا من أجله ، فرضوا بالسفر إلى جزائر الغلف ، ثم ركبوا جميعهم السفينة وأقلعت بهم فى البحر حتى رست على الجزيرة الأولى ، فلبثوا فيها للراحة ، وصنع لهم جمال الدين عصيدة فأكلوا منها جميعهم ، وظهر على أثر أكلهم لكل منهم سلعة فى جسمه ، فظهرت فى صدر هذا وظهرت فى رقبة ذاك ، وفى ظهر آخر وهكذا ، أما عز الدين فقد انتفخت بيضتاه ، وصارتا كالبطيختين ، فقال لجمال الدين : ما هذا ؟ فقال : إنها أمانة عندك ، فإذا فرغنا أخذناها منك ، فقال : لا أحب أن أحمل أمانة لأحد ، فخذها يا جمال الدين ، فقال : اصبر فإنها حيلة لخلاص الغراب المنصور وأبى بكر البطرنى قبطان المسلمين ، فسكت عز الدين على مضض وغيظ ؛ ثم ألبسهم جميعهم ملابس الرهبان ، وسماهم بأسماء أعجمية مختلفة ، وسمى نفسه البطريق أبا العجائب

ملدعون ، ثم أقلعت بهم السفينة إلى جزيرة الغلف الثانية ، فنزلوا جميعهم فيها ، وسار أمامهم جمال الدين متكئاً على عكازه ، وجعل يقرأ شيئاً من كتاب الإنجيل وهو لا يخطىء ، ودخل على إصطالود ، وقلبه أثبت من الجبل ، وكان ندى الصوت ، فأطرب الحاضرين بما قرأه من الإنجيل ، وكان جوان جالساً بجوار إصطالود ، وألقى كل منهما على الآخر نظرة عابرة .

أما سيف الروم فإن جمال الدين أفهمه بإشارته ورموزه ما أراد، وأملى عليه رغبته دون أن يشعر به أحد، وما عجز سيف الروم عن فهمها. فماذا أشار إليه ؟ لا تساعد جوان، فإن معى أبناء إسماعيل، وهم قادرون أن يقتلوكم ويخربوا تلك الديار ، وإن قهرناكم بالسيف ذبحتك وسلخت جلدك ، وإن أردت النجاة لنفسك ، فأغلق منافذ الحيلة فى وجه جوان ، فى متاهة من الضلال ، فأجابه سيف الروم بالإشارة ، وقال : لا تخف، فلن تلقى إلا كل خير .

وناول جمال الدين الملك إصطالود كتاباً ففضه وقرأ فيه :

من رومان ملك رومة إلى إصطالود الغلفى ملك الجزائر : وعدتنى فى كتابك أن تطلق سراح أبى بكر البطرنى قبطان المسلمين ، ولكنك لم تطلقه حتى الآن ، وقد أرسلت إليك البطريق ملدعون أبا العجائب فى صحبة رهبان دير نجران ، فإذا فرغت من قراءة كتابى هذا فسلمه البطرنى لأرسله إلى ملك المسلمين ، ولا تتبع خطوات جوان ، فإنك إن اتبعته وعملت برأيه جلبت إلى البلاد الخراب والدمار . ثم التفت إصطالود إلى

جوان : وقال له : ما رأيك فى كتاب رومان ؟ فأنت الذى أغريتنى بعدم إطلاق سراح البطرنى ، فقال جوان : هذا كلام فارغ لا أصل له ، فلا هو من رومان ، ولا كتبه رومان ، وما هذا الواقف قدامك إلا جمال الدين شيحة ، السارق المحتال فى جيش المسلمين ، فقال الملك : يا ملدعون ، إن جوانُ يقول : إنك شيحة ، فقال : كذب جوان ، وكيف ينجسنى بنسبتى إلى المسلمين ؟ ولتتأكد من كذبه فأوقد لنا ناراً ، ثم يقع فيها جوان وسيف الروم وأنا ورهبانى ، فإن كان فينا مسلم أكلته النار ، فقال الملك: إنك لصادق ، وأشهد أنك ملدعون ، وما جوان إلا كذاب مجنون ، فقال جوان : لا يرضينى هذا القول . فقال جمال الدين لإصطالود ، ضعنى أنا وجوان فى قيود من حديد حتى لا يهرب منا أحد ، ثم أرسلنا غداً إلى رومان ملك رومة ، فجعلهم جميعهم فى قيود من حديد ، وألقاهم فى السجن ، فقال عز الدين : فعلتها معنا يا شيحة ، خيب الله كل قصير مثلك ، فقال شيحة : اعلم يا عز الدين أن الله على كل شىء قدير ، وأنه بعباده لطيف خبير ، وأن الإسلام له رب يحميه ، وما ربك بظلام للعبيد ، فقال : صدقت يا شيحة ، وما كنت أريد إلا أن يزول ما حل بى من انتفاخ البيضتين ، وإن لم يزل هذا عنى أخبرت إصطالود أنك شيحة ، وأن جوان صادق ولا شك فى قوله .

وفجأهم بغتة أن رأوا جدار السجن ينشق عن عبد الله المغاورى ،

وهو يردد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الحديد انفصل ، واترك أرجل الرهبان ولا تنتظر .

ثم نقر القيود بإصبعه فانحلت ، ثم أعطى جمال الدين بوقاً وبذلة، وقال : البسها ، فإن أردت الصعود ذراعاً فازررْ زرًّا ، وإن أردت الهبوط ذراعاً ففك زرًّا ، وإن أردت الالتفات يميناً وأنت طائر فأدركمها الأيمن، وإن أردت الالتفات يساراً فأدركمها الأيسر، وقم الآن وطِرْ إلى الكافر وانفخ بذلك البوق فى وجهه ، فستخرج منه نار تشويه ، وبقية العمل عليك يا جمال ، يا سيف الإسلام ، أعانك رب العالمين ، فقال عز الدين : على رسلك يا سيدى ، أجرنى من — هذه « القليطة » — من انتفاخ البيضتين ، فقال : هات « القليطة » وخذ القرنين ، فذهبت « القليطة » وصار له قرنان فى رأسه، وقال إبراهيم : استر وجهى يا سيدى من هذه السلعة التى جعلها شيحة فيه ، فقال : إن وجهك معروف عند كل نصرانى ، فخذ هذا البرقع وضعه عليه، فقال سعد : جعلت واحداً خروفاً، وجعلت الآخر امرأة ، فقال : اسكت يا سعد حتى تتم حيلة جمال الدين، ويأخذ من هذه البلاد أموالها لتنفع الإسلام ، ثم تركهم وخرج .

خرج جمال الدين ورجاله إلى قصر إصطالود ، وهناك جعل يزرر أزراره واحداً بعد آخر ، وهو يرتفع فى الجو ذراعاً بعد ذراع حتى كان فوق سطح القصر ، ثم نزل فيه ، ونفخ فى البوق فأنار القصر ، وذهل إصطالود حينما وجد الضوء يملأ القصر فجأة وهو لا يدرى له سبباً ،

ثم دخل عليه جمال الدين ونفخ فى وجهه بالبوق ، فطار الشرر إليه ، فاستغاث به ، فقال : أنا الحوارى محرقون ، أرسلنى المسيح لأحرقك ، لأنه أرسل إليك البطريق ملدعون أبا العجائب وأمرك أن تطهر بلادك وأموالك فخالفته وحبست البطريق ورهبانه، وأطعت جوان الذى لا هم له إلا أن يهلك المسلمين والنصارى، وقد أمرنى أن أحرقك وأطهر البلاد، ثم نفخ بالبوق فى وجهه فطار الشرر وأحرق ملابسه فقال : إصطالود : أجرنى يا سيدى، فقد أطلقت ملدعون ورهبانه من الآن، فقال : ولا بد أن تطلق أبا بكر البطرنى ، وتصلح الغراب المنصور وتنزل فيه جميع أموالك النجسة بمعرفة البطريق ملدعون ، وأرسل معه مائة بطريق من عندك ، ليذهب بأموالك إلى عين سلوان ليطهرها ثم يعود إليك ، وكذلك سلمه جوان ليطهره هناك وليتوب عن السعى فى هلاك النصارى والمسلمين وتخريب بلادهم ، ثم نفخ شيحة فى البوق فقال إصطالود : أجرنى فإنى سأفعل ما أردت ، ثم خرج جمال الدين فذهب إلى جوان ووجده نائماً فبنجه ، ثم رجع إلى السفينة ولبس ثياب البطريق ملدعون .

ونهض إصطالود فى الصباح فأسرع إلى ملدعون فى سفينته ، فوجده يقرأ شيئاً من كتاب الإنجيل ووجد ذا القرنين ، وذا البرقع ، فوقف ذليلا بين ملدعون وقال : اغفر لى ذنوبى التى سلفت ، فقال : سلمنى جوان وسيف الروم اللذين نجسا اسمى وقالا : إننى شيحة المسلمين. فقال : قم يا سيدى وخذهما ، فأمر ملدعون إبراهيم وعز الدين أن يذهبا مع الملك

ويحضراهما ، فذهبا معه وأحضراهما ، ووضعاهما بين يدى ملدعون وإصطالود .

ثم قال إصطالود : يا سيدى جاءنى حوارى من عند المسيح ، وأخبرنى أن جميع أموالى نجسة ، وأمرنى بتطهيرها ، فكيف أطهرها ؟ فقال : اختر بطريقاً يكون غرقان فى ملة المسيح، وسلمه أموالك ليطهرها فى عين سلوان ، ثم يرجع بها إليك طاهرة ، فقال : لم أجد من يصلح لهذا الأمر غيرك ، ثم أمر الملك بإصلاح الغراب المنصور ، وسلمه إلى ملدعون وأعطاه جميع الأموال وأطلق البطرنى وجميع من عنده من الرهبان .

٥

ضاق صدر جوان ، فطار إلى ملك جنوة ، وقال له : إن المسلمين فتحوا كثيراً من بلاد النصارى وملكوها ، وقد جئتك لتكون عوناً لنا على طرد المسلمين ، فقال : لقد أطعتك فيما مضى من الأيام ، فخربت بلادى ، وأخذ معروف ابنتى ، فقال : سأجعلك هذه النوبة تملك بلاد المسلمين ، فقال الملك : إن براميل فى حصن السلاسل فاذهب إليه واجعله معنا على المسلمين ، فذهب إليه ، فاستقبله الملك براميل وقبل يديه وقال له : من أين جئت يا أبانا ؟ فقال : كنت عند المسيح ، فأمرنى أن أساعدك يا ولدى لتملك بلاد المسلمين ، فقال ملك جنوة : وما السبيل إلى ذلك ياأبانا ؟ فقال : إن لك أخاً اسمه بتوت ، فأحضره لى ، وسأعلمه كيف يصنع ؟ فلما حضر عرفه ما يفعله ، وجعله فى صفة تاجر ، وأرسله بتجارة إلى الإسكندرية ، ومعه كتاب إلى رجل نصرانى فيها اسمه علاء الدين ، وهو منافق يظهر إسلامه ، ويبطن كفره ، فأرسى بتوت سفينته على الميناء الحرب ، ونقل تجارته إلى خان بالإسكندرية ، ثم ذهب إلى علاء الدين المنافق ، وناوله كتاب جوان ، الذى أمره فيه أن يدل بتوت على سرداب الميناء الحرب ، وأن يخفيه عنده حتى يقوم بأعماله التى كلفناه بها ، فأنزله عنده ، وأخفى أمره ، وفى اليوم الثانى من قدومه ، أخذه إلى السرداب

ونزل فيه وسار حتى وصل إلى الميناء الخرب ، وأقام هناك ، وجعل يسرق أولاد الناس من الإسكندرية والناس يشكون إلى حاكمها ، وهو لا يستطيع أن يعرف السارق ، فكتب إلى الملك الظاهر بذلك ، وطلب منه أن يدركه أو يرسل من يعينه ، ويكشف عن الإسكندرية هذه الغمة ، فتنكر بيبرس فى زى تاجر وسافر وحده إلى الإسكندرية ، لأن إبراهيم وسعداً كانا قد ذهبا إلى قلاعهما .

دخل الملك الظاهر مدينة الإسكندرية متنكراً فى هيئة تاجر ، ونزل فى خان دون أن يعرفه حاكمها ولا أحد فيها ، وجعل يجوب أنحاءها لعله يعثر على الجانى ، وفى ليلة من ليالى جولانه رأى شبحاً فى الظلام فتبعه ، وكان هذا بتوت ، وما زال سائراً خلفه حتى دخل بيت علاء الدين ، فدخل الملك فى أثره ، واختفى بتوت فى ناحية ، ووضع البنج فى طريق الملك ، فلما شمه سقط على الأرض مغشياً عليه ، فأقبل بتوت إليه وكتفه ، ثم أيقظه وقال له : لا ينفعك ملكك ما دام القلم قد جرى بما كتب لك ، فقال الملك : ومن أنت ؟ فقال : أنا بتوت أخو براميل ، وقد جئتك لأقتلك بأمر جوان عالم الملة ، ثم بنجه ووضعه فى صندوق ، وأمر رجاله الذين معه فحملوه وساروا به إلى السفينة ووضعوه فيها ، ثم أقلعت بهم السفينة إلى حصن السلاسل ، وكان قد تخلف رجل منهم ، لأن السفينة أقلعت وهو يقضى حاجة فى المرحاض ، الذى أطال المكث فيه لأنه كان قد اشتد عليه السكر فنام فيه نومة طويلة ، ولما طلب السفينة ولم يجدها جعل يتردد

بين الميناء القديم والميناء الجديد ، فرآه الرئيس وأمسكه ، وسأله من أين أتى؟ فلم ينطق بشيء إلا أنه نصرانى .

وعاد إبراهيم وسعد إلى مصر فلم يجدا الملك الظاهر ، فسألا عنه الوزير فقال إنه ذهب إلى الإسكندرية وحده ، من أجل حادث فيها ، فسار إليه إبراهيم وسعد ولقيا صاحبها وسألاه عنه فقال : إن الملك ما أتى إلى الإسكندرية ولا علمنا به ، فقال : وكيف لا تعلم شيئاً عنه ، وقد جاءك ملبياً كتابك الذى أرسلته إليه ؟ فقال : والله ما رأيته ولا علمت شيئاً عنه ، فتركه إبراهيم وجاس خلال المدينة ، باحثاً عن الملك ، ولما وصل إلى الخان الذى نزل فيه الملك رأى جواده فأمسكه ، وسأل صاحب الخان عن صاحب هذا الجواد ، فقال : إنه خرج ليلة أمس ولم يعد ، وبينما هما يتحدثان أقبل جمعة رئيس الميناء ومعه النصرانى الذى أمسكه فيها ، فسأله إبراهيم عن هذا النصرانى ، فقال : رأيته مقبلا من ناحية الميناء الحرب فأمسكته ، فقال له إبراهيم : أأنت النصرانى؟ فلم يجب ولم ينطق ، فقال : أين الملك ؟ فقال : لا أعرفه ، وما رأيته ، فغضب إبراهيم وصفعه على وجهه ، وهز شاكريته فى يده فقال النصرانى : اصبر يا سيدى حتى أقص ما جرى ، وحكى له ما حصل من أوله إلى آخره ، وبين له : كيف سرق الملك ، فأحضر إبراهيم علاء الدين وأرغمه على أن يقص عليه ما كان من سرقة الملك ، فلما فعل ضربه إبراهيم بشاكريته وجعله نصفين ، وأغلق بيته وأحرق جثته ، وأمر سعداً أن يذهب إلى القلاع ،

ويحضر أبناء إسماعيل ، وبعد أيام قليلة كان سعد حاضراً بهم ، كما حضر جمال الدين شيحة ، الذى أخذ النصرانى فى يده ، وأرشده إلى السرداب ، وأطلق الأولاد ففروا إلى أهليهم ، وأرسل إلى الوزير فى مصر أن يقوم بالجيوش حيث يلتقى به عند مدينة جنوة .

وكان وصول جيش الوزير وبنى إسماعيل وجمال الدين وإبراهيم وسعد إلى جنوة فى يوم واحد . فنزلوا هناك واستعدوا للقتال ، وكتب الوزير كتاباً إلى ملك جنوة ، وبعث به إبراهيم بن حسن ، فوقف أمامه وقال : إنى رسول وزير المسلمين إليك ، وهذا كتابه إليك :

السلام على من اتبع الهدى ، من الوزير شاهين إلى حنا ملك جنوة ، اعلم أنك اعتديت وظلمت وخنت العهد ونقضت الميثاق ، فأرسلت إلى الإسكندرية بتوت أخا براميل ، فجعل يسرق الأولاد ، ثم احتال وسرق السلطان ، ورحل به إليك ، وذلك أفظع مظاهر الاعتداء ، وقد أتيتك بجنود يطلبون الحياة بالموت ، فإن أردت السلامة ، فأطلق أمير المؤمنين ، واعتذر إليه نادماً تائباً ، فعسى أن يعفو عنك ، وإن عصيت فما جزاؤك إلا ذبحك وصلبك ، وتدمير بلادك ، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ، وما الله بغافل عما تعملون . فالتفت الملك إلى جوان ، وقلبه ينبض بالخوف وقال : ما هذا الشر الذى فتحت أبوابه من كل ناحية ؟ فقال جوان : إنى عالم بما فى كتاب ابن الحورانى ، فاكتب إليه بالحرب ، ودع إبراهيم يفعل ما يشاء ، وسأدبر لك ما يجعلك سيدهم ،

ومالكاً لبلادهم ، ففعل ما أمره به جوان ، فأخذ إبراهيم الكتاب ، ورجع إلى الوزير شاهين ، وأحضر جوان بتوت وقال له : هذا وقتك ، وما هزيمة المسلمين إلا بيدك ، فقال بتوت : إنى لا أبالى بجموعهم .

وفى الصباح برز ملك جنوة بجنوده ، وجال فى ميدان القتال بطل من أبطاله اسمه قريعة . وصاح منذراً متوعداً ، فانقض عليه أيدمر البهلوان ، وضربه بالسيف ضربة أطاحت رأسه ، وقضى نهاره فى مناجزة الكفار ، فقتل منهم خمسين وأسر عشرين .

وفى اليوم الثانى ، فعل بهم حسن بن عجبور ما أذهل جنود جنوة ، وكان اليوم الثالث عليهم وبيلا ، فقالوا لجوان : لقد رأيت رجالنا يحصدون حصداً ، وما رأينا من المسلمين أحداً قتل أو جرح ، فقال : لا تخافوا يا أولادى ، واصبروا حتى يكون عدد القتلى منكم ثلاثة آلاف ، فإنى سأعيد الحياة إليهم ، فقالوا : ما هذا الضلال الذى ترمينا فيه ، وهل سمعنا أو رأينا أحداً حيى بعد موته ؟ إنك يا عالم الملة لضال أو مجنون ، أو إننا فى رأيك حيوانات تسوقها إلى الذبح فتهرع إليه .

فالتفت إلى بتوت وقال : قم يا بتوت وقاتل فى سبيل المسيح ودينه . فنهض مسرعاً إلى الميدان ، وبرز إليه إبراهيم الحورانى فضربه بشاكريته ، وألقاه على الأرض نصفين ، فانهال النصارى على إبراهيم ، وانفلت المسلمون يلقونهم ، ونفقت أسواق المنية ، وطارت أرواح النصارى إلى بارئها شاكية ضلال أصحابها ، ولم يلبثوا

غير ساعة من نهار ، ثم ولوا الأدبار ، ولاذوا بالفرار واعتصموا بالمدينة وأغلقوا عليهم أبوابها ، وأخبر ملك جنوة براميل بموت أخيه بتوت ، فحلف ألا يسكت عنه الغضب حتى يقضى على المسلمين ولا يبقى منهم أحداً ، ثم دخل على ابنته فى قصره ، فرأته حزيناً غاضباً ، فقالت : مالى أراك يا أبى غضبان متوجعاً ؟ ! فأخبرها بقتل بتوت ، وقال : وقد حلفت أن أقتل ملك المسلمين ومن كان معه ، فقالت : إن المسلمين كثير عددهم ، فانزل إلى قتالهم ، فإن قهرتهم فاقتل من تشاء منهم ، وإن أسروك فديناك بهؤلاء الأسرى ، فقال لها : ما أشرت إلا بالصواب ، ثم ركب جواده وتقلد عدته وسلاحه ، وذهب إلى جنوة من سرداب حصن السلاسل فدخل على جوان الذى فرح بقدومه ، وقال : لا تحسبن أن أخاك مات ، ولكن المسيح طلبه ، وعما قريب يرده ، فاركب إلى المسلمين وقاتلهم ولا تخف أحداً منهم ، فإنى أرعاك وأكفلك ، وأنصرك على من يبرز إليك ويقاتلك ، فقال : لقد عولت على هزيمة المسلمين ، ثم قتل من عندنا من أسراهم ، فقال : ومن الذى تركته للمحافظة على أسرى المسلمين وحراستهم ، فقال : تركت ابنى سابقاً لحماية الحصن وما فيه ، فقال : كان من الصواب أن يأتى معك ابنك ليساعدك فى قتال المسلمين ، فقال : ما أظنه يرضى بذلك ، فقال : سأرسل إليه سيف الروم ليأتينى به ، ثم كتب كتاباً قال فيه :

من عالم الملة جوان إلى ولدى سابق ، إذا فرغت من قراءة كتابى هذا

فاحضر من السرداب إلى مدينة جنوة ، لتحضر حرب المسلمين ، وسأساعدك برعايتى وعنايتى . ثم بعث به صاحبه سيف الروم، فلما تسلمه سابق ضحك حتى استلقى على ظهره وقال : إذا كانت له رعاية وعناية ، فلماذا لم يجعلهما لملك جنوة الذى أباد رجاله المسلمون؟ ثم مد يده وأمسك سيف الروم من رقبته ، فظن سيف الروم أن هذه يد شيحة فسكت ولم يتكلم ، ثم ألقاه على الأرض ، ومزق الكتاب ورماه مقطعاً فى وجهه ، وقال له : اذهب كما جئت ، ثم دخل سابق إلى أمه وقال : يقولون : إن لجوان رعاية وعناية وبركة ، وأين هى ؟ وإذا كان الأمر كما يقول ، فلماذا لا يجعلها لنفسه أو لهؤلاء المظلومين الذين جعلهم طعاماً لسيوف المسلمين ، وحق دينى ما جوان إلا كذاب أشر ، فقالت أمه : ومن الذى ذكر لك جوان ؟ فقال : أرسل إلىّ كتاباً ، ثم أعلمها بما فعله برسوله ، وبتمزيق كتابه ، فقالت : وما الذى أقعدك عن قتال المسلمين ؟ فقال : إنهم ما ظلمونى ولا حاربونى ، ومن الظلم أن أعتدى على أناس ما قدموا لى شرًّا ، فقالت : إن لك عليهم ثأراً ، فإنهم قتلوا أباك وأنت حدث صغير ، فقال لها : إن أبى براميل حى لم يمت ولم يقتل ، فقالت : إن براميل الذى لم يقتل أبى ، وأما أبوك فقد قتله المسلمون ، ومن عظيم شفقة أبى عليك أفهمك أنك ابنه وأنه أبوك ، حتى لا تعلم أن أباك قد مات فتحزن ، وتعيش يتيماً ، فقال : إذا كان أبى قد قتله المسلمون كما تقولين فإنى لا أترك أحداً منهم ينشق

نسيم الحياة . ثم قام ومضى فى السرداب حتى كان فى جنوة ، ودخل على ملكها وجوان ، فلما نظر إليه جوان اضطرب وفزع إلى سيف الروم قائلا : إن هذا الغلام أفزعنى ، وما أظنه إلا شيحة، فقال سيف الروم ما أعمى بصيرتك يا جوان ! إن شيحة جاوز عمره الأربعين ، وهذا الغلام حدث صغير ، وما أظنه إلا أنه ابن شيحة لقرب الشبه بينهما ، فاستقبل جوان هذا الغلام كأنه أحب الناس إليه وقال : اجتهد يا بنى فى الدفاع عن دين المسيح ، وخذ لبراميل ثأره ، فقال : ما أتيت إلا لآخذ بثأر أبى .

وفى الصباح برز الغلام إلى الميدان ، فنزل إليه بهاء الدين مستهزئاً به ، لأنه وجده حدثاً صغيراً راجلا لا راكباً . وبعد قتال بينهما دام نحو ساعة ، قفز السابق فكان ردفاً لبهاء الدين ، وأمسك خنجره بيده وقال له : إن لم تذهب إلى جنوة مكنت خنجرى هذا من عنقك وأعدمتك حياتك ، فسار بهاء الدين بجواده إلى جنوة ، وهناك أخذوه أسيراً. ودام هذا الغلام على هذه الحال مدة عشرة أيام حتى أسر كثيراً من رؤساء المسلمين وأمرائهم وأبطالهم ، فغضب الوزير شاهين وقال لإبراهيم أيرضيك أن يكون هذا مصير المسلمين وأنت فيهم ؟ فقال إبراهيم : إذا اشتد الكرب هان، ثم ركب جواده وقفز إلى الميدان وقال للغلام سابق : دونك والمبارزة يا كلب الكفار ، فقال له : سوف ترى ، وحاول الغلام أن يفعل ما فعله بغيره فوجده حريصاً يقظاً فابتعد عنه ورماه بخنجره فدخل فى وركه وجرحه

فقال جرحتنى يا ابن الكافرة ، فقال : اذهب وداو جرحك ثم ارجع لمحاربتى ، وتركه وطار إلى جنوة ، فلقيه الملك فرحاً ، وقال : ما سبقك بهذا أحد قبلك ، ولن يقدر عليه أحد بعدك ، وقال جوان : يا سابق ؛ إن إبراهيم الذى جرحته مشهور بين المسلمين ، وقد أصبح لا يستطيع أن يبرز إليك ثانية ، وإنى لا أزال أدعو لك بالنصر حتى تقتله أو تأسره فقال الغلام : لا أحب أن تدعو لى أو علىّ ، ثم تركه وطلع إلى القصر يريد النوم فما جاءه نوم ، فنزل إلى السرداب ومشى إلى حصن السلاسل ، فكان للسرداب ناحيتان ، إحداهما إلى البر ، والأخرى إلى البحر ، فرأى الغلام وهو سائر فيه شبحاً مقبلا ، فالتصق بجدار السرداب وتناول شيئاً يحميه من البنج ، ومر هذا الشبح بالسابق فتأمل فيه فوجده بطريقاً يونانياً متجهاً نحو حصن السلاسل وهو يقول : إذا كان عون من الله لعبده هيأ له السبيل إلى مراده . فسار من خلفه السابق وعلى بعد منه حتى وصل البطريق إلى باب السرداب ، وكان عليه غطاء من الخشب ، فأخرج من جيبه حجراً أخضر وفركه ثم مد يده إلى الباب وقال باسم الله توكلت على الله ، ورفع الباب وطلع ، ثم رده كما كان ، ثم تقدم السابق ورفع الباب وطلع خلف البطريق ، فرآه قد وصل إلى المكان الذى حبس فيه الملك الظاهر ، وذبح السجان ، وأخذ مفتاح السجن ، فصاح السابق من خلفه ، وأهرع إليه جماعة فأمسكوا البطريق ، وأقبل إليه السابق وقال : بحق دينك ومن تعبده ألست جمال الدين شيحة ؟ فقال : بلى ،

أنا جمال الدين شيحة ، فكتفه وحبسه بجانب الملك الظاهر ، فلما رآه الملك مكتفاً قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد كنت معتمداً عليك ، فإذا أنت حبست معى ، فقال : إنما اعتمادنا على الله العلى العظيم فالق الحب والنوى ، فقال الملك : وإن ربى على كل شىء قدير. وذهب السابق إلى أمه فرحاً ، وأخبرها بما جرى ، فقالت : نصرك رب المسيح يا ولدى ، و بلغك المراد .

ولما رجع إبراهيم جريحاً لقيه سعد فقال : لا تزال يا إبراهيم سيف الإسلام و بطل المسلمين ، فقال : لا تسخر يا سعد منى ، فإن الغلام جسور ، وخبير بالطعن والضرب ، وستعرفه إذا التقيت به ، فقال سعد : غداً أريك ما أفعله به إن شاء الله .

وفى الصباح نزل السابق وجال فى الميدان ، وجاءه سعد بن دبل، ونشبت المبارزة بينهما إلى وقت الظهيرة وحاول السابق أن يغلبه أو يفعل به ما فعله بغيره فما استطاع ، ولما أعياه سعد مشى إلى جنوة تاركاً ميدان القتال ، ثم رماه بقطعة من الرصاص أكبته على وجهه ، ثم نهض السابق مسرعاً إلى جنوة ، فرماه بقطعة أخرى وأكبه ثانية وكاد يقتله ، ثم نهض ودخل جنوة، وأغلق الباب فرماه بقطعة ثالثة من الحجارة أو الرخام ، وكان الباب قد أغلق فلم تصبه ، ثم دخل السابق على جوان وهو يرتعد خوفاً ، فاستحيا منه ولم يكلمه ، ولكن جوان قال له : لا تخف وسأجعل إبراهيم وسعداً يقعان فى أسرك دون قتال ، فقال السابق : وكيف

كان ذلك ؟ فقال : سأدلك على سرداب تحت الأرض تسلكه وتخرج منه خلف المسلمين ، وحينئذ تسوقهم أمامك بسيفك ، فقال له : إن كان الأمر كما قلت فإنى سأغلبهم أجمعين ، وقام جوان وأخذه إلى ذلك السرداب ، فسلكه ، وخرج منه فوجد نفسه من وراء المسلمين .

وهناك لقى إبراهيم وسعداً وهما يتحدثان فى شأنه. وكان معه بنج فأرسل رائحته إليهما فناما ، ثم أقبل عليهما وكتفهما ، ثم تركهما ورجع إلى أمه فأخبرها بما فعل ، وأنه يريد أن يأخذ معه بطارقة لحملهما ، فقالت له : وما ذنب هؤلاء يا ولدى؟ إنى لا أعرف لك شبيهاً فيما تفعله إلا جمال الدين شيحة ، فقال لها : إن جمال الدين عندى فى السجن ، وإن أردت أن أحضره إليك أحضرته ، فقالت : هاته لأشفى غليل صدرى منه ، فإنه جرحنى فى صغرى جرحاً لا يزال يتعبنى إلى الآن ، وما نفع فيه علاج أو دواء ، فذهب إليه وجاء به وهو يقول : أتجرح أمى فى صغرها ؟ لا بد من الانتقام منك ، فقال له : ومن أمك ؟ فقال : ستراها الآن . ثم دخل به على أمه وقال : هذا جمال الدين شيحة الذى جرحك فى صغرك ، فقالت : اربطه فى السرير حتى أعذبه العذاب الأليم، فربطه وتركه إلى إبراهيم وسعد ليحضرهما ، فوجد عندهما على بن الشباح فرجع من فوره إلى أمه فوجد باب الحجرة مغلقاً عليهما ، ونظر من شق فى الباب فوجده نائماً بجوارها كأنه زوجها ، وذلك أنه لما تركهما قالت لجمال الدين : أيجوز أن يفعل الملوك بزوجاتهم ما فعلته بى يا جمال الدين؟

أيصح فى دين الإسلام أن يتزوج الرجل ثم يهجر زوجته لأنها تركت دين الكفر ودخلت فى دين الإسلام ؟ فقال شيحة : حاش لله أن يكون ذلك ، فقالت : أنت فعلت معى ذلك ، فقد دخلت فى دين الإسلام وتزوجتك ثم هجرتنى ، فقال : ومن أنت ؟ فقالت: أنا مرينة بنت صاحب الخان ، فقد تزوجتنى فى مصر ، وكان صداق عقد الجوهر هذا الذى تراه فى عنق ، وقد حملت منك بهذا الغلام ، وسميته السابق ، وهو ابنك وأنت أبوه ، وأنا أمه ، ثم قامت ، وفكت رباطه وقالت أين الود الذى بين الرجل وزوجته ، لقد هجرتنى ثمانية عشر عاماً ، ما رأيتك فيها ولا رأيتنى ، ولكن هذا قضاء الله وقدره ، فتعانقا ونهض إليها وجلس بجانبها ثم اضطجعا متعانقين ، وجاء السابق ورآهما من شق الباب وهما على هذه الحال ، فضرب السابق الباب وكسره ، ودخل يبغى قتل جمال الدين فقالت أمه : تخلد فى النار يا ولدى إن مددت يدك على أبيك وأمك ، فقال لها : ومن هو أبى ؟ فقالت أبوك جمال الدين هذا ، وأنا أمك ، وأما براميل فهو بطريق من الكفار حكمنا هذه المدة حتى بان لك الحق وظهر ، فقال : ولأى شىء لم تخبرينى أنى مسلم ، حتى أهاجر بك إلى بلاد المسلمين ؟ فقالت: لو علم النصارى أنك مسلم لقتلوك ، فقال : ما دمت أبى فعلمنى الدخول فى الإسلام ، فقال أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقالها السابق بقلبه ولسانه ، وفرح جمال الدين بإسلامه ، وقال : وجب عليك يا ولدى حينئذ أن تؤيد

الإسلام وتنصره ، فقال : أرشدنى إلى أقوم سبيل لتأييده فقال : أن تقبض على جوان وسيف الروم ، وأن تطلق سراح الملك الظاهر وأسرى المسلمين ، وأن تحارب الكفرة اللئام أعداء الإسلام ، فقال : ذلك أمره علينا يسير .

ذهب السابق إلى براميل وقال له : قم بنا إلى ملك المسلمين ومن معه لنقتلهم ونفرغ إلى غيرهم ، فقام معه ، وسارا فى السرداب ، وحينئذ قال السابق له : اعلم أنى دخلت فى دين الإسلام ، وأريد أن تدخل فيه أيضاً ليدوم احترامى لك ؛ وتقبيلى يديك ، كما أحترم أبى جمال الدين وأقبل يديه ، فغضب براميل وأمسك سيفه وهم أن يضربه ، وإذا بضربة من سيف أطاحت رأسه ، وكان الضارب عز الدين .

وذلك أن جمال الدين بعد أن تركه ابنه السابق ذهب إلى الملك الظاهر وأخبره بما جرى وأطلق سراحه ومن معه . ثم تركهم إلى جنوة فأطلق الأسرى من المسلمين ، ونزل بهم فى السرداب ، فرأى عز الدين السابق وبراميل وهما يتحدثان ، ولما هم براميل بالسابق ليقتله أعجله عز الدين بضربة من سيفه أردته قتيلا . ثم طلعوا إلى حصن السلاسل فأهلكوا من فيه ، ثم ذهبوا إلى جنوة وهجموا على الكفار هجوم الصاعقة ، وجعلوا يقتلونهم حتى صاحوا : الأمان الأمان ، يا ملك الإسلام فنادى فيهم : لا أمان إلا لمن يدخل فى دين الإسلام ، وهكذا نصر الله دينه وعباده الصالحين .

وفى الصباح كان الملك الظاهر جالساً على عرش جنوة ، فدخل عليه جمال الدين ومعه الملك حنا وجوان وسيف الروم ، فأوقفهم بين يديه ، فقال الملك الظاهر : ألم يكن لك يا حنا عبرة وعظة بما جرى لك سابقاً؟ فقال : وما ذنبى أيها الملك ، إن ملك حصن السلاسل هو الذى دفعنى إلى ذلك ، وقد قتل ، فقال الملك ولأى شىء لم تمنعه ؟ فقال : حاولت منعه فما أمكننى من جوان هذا ، فقال جوان : ألم يكن لك عقل ؟ ولم تطيعنى وتكون سبباً فى الخراب؟ فقال حنا : صدقت يا جوان ، وما كان لى أن أهمل عقلى ، وأكون ظلا لغيرى ، وأستحق أكثر من هذا الذى جرى لى ، ولكنى يا ملك الإسلام قد اشتريت نفسى بنفقات جيشك ، ومضاعفة خراجك ، وإن عدت إلى مثل ذلك فلا غفران منك ، وجمال الدين يضمننى ، فقال جمال الدين : اعف عنه ، وأنا الضامن ، فعفا عنه ، أما جوان فعذبوه وأطلقوه هو وصاحبه ! ثم نهبوا ما فى حصن السلاسل وخربوه ، ثم أذن مؤذن المسلمين بالرحيل فارتحلوا إلى مصر غانمين منصورين !

٦

وجلس الملك الظاهر يوماً فى حجرة جلوسه فوجد ورقة قد كتب فيها :
أيها الملك الظاهر ، احترس لنفسك فإنك اعتديت وظلمت فأعطيت شيحة القصير ملك القلاع ، فأرسل إلى فى العادلية سلطان القلاع ، وإن خالفت أمرى أخذتك بيدى وإن كنت فى تخوم الأرض أو جلست فوق السحاب ، وإن أردت أن تعرف اسمى فأنا ملك الدنيا جبل بن رأس الشيخ مشهد .

فخرج الملك إلى الديوان والورقة فى يده ، وأقبل إليه تابع من أتباع جمال الدين وقال : رأينا فى الصباح كتابة على قلعة جمال الدين وهى تعلن عزله وأنه لا ملك إلا جبل ، فقال : سمعت وعرفت ، وكان جمال الدين غائباً ، وجلس الملك للأحكام .

وكان جبل بن رأس الشيخ مشهد جالساً يوماً فقال له أحد أتباعه : ما رأيت مثل شيحة فى الحيل ، وله فيها طرق لا تخطر على قلب بشر . وطلع عليهم إذ ذاك من كبد البر رجل بدوى على ناقة حمراء ، فسلم عليهم ، وردوا عليه السلام ، وقال جبل : إلى أين تسير ؟ فقال البدوى : إنى رجل عابر سبيل ، فقام إليه جبل وقال : أتريد أن تصيبنى بحيلك ؟ والاسم الأعظم ، ألست شيحة ؟ فقال : بلى ، أنا شيحة ، فكتفه وأراد أن يأخذه إلى قلعته ، ولكن أيدمر أقبل عليهم ومعه كتاب من

الملك الظاهر ، ففض جبل الكتاب وقرأ فيه : إن سلطنة القلاع ليس لى فيها يد ،وأمرها بينك و بين شيحة فإن غلبته كانت لك ، و إن غلبك و وقعت فى يده أخرج لبن أمك من بين أظافرك ، فضحك جبل ، وقال له أيدمر : هات المكافأة ، فكتب له ورقة بنصف أردب من الشعير وقال له : خذها من قلعتى لأنى هنا لا أملك شيئاً ، ثم قال : إن الملك يحذرنى جمال الدين شيحة مع أنه فى أسرى ، ثم أحضره بين يديه وضربه مائة سوط ، وأراد أيدمر أن يشفع له فنهره جبل وزجره ، ثم رجع أيدمر باكياً ، وأخبر الملك بما جرى له ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولما جاء إبراهيم وسعد حكى لهما ما فعله جبل بجمال الدين شيحة ، فقال إبراهيم إن كان المقدم جبل قد ظهر فقد ذهبت ريح شيحة ، وانقضت أيامه و بطلت حيله ، فقال الملك : حينئذ وجب علينا أن نغيثه ونخلصه من سجنه ، فقال إبراهيم وسعد : ونحن معك ، ثم ركبوا وساروا حتى دخلوا الشام وجلس الملك على كرسيه .

و بينما هم جلوس فى ديوان الشام دخل على الملك رجل يشكو ظلماً ، فسأله الملك : ومن ظلمك ؟ وما ظلامتك ؟ فناوله ورقة وقال : ظلامتى كتبتها فى هذه الورقة ، وأخذ الملك يقرؤها ، وإبراهيم وسعد جالسان عن يمينه و يساره ، وهما مطرقان ، فانتهز الرجل فرصة غفلتهما و إطراقهما ، ورفع يده بسيفه وهوى به على الملك ، وكان الملك الظاهر شديد الإحساس يقظ الانتباه ، فأدرك ذلك وترك الكرسى فى سرعة عاجلة ؛ فهوى السيف عليه ، وانتبه إبراهيم وسعد فقاما إلى الرجل يمسكانه ، ولكنه انطلق فى

الصحراء كأنه الريح ، فتبعه إبراهيم وسعد ، وألزمهما الملك بإحضاره، وكان هذا الرجل المقدم جبل بن رأس الشيخ مشهد .

واستمر يجرى حتى دخل دير التقديس بجوار قلعة صوانة ، فوجد فيه طائفة من الرهبان يتلون الإنجيل وبطريق الدير بينهم يفسر لهم ما يقرءون ، ويبين لهم الحلال من الحرام ؛ فأراد أن يعمل فيهم حسامه ، فقال البطريق : ولم تقتلنا أو تؤذينا ونحن ما قدمنا لك إساءة ، ولا قتلنا لك أحداً ، ولا صلة لنا بالناس ، وإنما نحن عاكفون فى هذا الدير لا يجرى على أيدينا إلا كل خير ؟ ! فقال : قد خاصمت الملك الظاهر ، وأريد أن أقيم فى هذا الدير حتى أقضى أمرى معه ، ولكنى خشيت إن تركتكم أحياء ، أمسكتمونى وأسرتمونى ، أو أعلمتم بى أحداً من المسلمين ، فقال البطريق : إن كنت حذراً فخذ حذرك من شيحة ، فإن له من عجائب الحيل ما لا يخطر على قلب بشر ، فقال : إن شيحة محبوس عندى ، فقال البطريق : أصبح الآن بقية المسلمين أعجز من الأطفال الرضع ، فاتخذ من هذا الدير مخبأ ، وأقم فيه ثم اخرج إلى المسلمين كل يوم ، وهات من تأسر منهم إلى هذا الدير ، فاذبحه وارمه فى الجب حتى تفرغ منهم ، فقال : وأين الجب ؟ فقال : إنه من خلفك فارفع الغطاء الرخامى وانظر فيه تجده كما قلت لك : فرفع جبل الغطاء ووجد الجب كما قال البطريق ، فاطمأن إلى قوله وجلس ، وأحضر له البطريق طعاماً فما ازدرد أول لقمة حتى استلقى على الأرض فاقد الوعى ،

فكتفه البطريق ، ثم أعطاه شيئاً فأفاق من غشيته ، فنظر جبل إلى البطريق وقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذى ضربته وما استحييت ، وسأذيقك الآن أليم الضرب . وأقبل إبراهيم وسعد إلى جمال الدين وسألاه : كيف خلص من سجنه فقال : عرف ابنى محمد السابق أن جبل سجننى فى قلعة الصخر ، فجاءها ليلا واختلط بأتباعه ، وفى الليل دخل علىّ وخلصنى ، وقال لى أدرك خصمك فإنه اتجه إلى الشام ، فسار شيحة وعثر فى طريقه بذلك الدير ، وكان معه ابنه وجماعة من أتباعه ، فدخلوا الدير وقتلوا من فيه ثم أقاموا فى الدير على صفة الرهبان ، وكان شيحة بطريق الدير ، ومحمد ابنه بوابه ، فلما دخله جبل جرى له ماجرى من جمال الدين .

وقال إبراهيم : إن الملك الظاهر ألزمنا بإحضاره فقم ياجبل وأجب دعوة الملك الظاهر ، فقام جبل ومشى معهم راجلا ، مكتفاً حتى وقف بين يدى الملك الظاهر فقال له :

لماذا عصيت ؟ فقال : وما ميزة شيحة حتى يكون ملكاً علينا ؟ فقال شيحة : لا تطلب ما لا تستحق ، والأمر بينى و بينك بالحجة ، ثم أمسك السوط فى يده وقال : إنك ضربتنى مائة سوط واحتملتها ، فإن احتملت بهذا السوط ، ثمانين ضربة ، تركت لك ملك القلاع والحصون ، فقال جبل : قد يكون سوطك هذا مسموماً ، فقال شيحة : فماذا تريد ؟ فقال جبل : نركب إلى أحد ملوك الروم لقتاله ، فمن غلبه منا كان ملك القلاع له ، فقال شيحة : رضيت بذلك .

٧

جاء الملك إذ ذاك تابع من أتباع موسى بن حسن القصاص ، وقال : مررت بقلعة لملك اسمه صليب الروم ، وقد أغراه جوان بقتال المسلمين ، والخروج من طاعتك ، فاستمع لقوله ، وأطاع كيده ، وجمع الجموع لغزو بلاد الإسلام ، فأنعم الملك على هذا التابع ، وأراد أن يجهز جيشاً لقتال هذا الملك وتأديبه ، فقال شيحة : لا تتعب نفسك ، فأنا وجبل خصوم هذا الملك وغرماؤه ، فمن فتح قلعته منا وجاء به أسيراً فهو ملك القلاع والحصون ، فقال جبل : ذلك حق ، وقد رضيت به ، وهذا أمير المؤمنين شاهد علينا ، والله خير الشاهدين ، ثم ركب جبل وتوجه إلى قلعته .

دخل صليب الروم دير حنا بالقرب من القلعة فوجد فيه بطريقاً واقفاً ، وبيده كأس نحاس ينقره بيده ويقرأ بصوت جميل ، فطرب صليب الروم بصوته وتقدم إليه وقبل يده ، ثم وضع فى كفه قبضة من الذهب فرماها البطريق وقال : مالى وللدنيا وأموالها وزينتها؟ ليس لى منها إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، فتعلق بمحبته صليب الروم ، ورجا عنده الخير ، وقال : أرجو منك أن تتفضل على بوجودك فى قلعتى ، وتدعو لى أن ينصرنى المسيح على المسلمين ، فقال البطريق : يا ولدى

أما الدعاء فإنى داع لك ، وأما ذهابى معك إلى قلعتك فلن يكون ، فقال صليب الروم : ولماذا ؟ فقال : لأن عندك جوان، وهو يكره جميع البطارقة والرهبان ، وإن رأى البطريق الكبير قال : إنه جمال الدين شيحة ، وهو فى ذلك معذور ، لأنه يخاف أن يقتله شيحة ، فلا يكون فى الدنيا جوان ، ولأنه يحقد على جميع البطارقة ، ويود ألا يكون فى الدنيا عالم فى الملة المسيحية غيره ، ولهذا فإنى لا أحب أن أراه ولا يرانى ، فقال صليب الروم : لقد عرفت أن جوان ناقص العقل ضعيف الرأى حينما رأيته يرقص كالمجنون وقت أن أسرت جماعة من المسلمين ، فقال البطريق : إنى أعلم أنه مأفون وجاهل أحمق ، فإن أنا ذهبت معك قال : إن هذا جمال الدين شيحة ، وربما صدقته أنت وآذيتنى ، فحق عليك غضب المسيح ، وخلصنى من شرك الحواريون فقال صليب الروم : وحق المسيح يا أبانا ، إن قال جوان إنك شيحة لأقتلنه ، فمضى البطريق معه ولما رآه جوان قال : يا صليب الروم ، من هذا الذى معك ؟ فقال : اسكت يا جوان ، ولا تدخل فيما لا يعنيك ، وحق المسيح إن قلت عن هذا البطريق إنه شيحة لأقتلنك وإن أيدك المسيح فى قولك ، وقال سيف الروم : إن جوان هذا ما رأى فى حياته بطريقاً صالحاً إلا ادعى أنه شيحة ، فإن وجد ملكاً عاقلا كذبه ، وإن وجد ملكاً مجنوناً صدقه ، وأنزل بالبطريق الضرر أو القتل ، فتنصب عليه لعنات المسيح وغضبه ، ويكون جزاؤه القتل ، وفناء جنده ، وتخريب بلاده ، فقال جوان :

ما هذا الكلام يا سيف الروم ؟! فقال : إنه الحق ، وأنت تكره علماء الملة النصرانية ، ولا تسعى إلا فى إيذائهم وقتلهم ، حتى لا يكون فى الدنيا عالم غيرك ، وقال مقدم من أتباع صليب الروم : قم ياجوان وخذ سيف الروم معك واجلس فى خيمتك ، وإن لم تعجل باعتزالنا قتلتك وصلبتك ، فأخذه سيف الروم وقال : قم يا نجس ، فقد أحكم المعلم صنعته .

ونظر البطريق إلى الجنود الراكعين أمام صليب الروم ورأى من بينهم جبل بن رأس الشيخ مشهد ، فقال للملك : أرى أن تقبض على هذا الفارس الطويل الواقف بين هؤلاء الجنود ، فإنه مسلم ، وفارس جبار لا يطاق ، وسأدبر لك حيلة للقبض عليه ، لأنه ذو بأس شديد ، ولا تنفع فيه القوة ولا كثرة الجند ، ثم أخرج من جيبه بعضاً من لوز مقشور ، وجعل يوزعه على الواقفين ومنهم المقدم الذى أنذر جوان بالقتل إن لم يعتزلهم ، وكذلك أكل جبل فوقع على الأرض مغشياً عليه ، وحينئذ أمر صليب الروم أن يكتف ويقيد ، فنفذوا أمره .

ولما أيقظوه نظر إلى البطريق وقال : ما أنت إلا جمال الدين شيحة ، وقد خدعت الملك صليب الروم وظهرت أمامه على هيئة بطريق كبير ، فقال صليب الروم لجبل بن رأس : أأنت مسلم ؟ فقال : نعم ، أنا مسلم ، وهذا شيحة الذى يخرب بحيله بلاد النصارى ، فاقبض عليه ، ثم اقتله واقتلنى معه ، لتنجو من شره ، وقال المقدم لم أردت إيذاء هذا الفارس ؟ — مشيراً إلى جبل — فقال البطريق : لأنه سارق وقد نهى المسيح

عن السرقة ، فقال المقدم لصليب الروم : لا شأن لك بالبطريق وتابعه ، فدعه يؤدبه ويصلح شأنه ، وما علينا إلا أن نصلح بينهما ، فقال : أنت تعلم عقيدة البطارقة وأحوالهم فأصلح أنت بينهما ، فساق المقدم جبل بن رأس إلى سجن بالقلعة وهو يضربه لعصيانه البطريق وسرقته أموال الناس ، وجبل بن رأس فى عجب عجاب من إهمالهم نصحه ، وبات جبل ليلته وهو فى غم من عجزه ، وضعف حيلته .

وفى الصباح دخل عليه البطريق وقال له : يا جبل ، إن قلعة صافينا قد فتحت أبوابها ومدافعها عطلت وحراسها ذبحوا ، فخذ سلطنة القلاع والحصون .

ثم فكه من قيوده وأعاد إليه حريته ، فنهض واقفاً ، فقال له : اذهب إلى الملك الظاهر ، وأخبره أنك فتحت القلعة بسيفك ، فقال جبل : إن الذى يعصيك لئيم غادر ، وما أنا إلا فى طاعتك ومن أخلص أتباعك ، وأوفى أعوانك ، وكتب اسم شيحة على « شاكريته » فقال له : هيّا بنا إلى الملك الظاهر .

ورحلوا إلى بيبرس ودخلوا عليه فى الشام ، وقصوا عليه ما كان ، وقال جبل إنى أطعت شيحة وأصبحت من أتباعه ، فأنعم الله الملك عليه وأعطاه جواداً كريماً . فركبه وسار به فى البرية فرحاً بهدايته إلى الرشاد .

وبينما جبل بن رأس يسير فى البرية ، وجد غابة ، فنزل عندها للراحة فطلع عليه اثنان عرفهما وكانا من أولاد أخته ، وكان قد بلغهما ما بين

شيحة وخالهما ، فخرجا إليه ليساعداه ، والتقيا به عند هذه الغابة ، وقالا له : إنك تلبس حلة فاخرة ، ومعك جواد كريم ، فهل أخذت القلاع من شيحة ؟ فقال : والله إن شيحة يستحق أن يكون ملكاً على جميع القلاع ، وما خالكما إلا قطرة من بحره ، وحكى لهما ما جرى ثم قال : ولما رأيتنى أقل منه كتبت على شاكريتى اسمه ، وها أنا ذا راجع إلى قلعتى . فأنكرا عليه طاعته ، وضرباه بسيفهما وتركاه جريحاً ، وكان النهار قد أوشك أن ينقضى . ووجد الرعاة وهم عائدون جبلا ملقى على الأرض جريحاً ، فأخبروا أحد أتباع والى الشام فجاءه ونقله إلى مستشفى الشام ، ثم دخل على الأمير عيسى وقال : إنى وجدت فداوياً اسمه جبل ملقى على الأرض جريحاً ، وهو من أتباع شيحة ، فنقلته إلى المستشفى فأرسل عيسى فى الحال إلى الملك الظاهر وأخبره ، وكان فى وليمة فى قلعة المعرة عند سليمان الجاموس ، فقام فى ساعته ورجع إلى الشام ، وأبى سليمان الجاموس إلا أن يكون معه ، وذهبوا إلى جبل فى المستشفى ، وسأله الملك عن الذى جرحه ، فقال : الذين فعلوا بى هذا من لحمى ودمى ، وما حملهم على ذلك إلا جهلهم ، ولا يتعبنى الآن إلا هذه الجروح فإنى لا أذوق النوم من شدة آلامها ، فقال إبراهيم إنى أعرف بالشام رجالا يداوون الجروح ، فأمره الملك أن يأتى بأحدهم ، فقام وأخذ سعداً معه وخرجا من المستشفى وسارا فوجدا دكاناً به آلات الجراحة وقد وقف على بابه صاحبه ، فقال إبراهيم له : أتعرف أن تعالج مجروحاً ؟ فقال : لا يمضى عليه نهار إلا وقد برئ من

جروحه ، فقال إبراهيم : إنك إن عالجتها فسينعم عليك الملك ، ولكن لى نصفها ، فقال الرجل ، ولك نصفها .

فأخذه إبراهيم ودخل به على الملك، فتقدم الرجل إلى جبل ، وجعل يخيط هذا الجرح وينظف هذا ثم دهن الجروح بدواء معه فشفى منها فى الحال، فعجب الملك ونظر إلى الرجل وقال : اطلب منى أمنية ، فقال الرجل : أطلب من الملك ألف سوط ، فقال الملك : ولم طلبت ذلك ؟ فقال : لا أريد غيرها ، فإنها أمنيتى ، فأمر الملك أن يعطاها، فقال : أعط شريكى هذا وهو إبراهيم نصفها ، فقال إبراهيم : لقد تنازلت لك عن نصيبى !

فضحك الطبيب ، وكشف عن نفسه تنكره ، فإذا هو جمال الدين شيحة ، ففرحوا به ، وشكروا له فضله .

٨

رأى الملك الظاهر فى المنام أن والدته مريضة ، وهى تتأوه من الألم وتقول : زرتك يا بنى فى المنام فزرنى أنت فى اليقظة قبل أن يأتينى الموت وأفارق الدنيا ، فاستيقظ وهو فى قلق عظيم على والدته ، وقص رؤياه على « تاج بخت » ، فقالت : للأم على ولدها الإحسان والطاعة ، وصلة الرحم واجبة ، فزرها كما طلبت ، وتلك فرصة سنحت لك لزيارة « أبيك » فى بلده فقال : لبيك يا أماه ، ولك السمع والطاعة .

أناب الملك الظاهر عنه فى الحكم ابنه محمداً السعيد ، ووصاه أن يستمسك بالعدل ، وأن يجانب الإهمال والبغى حتى يرجع إليه ، ثم ركب للرحيل ، وصحبه المقدم إبراهيم بن حسن وسعد وعثمان ، وأوغلوا سيراً فى البر الأقفر ، وكان يحدث إبراهيم فى نشأته وتاريخه وهم سائرون . ولما أشرفوا على خوارزم رأى الملك مغارة والوحوش داخلة فيها وخارجة منها فقال : انظر يا إبراهيم — وأشار إلى المغارة — هذه المغارة التى ألقانى فيها أعمامى صغيراً ، وأغلقوا بابها بالحجارة ، فهيا بنا إليها ، فقال إبراهيم : سمعاً وطاعة .

دخلوا المغارة فوجدوا أربعة من العجم قد ذبحوا اثنين من العجم ، فتبين الملك الظاهر الذبيحين فإذا هما عمّاه اللذان كانا السبب فى إخراجه

من دياره وهو صغير إلى بلاد العرب ومفارقته والديه .

أيقن الملك أن عميه قتلا خفية ، وأن القتل غدر وغيلة ، وضرب أحد الأربعة بسيفه فقتله ، وتبعه إبراهيم فقتل ثانيهم وتقدم سعد فذبح ثالثهم ، أما عثمان فإنه أمسك رابعهم وقال للملك الظاهر ، اصبر حتى تسأله عن أمره ، وأمر أصحابه الثلاثة ، ومن ذبحوهما فى هذه المغارة ، فإنى إن أخبرتكم عن أمرهم ارتبتم فى قولى . فسأل الملك الظاهر العجمى الرابع قائلا : من أنت ؟ ومن أصحابك ؟ ومن هذان الرجلان اللذان ذبحتموهما ، ومن أمركم بذبحهما فى هذه المغارة ؟ فقال العجمى : إن كلا من الرجلين اللذين ذبحناهما أخ « للشاه جملك » ملك خوارزم ، وذلك أن هلاوون ملك « توزيز » ماتت زوجته وأراد أن يتزوج بنتاً جميلة من بنات الملوك ، فقيل له : إن « الشاه جملك » له بنت ذات جمال رائع ، اسمها خاتون ، وقد لا تجد مثلها فى الكمال والأدب . فأرسل فى خطبتها رسولا إلى أبيها ، ولكن أباها أبى أن يزوجها من ملك يعبد النار من دون الله ، فجدع أنف الرسول ورده خائباً .

كبُر عند « هلاوون » أن يرتد رسوله مجدوع الأنف ، فأقسم بالنار أن يأخذ « خاتون » غصباً ، ويقتل والدها ويخرب بلاده ، وركب فى جنده ، وأغار على خوارزم ، ودارت الحرب أمامها أربعين يوماً جرح فى نهايتها « الشاه جملك » ، ولكن الملك هلاوون لم يستطع أن يدخل المدينة ويستولى عليها ، وظن أن ضعفاً دب فى جيش « جملك » بسبب جرحه ،

وإيوائه إلى فراشه ، فعزم على أن يدخل المدينة عنوة ، ولكن وزير ميمنته نصح له ألا يعجل بما عزم عليه من دخوله المدينة عنوة ، فربما كان فى ذلك القضاء عليه وعلى جيشه ، أما وزير الميسرة « ثالون » فإنه اختار أربعة من الجند وكنت أحدهم ، وكلفنا أن نذهب إلى خيمة الملك « جمك » ونسرقه ، ونحمله إلى هذه المغارة ، ونقتله فيها ، فصدعنا بأمر الوزير وذهبنا إلى الخيمة فلم نجد إلا أخويه ، فسرقناهما وجئنا بهما إلى تلك المغارة وذبحناهما ، وكان فى عزمنا أن نأخذ رأسيهما إلى وزير الميسرة ، ولكنكم دخلتم علينا وفعلتم ما فعلتم ، فتقدم إبراهيم إلى هذا الأعجمى وأطاح رأسه ، وحفر سعد قبرين فى المغارة ، ودفن فيهما عمى الملك بعد غسلهما وتكفينهما ثم خرجوا وساروا إلى خوارزم .

وجد الملك الظاهر وصحبه أمام المدينة جيش هلاوون يقاتل جيش أبيه « جمك » فقال : هيا بنا نخوض هذه المعركة فإما صرفنا عن المسلمين أعداءهم ، وإما استشهدنا فى سبيل الله ، فنحن فائزون بإحدى الحسنيين .

هجم الملك الظاهر وإبراهيم وسعد على الأعداء ، وكانت رحاها دائرة ، فكانوا قوة فى جيش المسلمين ، والطامة الكبرى على هلاوون وجيشه ، فكم قتلوا وكم فتكوا وهم يصيحون مكبرين ، وأحس المسلمون بأس الملك الظاهر وصاحبيه على أعدائهم ، فقوى عزمهم وعلا بالتكبير صياحهم ، وجعلوا يجزون أعداءهم جزاً ، ولما وجد هلاوون أن جيشه

مقضى عليه بالفناء إن استمر مقاتلا أمره بالفرار من سيوف المسلمين ، ورجع بجيشه مدحوراً .

أحاط بالملك الكبراء والقادة من جيش أبيه معجبين به وبشجاعته وسألوه عن نفسه ومن أين أتى فقال : أنا محمود الظاهر ملك بلاد العرب وابن الملك « جملك » وقد جئت لزيارة أبوى وأهلى فألفيت نيران القتال مشتعلة بينكم وبين أعدائكم فخضت أنا وصحبي معكم معاركها وكان ما رأيتم من نصر الله وتأييده .

أشرقت وجوه القادة والكبراء بقوله هذا وأقبلوا عليه يسلمون ويهنئون وبعثوا فى الحال من أخبر والديه وأهله فى قصرهم بالمدينة فنشط والده من عقال الألم من جرحه وخرج إلى لقائه فى جمع من وزرائه فرحين .

ولما وقعت العين على العين انكب الأب على ابنه وضمه إلى صدره ليطفئ نار الفراق التى كادت تحرق كبده ، ثم سار جميعهم فى حفل جامع يتلألأ بشراً إلى القصر ، وهناك دخل على أمه التى أقعدها المرض وأعجزها عن القيام فسلمت عليه وهى مضطجعة على فراشها . ولم يستطع الفرح بابنها أن يخفف عنها وطأة المرض لتقوم إلى ابنها الذى جاءها بعد غيبة طويلة كلها غم وألم من أجله ، وكان إبراهيم وصحبه فى حجرة أخرى من قصرها فبلغه شدة مرضها فقال لأحد الخدم هات شيئاً من ملابسها لأرقيه حتى تبرأ من علتها بإذن الله ، فجاءه بخمارها وجعل يقرأ عليه الفاتحة ثم بعثه إليها فلما وضعته على رأسها برئت من شدة المرض واعتدلت جالسة .



الملك الظاهر يلقى أباه

وقص « جملك » على ابنه ما فعله « هلاوون » فاغتاظ وكتب إليه كتاباً وأرسل سعداً به إليه ، فانطلق من خلفه كأنه الريح حتى أدركه فى جيشه المهزوم الهارب وناوله كتاب الملك الظاهر ففضه وقرأه على وزرائه :

من الملك الظاهر إلى هلاوون :

السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فقد عرفت سبب قتالك لأبى ، وعجبت من طمعك فيما ليس لك فيه مطمع وأردت أن تأخذ بالقوة من حرمها الإسلام عليك ، فإذا قرأت كتابى هذا فأرسل مِن فورك مَنْ عسى أن يكون عندك أسيراً من المسلمين ، وإن لم تفعل جئتك وقضيت عليك ، وهذا نذير لك ، فإما أطعت وسلمت ، وإما أبيت وهلكت .

ولما انتهى من قراءته التفت إلى وزرائه وسألهم عن رأيهم فى كتاب الملك الظاهر هذا ، فقال وزير الميسرة ، أرى أن ترجع إلى مدينتك وتزيد فى قوة جيشك ثم تجيب الملك الظاهر بسيفك ، وقال وزير الميمنة : إن إراقة الدماء محرمة فى جميع الأديان ، وعندى بهرمان أخو الملك « جملك » وأرى أن ترسله إليه مكرماً ، وتعتذر إلى الملك الظاهر ، وترجومنه أن يؤثر السلم على الحرب ، فإن العرب قوم فى سيوفهم ورماحهم الموت الزؤام ، فقال هلاوون : وكيف كان بهرمان عندك ؟ ! ! إن بهرمان وأخاه ذبحا فى المغارة !! فقال الوزير : كنت أنا قد استبدلته بأسير آخر يشبهه فى شكله ، والذى ذبح فى المغارة أخوه وهذا الأسير ، أما بهرمان فقد حبسته عندى لأقدمه قرباناً للنيران . ولكن الأمور جرت على غير

ما قدرت وأردت ، فقال : ما جرت إلا بالخير فهات بهرمان .

أحضر الوزير بهرمان أخا جملك ، فأمر هلاوون عياراً من عياريه أن يذهب به مع سعد ويسلمه إلى جملك ، وقال هذا أمام سعد فى العلانية ولكنه وصاه سرًّا أن يقتل بهرمان وسعداً فى الطريق ويرجع إليه .

ورجع سعد ومعه بهرمان والعيار ، واستمروا سائرين حتى أدركهم الليل ، ولاح لسعد بوادر الخيانة والغدر من العيار ، فباغته بضربة من سيفه أطاحت رأسه ، ثم انفلت هو وبهرمان إلى الملك الظاهر ، وهناك قص سعد قصة هلاوون والعيار ، واعتذر إليه عمه ، فعفا عنه ، وفرح جميعهم بنجاته وعودته . وبعد أيام قضاها مع والديه وأهله استأذنهما فى العودة إلى مصر فأذنا له ورجع ومعه كثير من الهدايا . بعد زيارة كانت برًّا وخيراً وبركة .

وبعد أيام من عودته إلى مصر رأى فى المنام كأنه فى مدينة من مدن الروم قامت على شاطئ بحر خضم ، ولها ميناءان ، أحدهما عامر ، والآخر خرب موحش ، فأخذ يطوف ويجوس خلاله حتى عطش ، فدخل مكاناً لعله يجد فيه ماء يشرب منه ، فوجد بئْراً ، ولما أطل فيها رأى رجلا على سرير من رخام قد براه السقام وسمعه يقول : وما أحد من بنى إسماعيل أدركنى ، وكأنى ما حكمت فيهم أبداً . أين عيناك يا ابن الأخت يا علقم ؟ فحدق الملك الظاهر فيه النظر فإذا هو أخوه معروف بن حجر الذى كان حاكماً فى القلاع والحصون ، ثم انتبه

من نومه والألم يهز جسمه هزًّا ، وتذكر معروف بن حجر وما كان بينهما من عهد وميثاق على الصداقة والأخوة .

ولما جلس فى ديوانه التفت إلى إبراهيم بن حسن وقال : رأيت فى المنام معروف بن حجر ، وعرفت أنه حى ولكنه مسجون ، ثم قص عليه رؤياه ، فاغرورقت عينا إبراهيم وقال : لو علمت مكانه لذهبت إليه وما رجعت إلا به وإن كان فى ذلك حتفى ، وعندنا قبطان الإسلام أبو بكر البطرنى وكانوا قد استردوه ومن معه من الأسرى بعد أن خطفوا من البحر ، يعرف الثغور جميعها ومعه سجل كبير لها ، فإذا وصفت له المدينة التى رأيتها فى منامك عرفها ودلنا عليها ، فأمر الملك بإحضار أبى بكر البطرنى ، فلما حضر أمره بالجلوس وقص عليه رؤياه وقال له : ابحث فى سجلك هذا عن تلك المدينة التى رأيتها فى منامى ، فجعل أبو بكر يقرأ السجل على الملك وجلسائه والملك لا يجد لها فى السجل وجوداً ، وقرأه مرة ومرة ، ولكنه كان يتخطى مدينة القيطلان فى كل مرة ولا ينطق بها ، فقال الملك : ناولنى السجل ، فقام إليه وناوله إياه ، وجعل الملك يقرأ حتى وصل إلى مدينة القيطلان فقال : وجدتها ، هذه المدينة هى التى رأيتها فى المنام ، والتفت إلى أبى بكر وسأله إنك لم تقرأ علينا تلك المدينة فى كل مرة فما سبب ذلك ؟ فقال : إن مدينة القيطلان لا أستطيع دخولها ولا أن أذهب إليها ، لأن لى فيها خصماء ، وإن رأونى قتلونى ، وهم أولاد الزير القيطلانى ، فإنى أنا الذى قتلته ، وإن رأونى قتلونى فيه ، فقال الملك : لو أخلصت لنا ،

لنفعتك معذرتك هذه وكلفت غيرك ، ولكنك آثرت الخيانة والضلال ، ولهذا أمرتك أن تسافر إلى القيطلان وتأتيني بنبأ يقين عن معروف بن حجر ، وإن لم تأتني بخبر عنه قطعت رأسك ، فقال البطرني : سمعاً وطاعة ، والمنية إذا حان وقتها فلا مرد لها .

ركب البطرني وطائفة من المغاربة الغراب المنصور ، وأقلع بهم ، يجري في البحر حتى مروا بجزيرة العرانيص ، وكان يرابط فيها كبير القيطلان وثلة من جيشه ، فلما رأوا الغراب المنصور ركبوا فلكهم وأدركوه في البحر وأحاطوا به ، واقتتل الفريقان ، وأسر البطرني ومن معه وأخذهم كبير القيطلان وغرابهم وسافروا إلى القيطلانه ، وهناك حبس البطرني في مطمورة ، وحبس المغاربة في مطمورة أخرى .

٩

وذات يوم قدم على الملك الظاهر فى ديوانه رسول من دمشق وقال : بعثنى سيدى بكتابه هذا ، فأمر الملك بأخذه وقراءته وكان فيه : من عيسى شرف الدين والى الشام إلى ملك المسلمين ، حضر إلينا تاجر ومعه عملة غير عملة الملك ، فسألته من أين لك هذه العملة ؟ فقال : إن أحد الفداويين أرسل اثنين إلى سوق المدينة لينشرا هذه العملة ، فذهبت إليهما وقبضت على أحدهما وألقيته فى السجن ، وأما الآخر فإنه هرب ، وفى الليل تسلل رجل ودخل علىّ فى بيتى وضربنى بالسوط ضرباً مبرحاً وأخذ منى ألف دينار وقال : إن لم تطلق فى الصباح تابعى الذى سجنته جئتك فى الليلة القادمة وقتلتك ، فخفت منه وأطلقت فى الصباح تابعه ، فكتبت إليك بما جرى لتدرك الأمر قبل أن يستفحل ، والسلام .

فغضب الملك وقال للرسول : ارجع إلى سيدك وبلغه أنى قادم إليه . ثم أناب عنه فى الحكم ابنه السعيد وسافر هو وإبراهيم وسعد إلى الوالى عيسى شرف الدين .

وذلك أنه لما حكم جمال الدين شيحة الجبل ودان له رجاله بالطاعة ظهر فداوى اسمه عماد الدين علقم ، وهو ابن أخت معروف بن حجر ، وابن خالة إبراهيم بن حسن وسعد ، ولما كان فى قلعة صهيون ورأى فيها آثار

جمال الدين شيحة سأل عن خاله معروف بن حجر فقيل له : غيبه عند ربه وما ظهر حتى الآن ، وما عُرف له مكان ، فقال : ومن الحاكم فى هذه القلعة ؟ فقيل له : جمال الدين شيحة ، فقال : إنه معزول ، ومن لا يقول إنه معزول ضربت عنقه ، فقال الحاضرون جميعهم إنه معزول ، وقال عماد الدين : والملك الظاهر معزول أيضاً لأنه ولّى على القلاع مثل هذا الرجل الذى يدعى جمال الدين شيحة . ثم أحضر الصناع الذين يسكّون النقود وأعطاهم قطعاً من الذهب وأمرهم أن يسكّوا منها نقوداً باسمه ، ثم بعث بهذه النقود اثنين من التجار ليشتروا بضاعة من سوق دمشق .

وسافر الملك الظاهر ومعه إبراهيم وسعد إلى الشام ، ولما وصل إلى غابة على بن عليم جلس هو وصاحباه عندها ليستريحا ، وكان ذلك فى وقت القيلولة . وبينما هم جالسون رأى الملك فى الغابة رجلا يأتى إلى الشجرة الضخمة فيهزها بيده يميناً وشمالا ثم يرفُسُها برجله فتقع على الأرض ، فقال الملك : انظر يا إبراهيم إلى قوة هذا الرجل الذى يقلع أشجار الغابة ، فنظر إليه وقال : ذلك الرجل الذى جئنا من أجله ، ذلك هو عماد الدين علقم ، وما دام قد ظهر فإن جمال الدين شيحة لا بقاء له فى الحكم ، وليبحث له عن تجارة يلهو بها ، فإنه الأسد الفاتك ، فقال الملك : وإنك لهارب من وجهه ، إن طلع علينا من غابته ! فقال إبراهيم : لن أهرب من وجه أحد لا يدين بالطاعة لمولاى الملك .

وجاءهم عماد الدين وهم يتحدثون فسلم عليهم وسلموا عليه ، ثم قال للملك : وما الذى جاء بك إلى أرض الشام ؟ فقال : بلغنى ما فعلته ، فجئت أنا وأبناء خالتك ، لعلّى ألقاك وأمنعك بالمعروف والحسنى عن فعلتك ، فإنك عندى رجل عاقل مسالم . ويسرنى أن أكرمك وأعطف عليك، لأنى أجد فيك ريح خالك معروف بن حجر، فقال عماد الدين: إذا كان قدومك إلى أرض الشام من أجلى فإنى أرجو أن تسير معى إلى قلعة صهيون لآنس بك وأشرف بزيارتك ، فقال الملك : لك ما رجوت ، ثم التفت إلى إبراهيم وسعد قائلا : هيا بنا مع عماد الدين إلى القلعة ، والتفت إلى عماد الدين وقال : سر أنت أمامنا يا عماد الدين .

ركبوا خيلهم وانطلقوا إلى قلعة صهيون ، ولما قربوا منها أرخى عماد الدين العنان لجواده، وغمزه برجليه فى جنبيه فانفلت مسرعاً كأنه الريح ودخل باب السور وتوارى عنهم ، ونظروا إلى ظهر السور فرأوا ثلاثة رجال يصوبون إليهم ثلاثة مدافع فظنوا بهم شرًّا ، وما لبثوا أن سمع أصوات المدافع تدوى فى الفضاء .

فقال إبراهيم : سلمًا ، أهذه ضيافة ابن خالتنا ؟! فقال الملك: دعونا من هذا القول : وهيا بنا إلى دمشق ، ولا ينبغى لى أن أجىء إلى هذا الخائن إلا ومعى جندى ، لأريه عاقبة خيانته وغدره .

وأرسل الملك سعداً ليأتى بالجيش ، فجاء بالجيش وضربوا خيامهم أمام قلعة صهيون ، ورآهم عماد الدين فاستعد لقتالهم ، وسار بجواده

وعدة قتاله إلى الميدان وطلب مبارزة الأبطال من جيش الملك الظاهر ، فخرج إليه ابن خالته إبراهيم بن حسن الحورانى ، واقتتلا قتالا عنيفاً ، واستطاع إبراهيم أن يقبض عليه ، ولما هم أن يسوقه أسيراً إذا بجمال الدين شيحة يقول له دون أن يراه عماد الدين ودون أن يسمعه : أطلق سراحه يا إبراهيم ، ولا تضيع بأسرك له حرمته بين أبطاله واتركه لى ، فقال إبراهيم : الطاعة لك ، وما أنا إلا عدو لمن تعاديه ، وصديق لمن تصادقه ، فقال عماد الدين : ما دمت قد أطعتنى يا إبراهيم فهنيئاً لك السلامة ، فقال إبراهيم: ما إخالك إلا جننت يا عماد الدين ، إنى ما أطعتك أنت ، ولكنى أطعت من يسلخ جلدك ، فقال : ومن هو يا إبراهيم ؟ فقال : جمال الدين شيحة ، فقد دخل الآن قلعتك ، وسيقطع الليلة رأسك ، فانطلق عمادالدين بجواده ودخل القلعة ليقبض على جمال الدين شيحة ويقتله.

كان لعماد الدين مقدم اسمه نصار ، فقال له : اجمع يا نصار كل رجل قصير فى القلعة ، وأحضرهم بين يدى ، فأحضر القصار جميعهم وكانوا أربعين رجلا ، فلما مثلوا بين يديه أمر أن تضرب أعناقهم ، فصاحوا قائلين : وماذا فعلنا حتى تأمر بقتلنا ؟ فقال : ما أردت إلا قتل جمال الدين شيحة ، وهو قصير مثلكم : فإن أنا قتلتكم فقد قتلته فيكم وذلك ما أردت ، فقال نصار : لا تظلم هؤلاء الأبرياء ، فإن شيحة ليس فيهم ، وإذا رأيته داخلا عليك أخبرتك فى الحال وأمسكته ، فقال عمادالدين : ما دمت قد عاهدتنى على أن تقبض على شيحة فأطلق سراح هؤلاء .

أخذ عماد الدين نصاراً إلى حجرته وجلسا ، ثم حضر الطعام فأكلا ، وأخذا يتحدثان ، فقال عماد الدين : لست الآن فى غيظ من جمال الدين شيحة ولا من الملك الظاهر ، ولكن الغيظ من ابن خالتى إبراهيم يكاد يحرقنى ، فقد بارزنى وثبت أمامى وظهر على حتى أسرنى ، وما أطلقنى من يده إلا جمال الدين شيحة ، وتلك نكبة كبرى لا طاقة لى بحملها ، ولولا أنك كاتم لسرى ما أطلعتك على ما فى نفسى ، فقال نصار : إذا كنت فى غيظ من إبراهيم فإنى أقبض عليه وأحضره مكتفاً بين يديك ، فقال عماد الدين : إن فعلت هذا يا نصار فقد أوليتنى جميلا لا أنساه ما دمت حيًّا ، فقال نصار : طب نفساً ، وإنى ذاهب لتنفيذ ما وعدتك به ، ثم خرج من عنده وذهب إلى معسكر الملك الظاهر ، ورآه إبراهيم وهو قادم إليهم فقال : قف مكانك يا نصار وإلا قتلتك ، فقال : على رسلك يا إبراهيم ، فعرف إبراهيم أنه جمال الدين ، وهو متنكر فى هيئة نصار مقدم عماد الدين ، ومشى إليه وصحبه إلى الملك الظاهر وعرفه به ، وأخذوا يتحدثون ، فقال جمال الدين شيحة : أريد أن آخذ إبراهيم لأصيد به عماد الدين ، فقال إبراهيم : ومن قال إنى مصيدة ؟ ! أتريد أن تأخذنى وتدخل بى على عدوى ، إن عماد الدين لو قدر على وهو يبارزنى لشرب من دمى ، فكيف أسلم نفسى إليك وإليه ؟ فقال : لا ينبغى أن تخاف وأنت معى ، فقال : إنك لا تملك إلا المكر والاحتيال ، وإن وقعت فى يد عماد الدين فلا ينفعنى احتيالك ،

فقال جمال الدين : لا أحملك على شيء تكرهه، ثم سلك بالحديث سبلا أخرى ، وفى أثناء الحديث أخرج من جيبه ثلاث قطع جافة من الحلوى ، ووزعها عليهم ثلاثتهم وأخذوا يأكلونها، وكان البنج فى قطعة إبراهيم ، فلما أكل منها سقط مغشياً عليه ، فكتفه جمال الدين وحمله ، ثم سار إلى القلعة ودخل على عماد الدين ووضعه بين يديه. فابتهج وقال : ما أعظم وفاءك يا نصار! وما أقدرك على تنفيذ ما عزمت ! ثم سقاه نصار شراباً . فأفاق من غشيته وهو يوحد الله ويصلى على نبيه ، ووجد نفسه أمام عماد الدين ، فنظر إلى نصار نظرة طويلة غاضبة تكاد تنم عن غيظ يضطرم فى نفسه ، وفهم نصار منها أنه يقول : إن همّ عماد الدين أن يؤذيني كشفت حيلتك ، وعرفته أنك جمال الدين ، وكنت فى مأمن من شره ، لأنه ابن خالتى ، وبينى وبينه وشيجة رحم تشفع لى، فقال نصار وكأنه يؤنبه ، لا تخف يا سبع الرجال ، وقال عماد الدين : ما أسعد هذه الليلة ! فهذا عدوى مكتف بين يدى ، ثم التفت إلى إبراهيم وقال : وقعت يا ابن حوران ، فلم يجبه ، وقال نصار : دعه فى نكبته ، وإذا استقر الحكم فى يدك طردناه طرد الكلاب ، وملأ كأساً من الشراب وقال : خذ واشرب واهنأ هذه الليلة ، فأخذ عماد الدين الكأس وشرب منها فغشى عليه ، ثم أطلق إبراهيم وقال له احمل عماد الدين وسر معى إلى الملك الظاهر ، فحمله إبراهيم وسارا حتى وضعاه أمامه ، ثم وضع شيئاً أمام فمه ، فلما شمه وسرى فى دمه أفاق من غشيته ، فنطق بالشهادتين وقال : أين

أنا الآن ؟ فقال جمال الدين: أنت معى، فقال إبراهيم : الزم الأدب يا عماد الدين فإنك أمام الملك الظاهر وجمال الدين شيحة ، وكلمة واحدة تخرج من فم أحدهما ، تجعلني أقدك بسيفي نصفين ، فقال عماد الدين : ولم فعلت بى هذا يا نصار ؟! فقال جمال الدين : ما أنا بنصار ، فافتح عينيك واعرف من أنا ، أنا الذى تخشى الملوك والأبطال حيلتى وبأسى ، أنا جمال الدين شيحة ، فقال عماد الدين : أنت شيحة الذى ملأت سمع الدنيا بالحديث عنك ؟! فقال نعم ، فقال : لولا حيلتك وتنكرك فى هيئة نصار مقدمى ما استطعت أن تقبض علىّ ، وقد أخذت حذرى منك، فإن كنت محتالا ماهراً فأخل سبيلى الآن واقبض علىّ مرة ثانية إن استطعت ، فقال شيحة : إنى أستطيع القبض عليك هذه الليلة سبع مرات ، فقال عماد الدين : إن فعلت هذا يا شيحة أطعتك وكنت من رجالك وأتباعك، وقال شيحة : وأنا إن لم أستطعه عزلت نفسى وتركت لك القلاع والحصون ، ثم أطلقه فمضى إلى قلعته والعجب مما فعله شيحة وما أنذره به يملأ نفسه .

وصل عماد الدين إلى باب السور المرتفع المحيط بالقلعة فطرقه ، فقال البواب : من الطارق فى هذا الوقت من الليل ؟ فقال : أنا عماد الدين ، ففتح الباب وقال له : جاءنى الآن جمال الدين شيحة فطرق الباب وقال : أنا جمال الدين وأريد أن أدخل القلعة ، لأعمل حيلة فى عماد الدين ، ولكى أمكنك من القبض عليه فتحت له الباب ودخل ، فقال عماد الدين :

وأين ذهب ؟ فقال : مرق إلى جهة البستان ، فقال : إلى الداهية التى تأخذه ، وإنى لقاعد هنا حتى يطلع النهار ، ثم جلس .

أخرج البواب من جراب معه دجاجتين مشويتين ورغيفين ووضعهما أمامه ، فقال عماد الدين له : ما هذا ؟ فقال : هذا طعام العشاء ؛ فقال : هات لى منه دجاجة ورغيفاً ، فإنى لم أذق الطعام الليلة ، فنهض البواب ووضعهما بين يديه ، فأخذ يأكل من الدجاجة ، وبعد ثلاث لقمات انقلب على ظهره مغشياً عليه، فكتفه البواب وانطلق به ، ووضعه بين يدى الملك الظاهر، ثم أعطاه شيئاً أزال غشيته، فانتبه وألفى نفسه فى مجلس الملك الظاهر ، فقال : أأنت شيحة وقد تنكرت فى زى البواب وشكله ؟ فقال : نعم، فقال : هذه واحدة، وأين البواب ؟ فقال : إنه نائم خلف باب القلعة . وقد أطلقتك فامض إلى قلعتك لأقبض عليك مرة أخرى ، فنهض قائماً ومشى إلى قلعته فوجد الباب مفتوحاً والبواب غارق فى نومه من خلفه ، فأيقظه من نومه وحكى له ما فعله شيحة ، فقال : إن جاءنى مرة ثانية أمسكته وأحضرته بين يديك، فقال : وإنى لجالس معك لمعونتك، وكان البرد شديداً فأحضر البواب مدفأة وأوقدها وجلس أمامها يصطلى ، فتقدم إليها عماد الدين قائلا : النار فاكهة الشتاء ، وتصاعد من النار دخان ، فلما ملأ أنف عماد الدين غشى عليه وغرق فى نوم ثقيل ، فكتفه البواب وحمله إلى الملك الظاهر ، وهناك أيقظه وقال : وهذه الثانية، ثم أطلقه ، فرجع عماد الدين وهو فى دهشة ، فوجد الباب مفتوحاً فدخله

ومضى إلى بيته ، وهناك أمر جاريته أن تحضر الإبريق ليتوضأ ، فلما أحضرته قالت له : لقد سمعت هذا الإبريق يتكلم الليلة فخفت منه ، فقال : وماذا يقول ؟ فقالت : سمعته يقول : حافظى علىّ يا جارية فإنى سيد القلاع ، فأخذ منها الإبريق وقال : انتهى عمرك يا شيحة ، ثم ضرب الأرض بالإبريق فانكسر وهبت منه رائحة ذكية ، فلما شمها عماد الدين وقع مغشياً عليه ، فكتفته الجارية وحملته إلى الملك الظاهر ، وهناك أيقظه ، فلما صحا وجد نفسه أمام الملك الظاهر وجاريته ، فقال : وهذه الثالثة يا شيحة ، ثم انصرف راجعاً ، وأبى أن يدخل من باب القلعة فذهب إلى الجهة الخلفية ، وأنشب حبلا كان معه بأعلى السور ثم تسلقه حتى كان فوقه ، ثم هبط منه إلى داخلها ، ورآه رئيس الحرس هابطاً . فأسرع إليه ، ولما عرفه سأله : لِم لمْ تدخل من باب القلعة ؟ فقال : هربت من جمال الدين شيحة الذى كلما دخلت من الباب لقينى متنكراً وأخذنى إلى الملك الظاهر بعد أن يغرقنى فى نوم ثقيل بالبنج الذى معه ، فقال : امكث معى هذه الليلة ، وفى ضوء النهار نمسكه ، فجلس عماد الدين وجلس بجواره رئيس الحرس الذى تناوم بعد قليل وزفر زفرة طويلة انبعثت منها رائحة ، فلما شمها عماد الدين أغمى عليه فكتفه رئيس الحرس وحمله وسار حتى وضعه أمام الملك الظاهر وجلسائه ، فلما صحا وجد نفسه بينهم وفيهم رئيس حرسه ، فالتفت عماد الدين إليه وقال وهذه الرابعة يا جمال الدين شيحة .

رجع عماد الدين يتعثر فى أذيال الحيرة ، وعزم ألا يدخل القلعة ، ولبث يمشى حتى مر ببستان ، ووجد البستانى الذى فيه يحرث الأرض على ضوء مصباح تلعب به الريح ، فقال له : ولم تعجلت الحرث ليلا وأمامك النهار وضوءه ؟ فقال : إن أمهلت حرث الأرض فسد البذر فيها ولم ينبت ، فسأله : هل مر بك الآن أحد ؟ فقال : الطريق عامر آمن ، والناس فيه رائحون وغادون ، ولكنهم يقلون ليلا ، وقد سمعت رجلا يسير وحده ويقول : أنا شيحة وأنت عماد الدين ، وهو يرددها فى لهجة غضب وحماسة ، وأخذ سمته إلى تلك الناحية ، فانفلت عماد الدين يجرى على أثره ، ولكنه لم يبعد قليلا حتى سمع البستانى يصيح مستغيثاً ، فرجع إليه عماد الدين فوجد الدم يسيل من رأسه وهو يبكى ، فسأله : من فعل بك هذا ؟ فقال : الرجل الذى كان يردد ذلك القول : أنا شيحة وأنت عماد الدين . فأقبل إليه عماد الدين وجعل يضمد جرحه ، فشم رائحة تنبعث من رأسه ، وسقط على الأرض مغشيًّا عليه ، فكتفه البستانى وحمله إلى الملك الظاهر ، ولما أفاق ورأى البستانى هز رأسه وقال : وهذه الخامسة يا شيحة ، فأطلقه وانصرف راجعاً .

دخل عماد الدين على أمه فى بيته وقد ملأ صدره الغيظ فقال لها : ولدت وما أنجبتِ قبح بطن قذف مثلى ، فقالت : هل جننت يا عماد الدين ؟ ما هذا القول الذى تقذف به أمك ؟ فقال : إن شيحة قبض على الليلة خمس مرات وهو يطلقنى مستهزئاً بى فى كل مرة . فقالت : إن شيحة

أطاعته الرجال ، وإن أنت خاصمته أتعبك ، وأود أن أجمعكما وأصلح بينكما ، وتطيعه كما أطاعه غيرك حتّى تأمن بوائقه ، فقال : النجم أقرب إليك مما تودين ، ناوليني هذه القلة لأشرب وأنام ، فناولته القلة وشرب منها قليلا فأغمى عليه ، وكتفته أمه وحملته إلى الملك الظاهر ، فلما أفاق وجد أمه احمر وجهه خجلا وقال : وهذه السادسة يا جمال الدين شيحة ثم أعتقه فأخذ سمته إلى بيته ، فوجد زوجته تنتظره ، ووجد أنه فى حاجة إلى أن يدخل الحمام ليستحم فذهب إليه وكانت الجارية خداع المكلفة بخدمته فى الحمام ترقب مجيء سيدها إلى الحمام ، فلما جاءه حضرت واستعدت لتصب عليه الماء ، وما كاد الماء يغمر رأسه ووجهه حتّى خر مغشيًّا عليه ، فألبسته الجارية ثيابه ونقلته إلى الملك الظاهر ، ولما صحا من نومه . وجد نفسه بين يدى الملك الظاهر وجاريته خداع فقال : وهذه السابعة يا جمال الدين شيحة ، فقال جمال الدين : الآن حصحص الحق ووجبت عليك طاعتى ، فقال عماد الدين لن يكون ذلك إلا بعد أن أغالبك فى أمر سيظهره الغيب فإن غلبتنى كنت لك ، وإن غلبتك كنت لى ، فقال جمال الدين : رضيت يا عماد الدين . وقال الملك الظاهر وأرى أن تهادنا وتتعاهدا على المسالمة وتصبرا حتّى نرجع إلى مصر ، وهناك تكون المغالبة ، فرضيا وتعاهدا على السلام وألا يغدر أحدهما بصاحبه .

وقال عماد الدين : والآن أنتم ضيوفى فهيا بنا إلى قلعتى لتأكلوا ضيافتى ، فقال الملك الظاهر : لقد أكلناها مدافع من قبل ، فقال :

معذرة يا سيدى ، فما كان ذلك إلا من الحارس، وقد عاقبته وقتلته ، فسار الملك وصحبه من الكبراء والأمراء إلى القلعة ، وفيها أكلوا ضيافة كريمة ، ثم تحدثوا قليلا وناموا .

ولما صاح ديك الفجر يحمد الله ويسبحه ، نهض عماد الدين من نومه واقفاً وهو يقول فى صوت جهورى اهتزت له أركان الحجرة : جئتك يا خالى معروف . . . فانتبه النوام وصحوا ، وسأل الملك عماد الدين : ماذا جرى يا عماد الدين ؟ فقال : رأيت خالى فى المنام سجيناً فى بئر مظلم فى مدينة كبيرة ذات ميناءين أحدهما عامر والآخر خرب ، وهو يقول فى صوت حزين خافت : لقد استوى عندى الليل والنهار ، وصرت لا أرى شمساً ولا قمراً ، أين أنت يا ابن الأخت ؟ ! أين أنت يا فارس الملتقى ؟ ! فانتبهت من نومى صائحاً بما سمعتم ، فقال الملك : لقد رأيت فى منامى بمصر مثل الذى رأيته الليلة فى منامك ، وأرسلت أبا بكر البطرنى إلى تلك المدينة ليأتينى بخبر معروف خالك ، وأرى أن نسير إلى مصر لنرسل من يكشف لنا خبر البطرنى ، وعسى الله أن يأتى بالفرج.

١٠

وجلس الملك وصحبه يتحدثون وأثار عماد الدين مسألة القلاع ولمن تكون ، أهى له أم لجمال الدين شيحة ؟ فقال : أرى ألا تؤخذ هذه القلاع إلا بحق ، وذلك أن تتسابقا فى أمر تدخلان فيه ، فمن ظهر على أخيه وغلبه كانت له ، فقال : وما ذلك الأمر ؟ قال : سيقيضه الله لكما عن قريب ، وقبل أن ينفض المجلس دخل عليهم رجلان وقال أحدهما : مررنا بمدينة القيطلان فرأينا الغراب المنصور محطماً فى مينائها الحرب ، وعلمنا أن أبا بكر البطرنى ورجاله ألقى بهم حاكمها فى سجنها فجئناك وأخبرناك ، فأمر الملك أن يعطى كل منهما ألف دينار وأن ينصرفا إلى وجهتهما ، فنفذ رجاله أمره ، وانصرف الرجلان مشكورين .

وقال جمال الدين شيحة ذلك أمر قيضه الله لك يا عماد الدين ، فإن أنت ذهبت إلى القيطلان وخلصت أبا بكر البطرنى ورجاله والغراب المنصور كنت أهلا لولاية القلاع وحكمها دون أن ينازعك منازع ، فقال عماد الدين : ضاعت القلاع من يديك يا جمال الدين ، وإنى لذاهب إلى القيطلان ولن أعود إلا بالغراب المنصور وأبى بكر البطرنى ورجاله ، وإن أنا خلصت خالى معروفاً كانت له وضاعت من يدى ويدك ، فقال جمال الدين : إذا كان ذلك بالحرب والسيف فإن الملك

الظاهر أقوى ، وسيفه أمضى ، ولكنى أريد أن تفعل ما قلت من غير أن تشهر سيفاً أو ترفع رمحاً ، فإن فعلت ما قلت دون حرب ولا قتال صرت أجدر بالولاية ، وإن لم تستطع ذلك استطعته أنا وفعلته بإذن ربى وعونه ، فقم وسافر ، وسأكون على أثرك بعد ثلاثة أيام من سفرك . فقال عماد الدين : سأسافر على ألا تمكر بى وتلقى العقبات فى سبيلى ، فقال جمال الدين : وحق من رفع السماء بغير عمد لن أغدر بك ، وإن أنت وقعت فى ورطة ولم تستطع أن تخلص منها فنادنى أكن عندك وأخلصك مما وقعت فيه ، فقال عماد الدين : عجباً لك ! تقول قول القادر الواثق ! إذا احتجت إليك فالأمر كما يشاء ربى ، ثم ودعهم عماد الدين ورحل إلى القيطلان .

أما جمال الدين فإنه أشار على الملك أن يرجع إلى مصر لأن غيبته طالت ولا ينبغى أن تطول أكثر من ذلك . فقال : ذلك حق ، ولا بد من العودة ، وبعد ثلاثة أيام من سفر عماد الدين رحل الملك إلى مصر ورحل جمال الدين إلى القيطلان .

أخذ عماد الدين يقطع بجواده الفيافى حتى كان عند أنطاكية وكان قد جاع فمر بحقل فيه بطيخ لامرأة عجوز من أنطاكية ، فجلس عندها ، ودفع الجوع جواده فقضم بطيخة من الحقل وجعل يأكل منها فتسللت إليه حتى جاءته ، وبقرت بطنه ، وأحس أن الجواد قد سقط على الأرض فالتفت إليه فوجده مبقور البطن ، فجاءها وقال لها : أتبقرين الجواد

من أجل بطيخة أكلها ليدفع بها ألم الجوع ؟ ! فقالت : وأذبحك أنت أيضاً إن فعلت فعلته ، فسل سيفه وضربها به ضربة أسقطتها على الأرض نصفين ، فهاج عمال الحقل وقبضوا عليه وذهبوا به إلى « الفرتماكوس » حاكم أنطاكية وأخبروه بما فعله ، فحكم عليه بالإعدام ، وقال وزيره : وأرى أن تحفر له حفرة فى الخلاء على قد نصفه ، ثم يوضع فيها ويهال التراب عليه إلى أن تمسكه الأرض ولا يستطيع أن يتحرك ، ثم يرمى بالنبال حتى يموت ، وأمر الملك بتنفيذ ذلك ، فأخذه رجال الملك وساروا به إلى الخلاء وأيقن عماد الدين أنه ميت لا محالة ، فنادى فى نفسه : ياجمال الدين شيحة أدركنى ، وفى الحال سقط فى حجر « الفرتماكوس » ورقة ، فأخذها وقرأ ما فيها .

أنا جمال الدين شيحة ، وقد أمرتك أن تعطى عماد الدين الذى أمرت بقتله جواداً وألف دينار وتخلى سبيله ، وإن لم تفعل قتلتك ونجيته رغم أنفك وأنف رجالك . فلما قرأ الورقة قال : ولمَ لم تخبرنى أنك من أتباع جمال الدين شيحة ؟ قد أمرت لك بجواد وألف دينار ، وأن يخلى سبيلك لتذهب حيث تشاء .

أخذ عماد الدين الجواد والدنانير وسلك سبيله حتى اعترضه نهر فوقف حائراً لا يدرى كيف يعبره وينتقل بجواده إلى شاطئه الآخر . وبينما هو فى حيرته رأى مركباً يجرى فى النهر وفيه شيخ وغلام ، فناداهما وأقبلا إليه ، فقال : أريد أن تنقلانى إلى البر الثانى فى مركبكم هذا ولكم أجركم ، فقال

الشيخ : أجرنا مائة دينار ، وسنحمل الجواد وحده إلى الشاطئ الثانى ، ثم نرجع إليك ونحملك إليه، فقال : رضيت .

نقل الشيخ الجواد إلى شاطئ النهر الآخر وتركه فى قبضة الغلام الذى معه ، ثم رجع إلى عماد الدين ونقله إلى الشاطئ الثانى أيضاً ، ومشى إلى جواده وقبل أن يصل إليه وجد الغلام قد امتطاه وطار به ، ثم قفز به فى النهر وعاد إلى الشاطئ الأول وانطلق به فى الفضاء انطلاق الريح ، وغاب عن العين ، فقال للشيخ : إن الغلام رجع بالجواد وانفلت به فى البيداء ، فقال : ما هذا يا عماد الدين ؟ أدركتك فى أنطاكية ، وأدركتك عند النهر، وأرجعت جوادك إلى قلعة صهيون ، لأنه إن كان معك فى القيطلان أتعبك وشغلك ، وأنا صاحبك الذى تعرفه ، فقال : صدقت يا شيحة ، ثم تركه ومضى يمشى على رجليه ، حتى أنهكه المشى وآلمه الجوع ، وكان قد أقبل الليل فقعد منهوك القوى خائر العزم ونادى: أدركنى يا جمال الدين ، فإنى فى حاجة إلى الزاد والمأوى هذه الليلة ، فرأى فى الحال صومعة على رأس جبل ، فصعد فيه حتى كان عندها ، فوجد راهباً جالساً ، وقدامه نار موقدة ، وبجانبه غزالة ، وقربة مملوءة بالماء ، فقال الراهب ، تقدم أيها القادم واذبح هذه الغزالة واشوها على النار لتأكلها ، وإن كنت عطشان فهذه القربة مملوءة بالماء ، فتقدم عماد الدين إلى القربة وشرب حتى ارتوى ، ثم أقبل على الغزالة فذبحها وسلخها وجعل يشوى من لحمها ويأكل حتى شبع ، ثم بات مع الراهب فى صومعته ،

ولما استيقظ فى الصباح لم يجد الراهب معه ، وبحث عنه هنا وهنا فلم يجده ، فقال فى نفسه : إنه شيحة وقد اختفى .

سار عماد الدين حتى دخل القيطلان ونزل فى خان بها ، ثم ذهب إلى سوق المدينة ليشترى له طعاماً ، فتفقد نقوده فى جيبه فلم يجدها فاحتار واضطرب ، وإذا برجل معمر أعرج قد جاوز الثمانين قد أقبل وهو يبكى فجاءه الناس وقالوا : ما يبكيك يا أبانا « بولص» ؟ فقال: لعن أبوكم ومن ولده ، أيموت أبوكم فى الدير جوعاً لأنه لايجد شيئاً يأكله ، فأحضر أحدهم له قصعة كبيرة مملوءة طعاماً وقال : أهذه تكفى يا أبانا ؟ فقال : تكفى ، والتفت إلى عماد الدين وقال : احمل هذه القصعة إلى الدير يا هذا ولك نصيب منها ، فحملها عماد الدين فوق رأسه وقال : سر قدامى إلى الدير ، فسار « بولص » وسار عماد الدين وراءه ، وبينما هما سائران مد عماد الدين يده إلى القصعة ليأخذ منها لقمة يأكلها ، فالتفت « بولص» إليه وقال : لا تأكل يا هذا حتى تذهب إلى الدير ، فقبض يده وخجل . ولما دخلا الدير وضع القصعة بين يدى « بولص » فقال له : خذها أنت وكل ، لأننى شبعان ، وما فعلت هذا إلا من أجلك . لأنى وجدتك تقاسى آلام الجوع ، فقال عماد الدين : كأنك تعلم ما فى نفسى ، ثم وضعها أمامه وأكل ما فيها جميعه ، وقال : الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى ، فقال « بولص » أرجع القصعة إلى أصحابها ، فحملها ورجع بها إلى السوق ، فلما رآه الناس التفوا حوله وسألوه : أين البطريق؟ فقال: « تركته فى الدير » ،

فقالوا : ولأى شىء لم يجئ معك ، إنك قتلته ، فقال : ولأى ذنب أقتله ؟ فقالوا : سر بنا إليه لنطمئن عليه ، فرجع معهم إلى الدير فوجد « بولص» جسداً لا روح فيه ، فماج الناس وهاجوا وقبضوا على عماد الدين ، وجاءهم البطريق الأكبر ، وعرف منهم أنه قتل « بولص » ، فقال : اربطوا هذا القاتل الأثيم فى عمود السم ، فربطوه فى الحال ، وكان هذا العمود من رخام مسحور ، إذا ربط به إنسان سرى منه السم فى جسده ومات ، وخاف عماد الدين أن يموت مسموماً فنادى : أدركنى يا شيحة ، فدخلت عليه عجوز تتوكأ على عصاها وقالت : أنت الذى قتلت «بولص» ؟ فقال : لا تكثر يا شيحة من الكلام وأدركنى وسجل هذا معروفاً لك عندى ، فقال شيحة : ألم أفعل معك معروفاً قبل هذا ؟ فقال : إذا كان لك معروف غير هذا فإنى لا أعرفه ، فأسرع ونجنى ، فقال شيحة : كم من معروف زرعنا فهبت عليه رياح الجحود ، وكذلك المبتلى حين يبرأ ينسى جميل المداوى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مركأن لم يدعنا إلى ضرمسه » . ثم تقدم وفك رباطه ، وغاب واختفى عن عينه ، فخرج عماد الدين إلى المدينة وهو يقول : آه يا قصير ! ! إنك تفعل ما يعجز إبليس اللعين .

أما جمال الدين شيحة فإنه دخل مدينة القيطلان فوجد أحد جنودها قد كتف شخصاً ، وجعل يطوف به فى شوارع المدينة ويقول : هذا جزاؤه ، وأقل من جزائه ، فقد أكل أموال الملوك وادعى الإفلاس ،

فسأل الناس عن هذا الرجل وذنبه فقيل له : إنه خمار بالمدينة ، والمتعهد بتوريد الخمر إلى ملك القيطلان وأمرائها ، وعليه لهم ثلاثة آلاف دينار ، وليس فى « خمارته » شىء يفى بمعشار هذا الدين ، وأعلن إفلاسه ، فأمروا بقتله ، واختيار خمار غيره ، فتقدم شيحة إلى ذلك الجندى وقال : هذا ابن عمى ، وقد جئت لأعطى الملك والأمراء أموالهم ليعتقوه ويطلقوا سراحه . فرجع الجندى بالخمار وابن عمه « دمليكو » — وهو شيحة — إلى الملك والأمراء وحكى لهم ما قاله « دمليكو » ، فقالوا له : وما أردنا إلا أن ترد إلينا أموالنا ، فأخرج دملكيو من جيبه عقداً وناولهم إياه وقال : هذا عقد قيمته عشرة آلاف ، لكم منها ثلاثة آلاف ، ولأجرة الخمارة سبعة آلاف ؛ لكل سنة تمضى ألف دينار ، وسأقوم بتوريد الخمر لكم بدلا من ابن عمى ، ولن آخذ منكم ثمن الخمر إلا فى نهاية كل سنة تمضى . فقال الملك للجندى : اذهب معهما وأعط « دمليكو » الخمارة وما فيها ، وأعطه ابن عمه يفعل به ما يشاء ، فنفذ الجندى ما أمر به .

ولما خلا الخمار بشيحة قال له : كيف كنت ابن عمى ؟ ولأى شىء نجيتنى ؟ وما حكايتك يا أخى ؟ فقال دمليكو : إنى من مدينة البرتقال ، وكنت خمار ملكها « منولى » فسئمت المقام فيها وغادرتها مهاجراً ، ومررت فى طريقى بالقيطلان . فوجدتك تزف للقتل ، فكبر فى نفسى أن يقتل خمار على دينى وملتى ومن أبناء حرفتى ، وأنا قادر على نجاته . ففعلت

ما عرفت ،وأنا فى عجب أن يكون خمار الملوك مديناً بثلاثة آلاف دينار ، فقال : لا تعجب يا أخى فإن عندى أموالا كثيرة . وقد فعلت ذلك لآكلها. وتعال معى لأريك أموالى ، ثم نهضا إلى ناحية فى الخمارة ، وكشف الخمار عن مطمورة فيها أربعة صناديق مملوءة بالمال . فقال دمليكو : الآن ذهب عجبى وانشرح صدرى . وهذا المال مالك والخمارة خمارتك وقد وهبت لك ما دفعته عنك ، واجعلنى معك أخاً تابعاً ، فقال الخمار : على الرحب والسعة .

ونهض جمال الدين وأحضر كوبين من ماء وخمر ، أما الماء فشربه وأما الخمر فشربه الخمار وكان قد مزجه بالبنج . فما كاد يستقر فى بطنه حتى غاب وعيه ، وغرق فى نومه . فكتفه شيحة ثم أيقظه ، فوجد أنه قد كتف ، وأن دمليكو ظهر أمامه فى شكل مسلم يؤمن بالله ورسوله . فقال له : وماذا حملك على هذا ؟ فقال : لأدعوك إلى الإسلام فإن أسلمت سلمت وأمنت ، وإلا هلكت وقتلتك . فقال : لن أسلم أبداً فافعل ما شئت ، فقطع شيحة عنقه وألقاه فى اليم . ثم أصلح الخمارة وزينها وملأها بالخمر ، وجعل يرسل إلى ملوك القيطلان وأمرائها مايحتاجون إليه من الخمر كل يوم . وكانوا فى سرور عظيم من حسن معاملته وبضاعته .

وذات يوم مرعماد الدين بالخمارة فأعجبه منظرها وزينتها وما فيها من طعام وشراب ، فدخلها ليأكل ، واستقبله دمليكو فى حفاوة عظيمة ، وأحضر له من الطعام ما لذ وطاب ، ثم قال : أظنك خائفاً من شرب

الخمر ، فإذا أردت أن أحضر لك شراب القرفة أو شراب الليمون ، فقال ذلك الشراب الذى أحبه ، فأحضر له من الشراب ما يشتهيه وجلس إليه يحدثه حتى جاء الليل ، ثم قال له : أظنك غريباً عن هذه البلاد ؟ فقال: نعم ، فقال دمليكو : وما الذى حملك على الغربة وهى خطر ومشقة ، فقال عماد الدين : إن لى قصة عجيبة ، وحكى له قصته من أولها إلى آخرها ، فقال دمليكو : يأتينى كل ليلة أربعون أسيراً يحملون الخمر إلى قصر الملك فإن أردت أن تدخل قصره ، حملتك وعاء من الخمر وسرت معهم ، فإذا كنت فى القصر فعلت ما تريده ، فقال : هذا جميل ، ولك منى الشكر الجزيل .

حضر الأسرى وحملهم دمليكو أوعيتهم ، وحمل عماد الدين وعاءه معهم ، ورجعوا إلى قصر ملك القيطلان ، فأخذ الخدم أوعية الخمر منهم ، ثم ساقهم الجند إلى سجنهم وعماد الدين معهم كأنه أحدهم ، فوجد نفسه فى سجن مظلم يموج بالأسرى يبلغ عددهم خمسمائة أسير ، فابتأس وقال : يا سلطان القلاع يا شيحة ، فانفتح فى الحال باب السجن ، فمرق منه عماد الدين خفية وتسلل حتى خرج من القصر وخاض ظلام الليل خائفاً يترقب ، فلقيته جارية تسب الزمان وتقول : لعن الله زماناً حكم على بخدمة هذين الأسيرين ، فقال لها : ومن هذان الأسيران يا جارية ؟ فقالت : أسير قديم ، وأسير جديد ، ومن أنت حتى تسألنى عنهما ؟ فقال : أنا رسول الراهب ، أرسلنى طائفاً لأكشف عن

المظلوم ظلامته ، وقد سمعتك شاكية من قسوة الزمان فسألتك، فقالت : عفواً يا رسول الراهب ، أما الأسير الجديد فاسمه أبو بكر البطرنى، وقد عزم ملك القيطلان أن يذبحه فى عيد « الشعانين » هو ومن جاءوا معه فى الغراب المنصور من أسرى المسلمين ، فقال لها : سيرى معى إلى هذا الأسير الجديد . فسارت معه وأدخلته عليه فى سجنه ، فوجده قد حبس فى الأغلال والقيود وابتدره قائلا : أبشر بالسلامة يا أبا بكر ، فقال : ومن أنت أيها القادم ؟ فقال : عماد الدين علقم ، وقد جئت لأخلصك ، ويكون لى ملك القلاع والحصون ، وحكى له ما اتفق عليه هو وشيحة ، فقال أبو بكر : إن كان خلاصى على يديك سبباً فى ضياع القلاع من شيحة فإنى لا أريد الخلاص ، واسمع نصحى ، أسرع الآن بالخروج وإلا قبض عليك وحبست فى الأغلال مثلى ، فقال : لا خلصت ولا نجوت ، وخرج مسرعاً إلى الجارية فمضيا إلى الطريق ، ثم سألها : ومن الأسير القديم ؟ فقالت : اسمه معروف بن حجر وهو فى سجن الحسرات يقاسى مرارة الظلم والوحدة ، فقال : سأبلغ الراهب هذا كله ، وودعها إلى سبيلها ، فمضت ومشى خلفها وهى لا تشعر به حتى أتت إلى مكان فكشفت الغطاء عن حفرة ثم هوت فيها وغابت قليلا ثم خرجت وأعادت الغطاء ومضت إلى شأنها .

فجاء عماد الدين وكشف الغطاء فوجد سلماً نازلا فى الحفرة فنزل فيه حتى انتهى ووقف حائراً فى الظلام لا يدرى أين يسير فسمع صوتاً

يقول : الحمد لله الذى هدانى للإسلام ووقانى ظلمة الكفر ، لقد رمتنى يد الأقدار فى هذا السجن المظلم أقاسى الشدائد ، بعد أن كنت ملكاً أخوض فى النعيم ، وهكذا الدهر لا أمان له . أين أنت يا ابن الأخت يا عماد الدين ؟

فصاح عماد الدين فرحاً وقال : جئتك يا خالى . ومشى على هدى من صوته حتّى كان بجواره . فقال : يا خالى . إن الظلام حالك ، فقال له : أخرج سيفى من غمده يضىء لك ، وهو معلق على الحائط قريباً منى. فأخرجه من غمده فأضاء ومحا هذا الظلام الحالك . وقال عماد الدين : هيا بنا لنهرب من هذا السجن وبابه مفتوح . فقال خاله : هل قتلت الجارية ؟ فقال : لا . وقدكانت السبب فى أن عرفت مكانك ، فقال : إنى نذرت لله ألا أخرج من هذا السجن إلا بعد قتلها ، وما أتم كلامه حتّى أغلق باب السجن . فقال عماد الدين : إن الباب قد أقفل ولا مخلص لنا . فقال خاله : ألم تفتح مدينة القيطلان قبل أن تأتينى ، فقال : لا . فقال معروف : وكيف جئت ؟ فحكى له قصته وما كان بينه وبين شيحة حتّى كان عنده ، وقال : وبلغ من فضول شيحة أن قال لى : إذا وقعت فى ورطة وعجزت عن الخلاص منها فنادنى ، وسأحضر إليك فى الحال وأخلصك منها . فقال معروف : الآن حصحص الحق ، ولا منجاة لنا إلا على يديه فناده يا عماد الدين وإلا لبثت معى فى هذا السجن حتّى يوافينا الأجل ، وإن خلصنا شيحة فسأكون أطوع له

من ساعده ، فنادى عماد الدين قائلا : يا سلطان القلاع ، يا جمال الدين شيحة . وما إن انتهى من ندائه حتى فتح باب السجن ووجدا رأس الجارية ملقى أمامهما ، فقال عماد الدين : فتح باب السجن وماتت الجارية فهيا بنا لنخرج ، فقال معروف : وقد نذرت لله ألا أخرج إلا إذا غاصت قدماى فى دماء الكفار ، وما انتهى من قوله هذا حتى سمع قائلا يقول : يا عماد الدين ؛ سل سيفك وقابل الكفار واقطع رءوسهم ، وأحس بعد هذا القول جماعة مقبلين ، فاستعد للقائهم ، وجعل يقطع رءوسهم حتى أفناهم وسالت دماؤهم .

ونهض خاله معروف فغاص بقدميه فى دمائهم وخرجا من السجن ومضيا حتى كانا عند قصر ملك القيطلان ، فسأل معروف عماد الدين قائلا : أين نحن الآن ؟ فقال : عند قصر ملك القيطلان ، فقال : ارجع بنا إلى السجن فإنى نذرت لله ألا أخرج إلا إذا أحرق هذا القصر ، وما انتهى من قوله حتى رأيا النار قد شبت فيه وملأ الصياح أرجاءه ونواحيه . فقال معروف : الآن سر بنا إلى حيث تريد ، وبينما هما سائران عثر بهما رئيس العسس ومعه طائفة من الجنود ، فمالوا عليهما ، ووضع عماد الدين خاله معروفاً على مصطبة لأنه خرج من السجن هزيلا ضعيف السمع والبصر ، وتصدى هو لهؤلاء الكفار وقاتلهم بسيفه وأفنى كثيراً منهم وفرت من وجهه بقيتهم ، ثم رجع إلى خاله فى المكان الذى وضعه فيه فلم يجده ، فأظلمت نفسه غماً وحزناً ومشى حتى دخل الخمارة

كئيباً حزيناً ، فسأله دمليكو عما أحزنه فحكى له قصته ، فقال : وهل خالك عجوز ضعيف لا يكاد يحمل بعضه بعضاً ؟ فقال : نعم ، فقال : جاءنى جماعة برجل عجوز ضعيف وقالوا إنا وجدناه فى الطريق فخذه عندك حتّى تعود إليه قوته أو يموت ، فقم إليه وانظره فربما كان خالك ، فذهب إليه فوجده خاله ، ولقى معروفاً وأبا بكر البطرنى جالساً بجانبه ، فعجب أن رأى البطرنى بجواره فقال له : ومن أتى بك إلى هذه الخمارة ، فقال : شبت النار فى القصر ففتحوا الأبواب وأمرونا بالهرب من النيران فخرجت أمشى حتى عثرت بهذه الخمارة فدخلتها ووجدت هذا العجوز الضعيف مستلقياً على ظهره كما ترى ، فقال عماد الدين : ذلك الذى وجدته معروف خالى ، والحمد لله على نجاته وخلاصه ، ونريد به الرحيل من هذه البلاد ، فقال البطرنى : إن خالك مريض ضعيف ولا قدرة له على السفر ، فقال : عزمت على أن أحمله وأقطع به الطريق مرحلة بعد مرحلة ، حتّى ندخل قلاعنا ، ثم مضى إلى خاله وصاح فى أذنه قائلا : لقد خلصنا من السجن ، ونحن الآن فى خمارة دمليكو صاحب هذه الخمارة ، فقال معروف : إنى أود أن تسأل صاحب هذه الخمارة عن طبيب يرد إلى عيونى نورها ، فإنى لا أستطيع الحياة فاقد النظر ، فذهب عماد الدين وأخبره فقال : ادخل وسأبعث إليكم طبيباً ، فرجع عماد الدين إلى البطرنى ومعروف خاله ، وبعد قليل جاءهم الطبيب وكان أعور ، فعرفهم بنفسه ، فقال عماد الدين : إذا كنت طبيباً فإن عينيك أولى

بالعلاج من عيون غيرك ، فلم يلتفت إليه ، وقال البطرني : لا تعترض يا عماد الدين ، واترك الأمر إلى من يقول للشيء كن فيكون ، وفحص الطبيب عيني معروف ثم قال : كم من الأجر تعطيني لشفاء عينيك ؟ فقال معروف : إذا شفيتني أعطيتك ثلث القلاع والحصون ، فقال الطبيب : أنا لا أعرف قلاعاً ولا حصوناً . ولكني أريد مالا ، فقال عماد الدين : ارض بهذه الأجرة ، وسأشتريها منك بما يرضيك من المال ، فرضي الطبيب فقال عماد الدين : واكتب حجة بينك وبينه ، وسأشهد عليها أنا والبطرني فقال : افعل ما شئت ، وكتب عماد الدين الحجة وختمها معروف بخاتمه وشهد عليها البطرني وعماد الدين ، ثم أخذها الطبيب ، ودأب على علاج عينيه ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع رفع العصابة عنهما ، فوجد معروف أن بصره قد ارتد قويًّا كما كان . واستبشر وقال لابن أخته ما أمهر هذا الطبيب وما أقدره ! ! ليتك سألته عن علاج الآذان ، فقد ثقل سمعي حتى كاد أن يصم ، فقال عماد الدين إني ذاهب إلى صاحبي دمليكو لأسأله ، وليختار لنا الطبيب الماهر ، ثم ذهب إليه وأخبره ، فقال ادخل وسأرسل إليكم الطبيب ، وجاءهم الطبيب وشفى أذني معروف وكانت أجرته ثلث القلاع والحصون وكتبت بها حجة ليشتريها عماد الدين على نحو ما حصل مع طبيب العيون . وقال معروف : أريد طبيباً يداوي وهني وضعفي ويرد إلى قوتي ، فأحضر إليهم دمليكو الطبيب وشفاه وكانت الأجرة الثلث

الأخير من القلاع والحصون وكتبت به حجة على النحو السابق ، وبعد أن أتم علاجه أحس معروف أنه أشد قوة وأقوى عافية مما كان ، ففرح وقال لابن أخته : أين شيحة الذى حدثتنى عنه لأصارعه وأرى قوتى من قوته ؟ فقال عماد الدين : الحمد لله الذى عافاك ، وإذا وقع شيحة فى أيدينا قصمنا ظهره وفرينا عظمه ، وكان دمليكو حاضراً فقال : ماذا تأكلون ؟ لحم خنزير أو لحم غنم ؟ فقال معروف : لحم غنم ، فأحضر لهم دمليكو لحماً مشوياً شهياً ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم سقطوا على الأرض مغشياً عليهم ، فأوثق دمليكو كتافهم ثم أيقظهم وأذهب عنهم غشيتهم ، فقال معروف لدمليكو : لم فعلت بنا ما فعلت ، بعد معروفك الذى لا ننساه ، فقال : فعلت ذلك حين علمت أنكم مسلمون ، ولا ينبغى لى أن أخون ملك القيطلان ، ولا بد من إخباره عنكم ، ثم تركهم دمليكو وهم فى حيرتهم يعمهون .

وبعد ساعة دخل عليهم ملك القيطلان فقالوا : آمنا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحدق فيهم النظر ثم التفت إلى البطرنى وقال : أبعد أن أقبض عليك تطمع فى الهرب إلى بلاد المسلمين ؟ فقال : نعم ، وعلى الرغم منك ، والتفت إلى معروف وقال : أبعد سبع عشرة سنة فى السجن تفلت من يدى وتعود سالماً إلى أهلك وقومك ؟ فقال معروف : وسيكون ذلك بإذن الله تعالى رغم أنفك ، ثم قال الملك : ولكن المسئول عن ذلك هذا الذى جاء ليخلصكم ، ولكنى سأقتله شر قتلة ، فقال عماد الدين :

كذبت وخسئت ، ولولا أنى أخشى الملامة لناديت جمال الدين شيحة ، ليقتلك ويخرب ديارك ، فقال ملك القيطلان : خرس لسانك ، وإن جاءنى قتلته على مشهد منكم ، فقال عماد الدين يا ملك القلاع والحصون ، يا من أدين لك بالطاعة والولاء ، يا جمال الدين شيحة ، فضحك الملك ورفع اللثام عن وجهه ، وبدا لهم جمال الدين فى صورته ، فدهش جميعهم ، وقال عماد الدين : اجلس يا قصير ، وماذا فعلت بصاحب الحمارة دمليكو ؟ فقال شيحة : يا عماد الدين ، أنا دمليكو ، وأنا الطبيب الأول والثانى والثالث ، وأنا رئيس العسس الذى حاربك ، وأنا الذى أحرق قصر الملك ، وأنا الذى أطلقت سراح البطرنى ، وأنا الذى قتلت الجارية وفتحت باب السجن ، وأنا الذى جئت بمعروف إلى هذه الحمارة ، وأنا الذى فعلت كل هذا ، فهل تعرفون هذا الفضل الجميل ؟ فقال معروف : أنا أول من يعترف بفضلك ويكون أطوع لك من بنانك ويجرد سيفه فى وجه من يعاديك ويناوئك ، وإن عصاك ابن أختى عماد الدين هذا قتلته ، وهنيئاً لك القلاع والحصون والولاية عليها ، وقال البطرنى : وأنا له مثل ظله ومن أتباعه وخدمه ، أعادى من يعاديه وأصادق من يصادقه ، وقال عماد الدين : إنى لا أطلب القلاع والحصون ولا ملكها والولاية عليها ، ولكنى لا أطيع هذا القصير ، فقال شيحة : دع ابن أختك الآن فى غيه ، وأطيعونى جميعكم الآن فيما آمركم به ، لأقبض على حكام القيطلان الثلاثة : كنوبر وكنيار وعبد الصليب ، وأجعلكم أنتم

حكاماً فى القيطلان ونأخذ أموالها وذخائرها والغراب المنصور والأسرى من المسلمين ونرجع إلى بلادنا ظافرين،من غير أن نجرد سيفاً أو نسفك دماً ، فقال معروف : افعل ما شئت فلن يعصيك منا أحد .

تقدم جمال الدين وفك قيودهم وأغلالهم ، وأجلسهم فى مكان منعزل فى الخمارة ، ثم خرج منها وأغلقها عليهم ، وذهب إلى حكام المدينة الثلاثة فى مجلسهم فقال له كنيار : ما حاجتك يا دمليكو ؟ فقال : رأيت التفتيش فى المدينة قائماً على أشده ، فسألت عن سببه فقيل : إن أمراء المسلمين الأسرى قد سرقوا ، وهذا التفتيش للعثور عليهم وعلى من سرقهم ، فجئت أدعوكم إلى خمارتى لتدخلوها وتفتشوها أنتم أنفسكم ، فقال كنيار : إن خمارتك لن تفتش ، لأنها خمارتنا وأنت عزيز علينا ، فقال : لا بد من ذلك ليطمئن الزبائن والناس ويأمنوا على أنفسهم إذا دخلوها ، وإذا أوى إليها سارق قبضت عليه وأحضرته إليكم ، فقال كيار : لا بأس من ذلك ، وسندخلها ضيوفاً يكرمون فيها ويأكلون ويشربون . وقام الحكام جميعهم ومضوا فى صحبته إلى الخمارة ، وهناك منعوا الوزراء والجنود والناس من دخولها ، ودخلوها هم وحدهم ، فأغلقها دمليكو عليهم وجلس معهم ينادمهم ، وبعد برهة جاءهم غلام جميل أمرد يحمل خمراً ممزوجة بالبنج وكؤوسها فسقاهم منها حتى غشى عليهم ، وغطوا فى إغماءة ثقيلة ، وكان هذا الغلام محمداً السابق بن جمال الدين شيحة . ثم وضع كلا منهم فى برميل وأغلقه .

ونهض جمال الدين ونزع عنهم ثيابهم وألبسهم غيرها ، ثم أمر معروفاً وعماد الدين والبطرنى أن ينزعوا ملابسهم ويلبسوا ملابس هؤلاء الحكام الثلاثة ، وجعلهم فى صورهم وأشكالهم، وكان كنيار أعور ، ففقأ جمال الدين عين البطرنى وجعله أعور مثله ، فقال : أضعت عينى يا شيحة ، فقال : سأردها إليك بعد الفراغ من حيلتى. ثم قال لهم : ستخرجون من الخمارة كأنكم حكام المدينة، فاذهبوا من فوركم إلى ديوان الحكم ، فإذا جلستم فاطلبونى إليكم ، وحينئذ أدبر لكم الأمر لنهب الأموال ونجاة الأسرى والغراب المنصور والرحيل من هذه البلاد فقالوا : سمعاً وطاعة .

ركبوا جياد الحكام ومضوا إلى الديوان ، فلما جلسوا أمروا الجنود أن يأتوهم بالخمار دمليكو، فأسرعوا إليه فى خمارته وقالوا : إن ملوك المدينة وحكامها يدعونك إليهم ، فقال : لقد كانوا عندى الآن فلأى شىء يدعوننى ؟ فقالوا : نحن لا نعرف شيئاً ، ولا بد من أخذك إليهم طوعاً أو كرهاً، فأغلق الخمارة وسار معهم حتى دخل على الملوك ووقف بين أيديهم . فقال له كنيار : يا دمليكو، قد دعوناك لنكلفك بإحضار من سرق البطرنى ومعروف بن حجر ، فقال إن أطعمتونى أحضرت لكم السارق ، ولكم أن تقتلونى إن أخلفت وعدى وكذبت فى قولى ، فقال : نحن فى طاعتك ولن نعصيك ، فقال :

أولا : يصلح الغراب المنصور وينقل من الميناء الحرب إلى الميناء

العامر المستعمل ويقفل بالسلاسل من جهة البحر .

ثانياً : ينقل الأسرى جميعهم من المسلمين إلى الغراب المنصور .

ثالثاً : تنقلون أموالكم وذخائركم وتضعونها فى الغراب المنصور .

رابعاً : تشرفون على هذه الأعمال فى الميناء .

فأمروا بتنفيذ ما قاله دمليكو ونفذ فى الحال ، ثم قالوا للخمار دمليكو : هات لنا خمراً لنشرب فى الميناء ، فقال : سآتيكم بعدة براميل لتشربوا منها كلما شئتم ، ورجع إلى الحمارة ونقل عدة براميل منها البراميل التى حبس فيها ملوك القيطلان ووضعها جميعها فى الغراب المنصور .

وحين جاءت البراميل وأرادوا وضعها فى الغراب المنصور اعترض مدير الميناء ، وأصر أن يفتحها ليعرف ما فيها ، فاغتاظ دمليكو وخاف أن تظهر حيلته ويبطل تدبيره ، وحاول صرفه عن عزمه فما استطاع ، فنادى ابنه محمداً السابق وقال : يا سابق ، فأجابه المدير نفسه وقال : لبيك يا أبى ، أنا محمد السابق ابنك ، فزال خوفه .

وقال دمليكو للملوك : أرى أن تنيبوا عنكم فى الحكم الوزير بولص ، ثم تسافروا بالغراب المنصور لتطهروا الأموال فى ماء المعمودية ، ولتزوروا الكنيسة الزكية ، ثم تعودوا .

أقلع الغراب المنصور يحمل ملوك القيطلان أسرى فى البراميل والبطارقة والأموال الكثيرة واستقبله البحر استقبال الأم فسكنت رياحه وهدأت أمواجه ، واستمر يجرى على صدره حتى رسا على جزيرة العرانيص فى

اليوم الرابع من مسيره . وأمر البطرنى بالنزول فيها .

ولما اطمأنوا قال معروف : يا شيحة لقد ضقنا ذرعاً بملابس أهل الكفر ، فسمح لهم باستبدال ملابسهم .

ثم ركبوا فى الغراب المنصور وأقلع بهم يجرى إلى الإسكندرية ، ونظر شيحة إلى البر وهم سائرون فى البحر ، فرأى شخصاً على جبل يلوح بمنديل فى يده ، وسمعه يقولى : ميناء ! . . . يا قبطان . . . فغاب قليلا ثم رجع ، فسأله معروف : من هذا الذى كان يلوح بمنديله فى الهواء ؟ فقال : ابنى محمد السابق ، فقال : وماذا قال لك ؟ فقال : عرفت أن غلاماً اسمه عرقوص بن مغلوين قادم فى أربعين من أبناء الملوك ومعهم جنودهم إلى مصر للقتال والحرب ، فأمرته أن يمضى إلى الملك الظاهر ويخبره ليستعد لقتالهم قبل أن يبغتوه . فقال معروف : إن هذا الغلام ابنى ، وهو السبب فى خروجى من القلاع وحبسى فى القيطلان سبعة عشر عاماً ، ولا بد من نزولى هنا لأفتش عنه وألاقيه ، فأمر شيحة البطرنى أن يتجه بالغراب إلى البر ويرسيه.

وكتب كتاباً إلى الملك الطاهر وقال لأبى بكر البطرنى : خذ هذا الكتاب والملوك الثلاثة إلى الملك ، ومعك عماد الدين يساعدك ، فقال عماد الدين : لست بذاهب إلى الملك ، ولكنى سأمضى إلى القلاع لأخبر من فيها بظهور خالى معروف.

فقال شيحة لأبى بكر : وعليك أنت أن تسلم الملك من معك والكتاب

فقال : سمعاً وطاعة ، ثم أقلع الغراب إلى الإسكندرية .

نزل معروف من الغراب المنصور ونزل معه شيحة ليرعاه ويغيثه عند الضيق ، وجدّ معروف فى المسير ماشياً حتّى تعب فجلس يستريح ، وجعل يفكر : كيف يقطع هذه الفيافى الشاسعة ، ولم يطل تفكيره هذا حتّى جاءه شيحة بجواد قوى ، وقال : اركب هذا وسر إلى وادى الزهور فإن ابنك لا يزال فيه .

كان جوان قد أتى بعرقوص إلى مغلوين وقال له : إن المسيح أخبرنى أن هذا ابنك من جارية خطفها التجار وما زالت تنتقل من بلد إلى بلد بالبيع والشراء حتّى ولدته فى بيعة ، ورباه كبير ملوك القيطلان ، وقد أمرنى المسيح أن آتى به إليك ، فصدعت بأمره ، وجئتك به . وكان عرقوص جميلا شجاعاً ، ظهر على أقرانه حتّى جعله أبوه رئيساً لأبناء الملوك .

وأراد عرقوص أن يتزوج من أخته شموس بنت مغلوين ، وكان أبوها يربيها لنفسه ، وعز عليه أن يمنعها من ابنه خشية أن يغضب ويثور وتكون العاقبة وخيمة ، فحكى لجوان وأطلعه على ما فى نفسه فقال له : سأدبر لك الأمر ، ثم قال لعرقوص : إن أباك رضى أن يزوجك ابنته « شموس » على أن يكون صداقها رأس الظاهر بيبرس ملك المسلمين ، فقال : رضيت ، ثم أخذ جيشاً جهزه له أبوه مغلوين وأخذ معه أبناء الملوك وجيوشهم ، وسار حتّى نزل بوادى الزهور ، وعرف ذلك جمال الدين شيحة ، فأخبر معروفاً وأعطاه جواداً يمتطيه إلى ذلك الوادى .



اللبؤة تهرب من عرقوص

كان عرقوص قد صاد لبؤة وحبسها فى قفص عنده ، وذات يوم جمع القواد وقال لهم : أحيطوا بهذه الساحة ، وسأطلق فيها اللبؤة ، فمن هربت من عنده قتلته .

ركب القواد جيادهم وأحاطوا بالساحة على شكل دائرة ، ثم أطلق اللبؤة ، وحاولت أن تهرب من أية ناحية فلم تستطع ، وبعد أن أتعبت القواد استطاعت أن تهرب من تحت بطن الجواد الذى يركبه عرقوص ، وانطلقت تجرى فى الخلاء ، فجرى عرقوص بجواده وراءها ولم يدركها ، ودخلت أجمة كثيفة ، فنزل عن جواده ودخل خلفها ، واتفق أن قدم أبوه معروف فى ذلك الوقت ورآه قد دخل الأجمة فدخلها من ورائه .

زأرت اللبؤة فاجتمع حولها أسود من الأجمة ، وجرد عرقوص سيفه ليطرد الأسود أو يقتلها ويصيد اللبؤة ، فسمع صوتاً من خلفه يقول : لا تخف يا بنى ، والتفت وراءه فوجده قد جرد سيفه وهوى به على الأسود ، هذا يقسمه نصفين ، وهذا يطيح رأسه ، وهذا يبقر بطنه ، وساعده عرقوص حتى قتلوا الأسود واللبؤة فى أثناء المعركة .

ولما انتهت أقبل عرقوص على أبيه معروف وقال له : من أنت يا هذا ؟ فقال : أنا أبوك معروف بن حجر ، وأنت ابنى حقاً ، وقد كنت فى سجن كنيار ملك القيطلان ، وخلصنى منه عمك جمال الدين شيحة ، وكان معه ابن عمتك عماد الدين علفم ، وقد علمت أنك فى هذا المكان فجئت إليك لأجمع شملى بك ويفرح بك أبوك ، وأمك مريم الزنارية

بنت حنا صاحب مدينة جنوة ، وأحب أن تصحبنى إلى القلاع والحصون لتعيش فى كنف أبيك ، وبين أهلك وعشيرتك ، فقال عرقوص أنا ابن مغلوين ، وقد كنت عند كنيار ملك القيطلان ، وما سمعت قولك هذا إلا منك ، وسأعرض هذا الأمر على جوان عالم ملة الروم ، وأرى ما سيقول .

اجتمع عرقوص وأبوه معروف وعالم الملة جوان والبرتقش تابعه ، فلما رأى البرتقش معروف بن حجر قال لسيده جوان بالرومية : ردت البضاعة إلى أهلها واجتمع عرقوص بأبيه معروف ، فقم واهرب قبل أن يحل بك العطب . فقال جوان : وهل تصدق أنى أهرب وأترك معروفاً يأخذ ابنه ؟ ذلك ما لا يكون .

واستقبل جوان عرقوص وسأله : أين اللبؤة يا عرقوص ؟ فقال : قتلت مع الأسود ، وقد كنت على خطر عظيم ، وكادت الأسود أن تفترسنى ، لولا أن هذا الفارس جاء لنجدتى ، فقال : إن أبناء الملوك سيعيرونك لأنك لم تستطع إرجاع اللبؤة ، وأرى أن تدخل هذا الرجل فى القفص ، وإن سألك أبناء الملوك عن اللبؤة فقل لهم : قتلتها كما قتلت غيرها من الأسود ، وقد جئتكم برجل من البرية بدلاً منها ، فقال : هذا حسن ، وكان ذلك الحديث بالرومية ، والتفت عرقوص إلى معروف وقال : إن كنت أبى حقًّا فادخل هذا القفص ، فقال : وهل تكون قد صدقتنى إن أنا دخلته ؟ فقال : نعم ، فدخله معروف وهو يذكر الله ويسبحه ، لينجيه منه كما نجى يونس من

حوته الذى التقمه، فنهض جوان إلى القفص وأغلق بابه بيده وقال: وقعت فى يدى فدفنتك وأدخلتك قبرك، فقال: أيها اللعين، ما دام ابنى معى فلا يهمنى أن كنت سجيناً أو طليقاً ، وما دمنا مؤمنين بالله مخلصين له الدين فإنه ولينا ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

كانت الشمس حينئذ قد جنحت للغروب ، فقدم رسول يحمل كتاباً من مغلوين إلى عرقوص ، ولما أخذه وفضه وجده يقول :

من مغلوين إلى ابنه العزيز عرقوص ، لقد كان سفرك لقتال ملك مصر من تدبير عالم الملة جوان ، وما كان لى فيه رغبة ، وقد طال مقامك فى وادى الزهور ، فإذا قرأت كتابى هذا فاركب راجعاً إلينا لتنوب عنى فى الحكم ، فقد عزمت أن أقوم أنا بقتال المسلمين وملكهم الظاهر ، وإن كان لك رأى آخر فاكتب لى به وابعثه مع رسولى هذا .

التبس على عرقوص أمره ، فألقى كتابه هذا فى يد جوان ليقرأه ، ولما فرغ من قراءته قال : أرأيت كيف أنك ابن مغلوين ، وأن هذا الرجل الذى فى القفص كذاب أشر ؟! وقال الرسول : اكتب إلى أبيك بما ترى لأرجع إليه ، فقال : أنظرنى الليلة حتى أفكر فى الأمر ، فقال : وأين أبيت وأنام ؟ فقال : نم فوق هذا القفص الذى فيه معروف ، فوثب فوقه وسوى مضجعه ونام .

كان هذا الرسول جمال الدين شيحة ، فلما سكن الليل فتح القفص وأطلق معروفاً وحذره أن يدخل القفص مرة ثانية ، أو يجيب

ابنه إذا ناداه ، ثم كتب ورقة وألقاها على صدر عرقوص ومضى .

استيقظ عرقوص فى الصباح فلم يجد معروفاً ولا رسول أبيه ، ووجد ورقة على صدره فقرأ فيها :

حبست أباك معروفاً فى القفص ، مخدوعاً بكلام جوان ، وقد أطلقته الليلة ، وأريد منك أن تضرب جوان ألف سوط ، وإن لم تفعل ضربتك أنت ألف سوط .

إمضاء : شيحة

وكان معروف قد انتحى ناحية خفية ليرقب ما يكون من ابنه عند الصباح .

أحضر عرقوص جوان وقال له : لقد أطلق شيحة معروفاً ، وأبطل مكرك ومحالك ، فخذ هذه الورقة واقرأ ما فيها ، فلما قرأها قال : وهل عزمت أن تضربنى ؟ فقال : نعم ، وماذا يكون ؟ فقال : إن ضربتنى غضبت عليك ، فقال : وماذا يقع إن غضبت ؟ فقال : أبصق بصقة تجعل الأرض بحراً والناس فيها سمكاً ، وأنت واقف على ربوة تنبح نباح الكلاب ، فقال : ابصق بصقتك هذه لأرى ما يكون ، فقال : لا أرضى بذلك إشفاقاً على أهل الملة ، فقال : الحق أنك عاجز وكذاب فهات لى أبى ، فقال : إذا ناديته جاءك، فجعل ينادى فلم يجبه أحد فأمسكه وضربه وأنذره الانتقام المرير .

أما البطرنى فقد وصل إلى الإسكندرية ثم نقل ما فى الغراب المنصور

إلى مراكب جرت فى النيل حتى رست عند بلاق ، وأمر رجاله بالمحافظة على الملوك الأسرى والأموال ، وذهب هو إلى الملك الظاهر وناوله كتاب شيحة وأخبره بما كان ، فابتهج لظهور معروف وعتب عليه أن تركه ، فقال : أصر هو على النزول من الغراب المنصور ليلقى ابنه عرقوص ويأتى به ، فقال الملك : وأين نزل ؟ فقال : قبال جبل الرمان ، ومن خلفه وادى الزهور ، فقال إبراهيم : أنا أعرف مكان عرقوص ، فقال الملك : وجب علينا الآن أن نذهب إلى معروف حيث كان ، وأمر عثمان أن يعدّ الجواد ، وأمر إبراهيم وسعداً أن يسافرا معه .

أخذ الملك وأصحابه يقطعون صعب الأرض وسهلها حتى أشرفوا على وادى الزهور ، فرأوا معروفاً جالساً فى ظل شجرة فأقبلوا عليه وسمعوه يقول فى ألم وحزن :

وأمر ما ألقاه من ألم الجوى ... قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

فتبادلا السلام والتحية وعرف بعضهم بعضاً ، ثم سأله الملك عن جلوسه وحده فى هذا العراء فقال : أنتظر الفرج من ربى وأن ييسر لى الحصول على عرقوص ابنى ، فقال السلطان : إن ابنك كافر وعمله غير صالح ، وقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام : يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فقال : دقق فى الآية تجد أن نوحاً لم ينس أنه ابنه ، فقال : إن ابنى من أهلى ، وما رأيت يا مولاى أجمل ولا أفصح

ولا أزكى من ابنى هذا ، فقال السلطان : سر بنا إليه لنختبره فى الحكم والمعرفة والفهم .

دخل جميعهم على عرقوص فى مجلسه فقال الملك الظاهر : جئتك مظلوماً ، فقال عرقوص : وما ظلامتك ؟ فقال : اشتريت من هذا الرجل — وأشار إلى معروف — فرساً على أنها حامل ونقدته ثمنها ، ولكنى وجدتها حائلا ، ورددتها إليه فلم يقبل ، فقال عرقوص لمعروف : ولِمَ لم تقبلها ؟ فقال : بعتها بغير خيار ، فقال السلطان : ولكنى اشتريتها بشرط الحمل ولم أجدها حاملا ، فقال عرقوص : أعندك شاهدان على ما تقول ؟ فقال : هذان شاهداى — وأشار إلى إبراهيم وسعد ، ففرق عرقوص بين الشاهدين ، وأبعدهما عن مجلس حكمه ، ثم سأل السلطان : بكم اشتريت الفرس ؟ فقال : بمائة دينار ، فقال : وما لونها ؟ فقال : شهباء ، فقال : أفيها عيوب ؟ فقال : لا ، ولكنها هزيلة ، فأحضر سعداً وسأله : كم ثمن الفرس ؟ فقال : عشرة دنانير ، فقال : وما لونها ؟ فقال : شقراء ، فقال : أفيها عيوب ؟ فقال : عرجاء عوراء لا تصلح للحرب . فأحضر إبراهيم وسأله : كم ثمن الفرس ؟ فقال : ألف دينار ، فقال : وما لونها ؟ فقال : دهماء كأنها ظلام الليل ، فقال : أفيها عيوب ؟ قال : كحلاء جميلة تفوق الوصف ، وتكر على صفوف الأعداء صفاً بعد صف ، فنظر إلى الملك ، وقال : ظلامة باطلة ، ولولا أنى أعرف مكانتكم لأدبتكم ، فأنت ملك المسلمين الذى وصفه لى عالم الملة جوان ،

وهذا إبراهيم وهذا سعد ، وإنى أعرفهما من قبل ، وهذا معروف ابن حجر ، وله عدة أيام فى هذا الوادى ، وليس معه فرس ولا خيل ، فقال معروف : مرحى مرحى يا بنى ، فقد نظرت فصدقت ، وحكمت فعدلت ، وعليك أن تحيي ملك الإسلام وأصحابه وتكرمهم ، فنهض قائماً وحياهم وقبل يد الملك الظاهر ، وأجلسهم فى خيمته وأمر بالطعام فأحضره الخدم ووضعوه بينهم ، وقبل أن يمدوا إليه أيديهم دخل عثمان مسرعاً وقال للملك : يا أشقر ، ألهاك الطعام عن عثمان فنسيته ، وتركته يموت جوعاً ، ولكن إن كنت نسيتنى فما نسيتك ، لا تأكلوا من هذا الطعام ، فإن فيه السم الزعاف ، فاندهش عرقوص وقال : وكيف ذلك يا عثمان ؟ فقال : لا تجادل فيما ليس لك به علم ، واستمع لنصحى ، فأخرج الملك خنجره وقطع به قطعة صغيرة من اللحم ورماها أمام كلب كان بجوارهم ، فلما أكلها مات لساعته ، فقال الملك : أهذا قراك يا عرقوص ؟ فأقسم أنه لا علم له بهذا السم ، وقال : لقد كنت أسبقكم فى الأكل منه ، ولولا عثمان أدركنى لأسرع إلى الموت ، وكنت كهذا الكلب جثة هامدة ، ثم أحضر الطباخين وسألهم عن هذا السم الذى فى الطعام فقالوا : ما وضعنا فيه سمّاً ، ولا عرفنا ذلك ، ولكن عالم الملة جوان دخل المطبخ وجعل يبارك الطعام ويتلو عليه آيات البركة ، فقال عرقوص : ومن أمركم أن تدخلوه المطبخ ؟ ثم قام وضربهم ، ولولا أن الملك شفع فيهم لقتلهم .

ثم أمر أن يأتى إليه جوان فبحثوا عنه فلم يجدوه ، فقال إبراهيم : أتستطيع يا سعد أن تدركه وتحضره قبل أن يهرب ؟ فقال : أرجو أن يوفقنى الله ، ثم أسرع إلى ربوة عالية فرأى جوان ، وتابعه البرتقش سائرين إلى الدير ، فأسرع إليهما وأمسكهما وأحضرهما بين يدى عرقوص. فقال له : كيف أبحت لنفسك أن تقتل الضيوف وتقتلنى ، فقال : ما أردت إلا قتل المسلمين ، فأمر أن يضرب ألف سوط ، وأن يضرب تابعه البرتقش ألف سوط ، فقال إبراهيم : ولن يضربهما أحد غيرى ، ثم نهض وضرب جوان حتى أنهكه ، وأقبل على البرتقش ليضربه فناوله عقداً من الجوهر وقال : اعتقنى يا إبراهيم فإنه لا ذنب لى . فقال إبراهيم لعرقوص : إن هذا تابع لا ذنب له ، فقال : ذلك الحق ، ثم طردهما ، فخرجا ومضيا إلى الدير ، ثم أحضر طعاماً آخر فأكلوا هنيئاً .

وتعب الملك فى إقناع عرقوص أن يترك دينه ويدخل فى دين الإسلام ويسافر إلى مصر مع أبيه ، ولما ضاع تعبه سدى قال له : إن لم تستجب لقولى ونصحى فسيكون السيف بينى وبينك ، فقال : ذلك ما أردت ، وذلك ما إليه خرجت ، فقال الملك : والملتقى عند حلب ، وإن لم تجىء للقائى عندها جئتك وقاتلتك ، فقال : لك ذلك ، ثم استأذن الملك ، ورحل هو ومن معه ومعروف بن حجر .

عبأ عرقوص جيوشه ورحل بهم حتى أشرف على حلب فعسكر أمامها وكان معه جوان والبرتقش ، ورأى عماد الدين أبو الخيش حاكم

المدينة هذه الجيوش التى ملأت الفضاء فأغلق أبواب المدينة وحصن أسوارها بالجنود والمدافع وأرسل إليه عرقوص كتاباً قال فيه :

ما جئت إلا لقتال الملك الظاهر ، فإن غلبته فأنت حاكم حلب ، وإن غلبنى كنت مثلك خير مطيع له ، ولهذا أرى أن تفتح أبواب المدينة ليشترى منها الجنود حاجاتهم ، على أن نحافظ على المدينة ، ولا نؤذى أهلها ، وهذا عهد بينى وبينك ، أرعاه بنفسى ، وأحميه بسيفى ، ففتح الحاكم المدينة ، ونشطت المعاملة بين الجنود وأهلها فى أمن وسلامة .

وبعث الحاكم إلى الملك الظاهر كتاباً قال فيه :

بغتنا عرقوص بن مغلوين بجيوش لا حصر لعددها فأدركنا قبل أن توقد نيران الحرب بيننا وبينه ، وقد نزل بجيوشه أمام المدينة ومعه أربعون من أبناء الملوك ، وعالم الملة جوان وخادمه البرتقش .

فلما قرئ الكتاب فى مجلسه قال لمعروف : هذا وقت العمل والجد ، ولا مجال للتهاون والتراخى ، فإما سافرت معنا ، وإما لبثت هنا مستريحاً حتى أرجع إليك بابنك أسيراً ، فقال : لن أقعد عن الجهاد وإن قاتلت ابنى ، فقال : على بركة الله .

خلف الظاهر ابنه السعيد ووصاه بالعدل والتقوى ، ورحل بجيشه حتى نزل على ميمنة جيش عرقوص أمام حلب ، ولما استقر فى منزله هذا بعث إبراهيم إلى عرقوص بكتاب قال فيه :

السلام على من اتبع الهدى ، من الملك الظاهر إلى عرقوص . اعلم يا بنى أن العاقل من اعتبر بغيره ، ولعلك عرفت ما فعلناه بملوك الروم والإفرنج حتى أرغمتهم على دفع الجزية إلينا كل عام . وأنت ابن معروف ابن حجر الذى عرف ربه وآمن به وجاهد فى سبيله ، فاترك ما أنت فيه من رجس الكفر وظلمته ، واسلم لتصون دمك ويكون لك عزة المؤمن وحرمته ، واحضر إلينا ومعك اللعين جوان ، وأما جندك فمن أسلم منهم سالمناه ، ومن أبى وكفر قتلناه ، والسيف أصدق أنباء من الكتب .

ولما قرأ الكتاب دفعه إلى جوان فقرأه وقال : ذلك ملك لا ينفع فيه إلا السيف ، فأوقدها حرباً تأكله وتأكل من معه ، فكتب إليه بالقتال والحرب ودفع الكتاب إلى إبراهيم وشيعه .

بدأت الحرب وكانت مبارزة بين الفرسان ودامت ثلاثة أيام قتل فيها أبطال الإسلام جميع من تصدى لمبارزتهم من جيش الكفر والضلال ، فقال جوان لعرقوص : إن دام القتال على هذه الحال خسرت أبطالك وأفنيت جندك وكنت لقمة سائغة للمسلمين ، وأرى أن يحمل الجيش عليهم حملة واحدة ، فقال عرقوص : ذلك لا يكون حتى أبارز أنا أبطالهم ، وسأخرج إليهم غداً .

برز عرقوص إلى الميدان وكان بطلا شجاعاً لا يغلب ، فجرح كل من بارزه من أبطال المسلمين ، وكان كلما جرح فارساً قال له : ارجع وعالج نفسك ، ثم تعال وبارزنى ، وتصدى له أيدمر وسعد وإبراهيم وغيرهم

فجرحهم جميعهم ، وجاء جمال الدين شيحة إلى الملك الظاهر فى مجلسه وقال لمعروف : لم لم تخرج يا معروف إلى مبارزة ابنك ؟ ألست من المجاهدين ؟ فقال : بلى ، فقال : اخرج إليه غداً ، وإن جاءت الظهيرة ولم تأتنى به أسيراً قتلته أنا وحرمتك منه ، وأرحت الناس من قتاله ، فقال : وما حيلتى فيه إن ظهر علىّ وغلبنى ؟ فقال : لا يكون إلا ما سمعته منى . فقال : أرجو من الله التوفيق والمعونة .

جمع الوالد وابنه ساحة القتال : هل يغمد الولد سيفه فى قلب يفيض من أجله حناناً ورحمة ؟ أو يغمد الوالد سيفه فى جسم خلق من دمه وقلبه ؟

ولما التقيا جمد الجوادان وكأنهما قد شدا بالأرض ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة شاخصة تشع دهشة وحيرة ، وتذكر معروف قول شيحة : فانطلقت منه صرخة مدوية ، انفلت على أثرها جواده إلى ابنه ، فمد يده ونزعه من سرجه ، وأسرع إليه سعد فقاد جواده ، وانفلت جميعهم إلى جيش المسلمين ، ووضع معروف ابنه بين يدى الملك الظاهر ، فغشيت عرقوص سنة من النوم ، فغمضت عيناه ، وأطرق ، فقال إبراهيم : إن أسلم ابنك يامعروف فلى عندك هبة سنية ، فقال : لك عندى ماتشاء ، إن صدق حدسك وظنك ، فقال : لاأبغى إلاسيفك ذا الحيات ، فقال ومعه ألف دينار ، ثم مسح إبراهيم على جبهة عرقوص فأفاق يلهج بالشهادتين . فثار عجب الحاضرين وسألوه : كيف استيقظت من سباتك مسلماً ؟ فقال : رأيت فى المنام رجلا طويلا مملوءاً هيبة ووقاراً ، وفى يده سيف



معروف يقاتل ابنه

يقطر الموت من حده ، فقال : يا عرقوص ، إنك ابن معروف بن حجر وإنه من نسلى وذريتى الذين هداهم الله للإيمان ، فأسلم ، ولا تكن ممن طبع على قلوبهم فهم لا يعقلون ، فسألته : ومن أنت ؟ فقال : أنا على ابن أبى طالب ، ثم نطق بالشهادتين ، فنطقت بهما مثله ، وأيقظتمونى وأنا أرددها ، وهذا سبب إسلامى ومعرفتى لأبى ، ففرح أبوه وصحبه ، وقال الظاهر : تمن ما تحب يا عرقوص ، فقال : لن تكون لى أمنية حتى أرجع إلى الجيوش وأعلن إسلامى فيهم ، فمن تبعنى سلم من سيفى ، ومن عصانى حاربته وعاونتنى بجيشك لنستأصل شأفة هؤلاء الضالين ، فقال : افعل ما شئت .

كان جوان قد حض أبناء الملوك على أن يثوروا فى المسلمين ويحملوا عليهم حملة شعواء بعد أن أسر كبيرهم عرقوص ، فقالوا له : لا ينبغى أن نعجل فى أمرنا ، ونحن صابرون حتى نرى ما يفعله المسلمون بكبيرنا ، وانتظروا يرتقبون ما يكون .

ركب عرقوص جواده ورجع إلى أصحابه وجيوشهم ، ولما دنا منهم رآه البرتقش ، فقال لسيده جوان : إن نور الإسلام يلمع فى جبين عرقوص ، وأظنه قد أسلم ، فاهرب قبل أن يظهر كذبك ، ويفتضح أمرك ، ويحل بك العطب ، فخاف وأخذ البرتقش وهربا إلى الدير .

أما أبناء الملوك فإنهم استقبلوا عرقوص فرحين مهنئين ، وابتدروه قائلين : لا تسألنا عن شىء فقد رأينا فى المنام ما رأيت ، وسبقناك

إلى الإسلام ، فقال : لقد رضى الله عنكم ، فأعلنوا فى الجيوش إسلامكم وادعوا إليه ، واستعدوا لقتل من عصى واستكبر ، وفى الحال انتشر الدعاة إلى الإسلام فى الجيوش ، فأسلم جميعهم ، وما شذ منهم أحد .

ثم رجع عرقوص إلى الملك الظاهر وصحبه ، وبشرهم بإسلام الجيوش والقادة جميعهم ، وأبدى أسفه لهرب جوان وخادمه . فقال الظاهر : تمن ما أحببت الآن ، فقال : أتمنى أن تكون لى كلمة لا ترد ، ومجلس لا يعلو عليه غيرى ، ويد مبسوطة لكل طالب ، وسيف طليق حر ، وألا يحكم فى أحد . فقال الظاهر : ماذا تعنى بهذا القول : فقال : تكون لى شفاعة عند مولاى لا ترد ، وإذا بسطت يدى فأخذت من مولاى كتاباً جاءه وأنا معه فقرأته لا يضيق صدرك بما فعلت ، وأن يكون لى كرسى خاص بى فى ديوان مولاى الملك، وأن يكون سيفى طليقاً حرًّا أقتل به من يستحق القتل بحكم الإسلام ، وإذا فتحت مدينة بسيفى وأعجبتنى سكنت فيها . فقال الظاهر : لك يا عرقوص جميع ما تمنيت ، ثم دخل جميعهم مدينة حلب ، وأقاموا فيها أكثر من شهر ، ثم عزموا على الرحيل إلى مصر ، فقال معروف : أستأذن الملك فى أن أسافر بابنى إلى جنوة لأريه أمه مريم التى حرمت من رؤيته ثمانى عشرة سنة ، فأذن له ، ورجع الملك إلى مصر .

أما معروف فقد رحل هو وابنه إلى جنوة ، واستقبلهما الملك حنا استقبالا رائعاً جميلا ، وما كاد يضمهما قصر الملك حتى عرفه بابنه

وابن بنته عرقوص، ففرح به فرحاً عظيماً ، ثم سأله عن زوجته مريم ، فقال : لم تغادر حجرة الأحزان والحسرات مدة غيبتك ، فنهض قائماً وأخذ ابنه معه ومشيا إلى مريم فى غرفة أحزانها ، فكشفا عنها بهذا اللقاء الباغت كل هم ، ونهضت إلى ابنها فضمته إلى صدرها ، ولبث فيه مدة حتى سرت فيها الحياة وارتد إليها بصرها ، الذى ابيض من الحزن ، ثم انفرجت عنه يداها ، ووقفت أمامهما وكأنها فتاة فى مقتبل عمرها تشع نوراً وجمالا ، وبعد ثلاثة أيام استأذن معروف أباها فى الرحيل ومعه زوجته فأذن له ، وودعه أكرم وداع وأجمله .

وسافر معروف وابنه وزوجته إلى قلعة صهيون ، فجاءه الناس من كل فج ، فرحين مهنئين وأعلن فيهم ولاءه وطاعته لجمال الدين شيحة ، ثم سافر بهما إلى مصر ، فأنزلهم الملك الظاهر فى ناحية من بيت ابن باديس السبكى التى أعدها لهم .

١١

أرسل مغلوين إلى مدينة حلب جيشاً بقيادة شطرون وترس النصرانية ليشفى غيظه من أهلها بالفتك بهم ، فاستغاث حاكمها بالملك الظاهر ، فنهض من فوره ليصحب جيش النجدة الذى أمر به أن يسافر إلى حلب ، ولكن عرقوص كفل له قيادة هذا الجيش . والبلوغ به إلى ما يريده من نصر عظيم ، دون أن يتعب نفسه ويسافر معه . وأصر والده معروف أن يكون مع جيش النجدة الذى وكل الملك إمرته إلى ابنه عرقوص .

وجدّ عرقوص بجيشه فى السير حتى أشرف على حلب ، فوجدها أمام جيش عرمرم وهو على أهبة القتال ، فعسكر تجاهه ، وبعد يوم وليلة نشبت حرب شعواء بين الفريقين .

قتل شطرون وترس النصرانية فى تلك الحرب ، فابتأس جوان اللعين ونهض يحض الجيش على الاستبسال ، ويمنيهم بالنصر العاجل ، فحمى وطيس الحرب ، وأصيب جواد عرقوص بسهم فى فخذه فشرد به وخرج يجرى فى الخلاء واستعصى على اللجام ، فلم يقدر عرقوص على كبح جماحه ورآه أبوه معروف على هذه الحالة فانفلت يجرى من خلفه حتى أدركه واعترض جواده حتى وقف فقال له : يا بنى ، حرام على المؤمن المجاهد أن يولى الأدبار ، فقال : ما فررت يا أبى من قتال ، ولا سئمت الكفاح

والنضال ، ولكن جوادى أصيب فى فخذه فشرد ، وما استطعت كبحه ، فنزل وعالج الجرح بمرهم الاستقطاب فالتأم ، ثم رجعا ليستأنفا القتال ، ووجدا فى طريقهما شيخاً يحمل إبريقاً به ماء ، فأقبلا إليه وسألاه أن يسقيهما ، فسقاهما من إبريقه ، فغابا فى إغماءة عميقة .

كان هذا الشيخ جوان اللعين ، وقد وضع فى الماء بنجاً ، وانطلق يستقبل معروفاً وابنه ،حين رآهما قد خرجا من المعركة ، فكتفهما وربطهما على جواديهما ومضى بهما إلى أنجبرت ملك مدينة الأفلاق ، وعرفه بهما وأفهمه أنهما نكبة على الناس ،وأشار عليه أن يقتلهما فوراً ، فقال البرتقش ، لا تسمع كلام جوان ، والعاقل من نظر إلى العواقب ، واعلم أن قتلهما نكبة كبرى عليك وعلى مدينتك ، فإن الملك الظاهر قوى بجيوشه ، وإذا عرف أنك قتلتهما أطاح برأسك ، وقضى على أهلك وجيشك وخرب ديارك ، وأرى أن تلقيهما فى سجنك حتى تنتهى الحرب الدائرة بيننا وبين المسلمين فى حلب ، فإن كانت لهم افتدينا بهما ، وإن كانت عليهم قتلناهما ونحن آمنون على أنفسنا وأموالنا وديارنا ، فقال أنجبرت : ذلك الحق ، وأمر بوضعهما فى السجن .

وانتهز الكفار غيبة عرقوص وأبيه فحملوا على المسلمين حملة قاسية ولقيهم المسلمون بصبر وثبات وقوة ،وجاءهم إذ ذاك الملك الظاهر وجيشه فنزلوا على الكفار نزول القضاء ، وما نجا منهم إلا من هرب فى الصحراء ، ثم سأل الملك الظاهر عن عرقوص فحكوا له ماحصل ، فلبث فى حلب ينتظر عودته.

اغتاظ جوان من إرجاء قتل معروف وابنه ، ودفعه هذا الغيظ إلى أن يسعى إلى أن يضم إليهما فى سجنهما أميركبير فى برصة اسمه أصلان ، فقال للبرتقش : هذا عقد من الجوهر قيمته ألف دينار ، وهو لك إن سرقت أصلان من برصة ، وجئتنا به ، ثم ناوله العقد .

ذهب البرتقش مستخفياً واستطاع أن يدخل القصر ويبنج من فيه ، ثم دخل على أصلان وهو نائم فى غرفته فبنجه وكتفه ، ثم انتبه إلى ما يفعله فقال فى نفسه : إنى الآن فى خطر ، وقد أمسك وأنا خارج به فيكون مصيرى الهلاك ، وماذا على جوان إن مت أو حييت ، ثم أخرج من جيبه ورقة وكتب فيها :

إلى الملك مسعود حاكم برصة : أمرنى جوان أن أسرق أصلان ، وقد سرقته خوفاً منه ، وذهبت به إلى أنجبرت ملك الأفلاق ليلقيه فى السجن مع معروف بن حجر وابنه عرقوص ، فاكتب إلى الملك الظاهر فى حلب بذلك ليأتيهم بجنده ويخلصهم من سجنهم قبل أن يغريه جوان بقتلهم؛ وماكتبت إليك هذا إلا رغبة فى خلاصهم ، وإن كنت قد أكرهت على سرقة أصلان إكراهاً لم أجد لى منه مخلصاً ، ثم ترك الورقة فوق فرش أصلان ، وحمله وخرج به إلى أنجبرت ملك مدينة الأفلاق ، فوضعه هذا فى السجن مع معروف وابنه .

كان أصلان يحفظ القرآن ويكثر من تلاوته فى سجنه ، فرغب عرقوص حين سمعه أن يحفظ شيئاً منه ، فجعل أصلان يحفظه حتى حفظ

منه كثيراً ، فاغتاظ جوان من ذلك وفرق بينهم وجعل كلا منهم فى مكان وحده .

عكف عرقوص فى سجنه يتلو القرآن فى صوت رخيم مؤثر ، فسمعته تحفة الروم بنت أنجبرت ملك الأفلاق ، فطربت واهتز قلبها لما سمعت من آيات الله البينات ، فأمرت بنقله إلى قصرها ، وهناك طلبت منه أن يتلو عليها ما كان يتلوه فى سجنه ، فجعل يقرأ القرآن وهى تسمع له فى خشوع وغبطة ، ثم عرضت عليه فى استحياء أن يتزوج منها ويحفظها شيئاً مما يتلوه ، فقال : لا يكون ذلك حتى تدخلى فى دين الإسلام ، فقالت : قد دخلت فى دين الإسلام فعلمنى ما أقوله ، فعلمها النطق بالشهادتين ، ونطقت بهما فى صدق ويقين وتم عقد الزواج وأعطاها خنجراً من ذهب كان معه صداقاً لها . وأراد الله أن يكون له منها غلام سيكون له حديث ذو شأن .

كتب مسعود صاحب برصة إلى الملك الظاهر فى حلب ما وقع لأصلان ، وبعث إليه الورقة التى كتبها البرتقش وتركها على فراشه ، وطلب منه النجدة قبل أن يحل بمعروف وابنه وأصلان الضرر .

وقدم الملك الظاهر بجيشه إلى مدينة الأفلاق فارتعدت فرائص أنجبرت ملكها وجعل يؤنب جوان ويشتمه ، لأنه أوقعه فى ورطة لا يدرى أيكون فيها حتفه وضياع ملكه أم يخرج منها سليماً معافى ، فجعل جوان يهدئ من فزعه ويبشره بنصره حتى خرج إلى الملك الظاهر فى جيشه ، وبدأ

القتال وأفنى كثيراً من رجاله وجنده ، وتحفزت تحفة (الروم) إلى معونة المسلمين ، فأطلقت معروفاً وابنه وأصلان من السجن ليقاتلوا معهم ، وأحضر لهم شيحة جياداً وسلاحاً ، فخاضوا مع الملك وجيشه غمار تلك الحرب ، وسحقوا بسيوفهم الأعداء سحقاً ، وانتهت بأسر أنجبرت ، وطلب الأعداء الأمان ، فسكت القتال وجلس الملك الظاهر على عرش مدينة الأفلاق ، وجيء بأنجبرت ملكها أمام الملك الظاهر ، وقبل أن يسألوه عن شيء ، أخبره عرقوص ما تم بينه وبين ابنته تحفة الروم من إسلام وزواج وعشرة ، فقال أنجبرت : إن ابنتي ملك لك ، وإن أردتها معك جهزتها بما تملك يمينى من المال ، وأرجو أن أكون عتيق سيفك إكراماً لها ، فقال أصلان : لا بد أن تدفع نفقات تلك الحرب التى كنت السبب فيها بحبسك معروفاً وابنه فقال : لكم ما تطلبون ، وإنى لكم عبد مطيع ، فقال الملك الظاهر : قد عفونا عنك إكراماً لابنتك وزوجها عرقوص ، ولكن عليك لنا الجزية ، فقال : سمعاً وطاعة ، وأطلقه . وأما عرقوص فإنه أسلم زوجته تحفة الروم إلى ابن عمته عماد الدين بن علقم ليذهب بها إلى حصن صهيون لتقيم هناك ، ثم أمر الملك بالرحيل إلى برصة ، فرحلوا إليها وأقاموا فيها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلوا إلى مصر . أما عرقوص ومعروف وأصلان فإنهم مكثوا فى برصة بعد أن استأذنوا الملك فى البقاء بها .

وذات يوم أقبل على معروف فداوى اسمه خالد فعرفه وسأله عن حاجته ،

فقال : كنت ببضاعتى فى سفرة طويلة ربحت فيها مالا جزيلا ، ولكن السفينة غرقت بنا ونحن راجعون ، فغرقت بمن فيها وما فيها ، وقد جئتك لمعونتى بالمال حتى أقضى ما على من الأموال لأصحابها . ولولا أن قيض الله لى لوحاً من الخشب تشبثت به لكنت من المغرقين . فأعطاه هو وصاحباه عرقوص وأصلان أضعاف ما فقد من ماله . وأقام فيهم ثلاثة أيام ، ثم سافر إلى القلاع ، وفى ليلة من لياليها جلس عرقوص وأصحابه وخالد هذا يتحدثون ، فسأله عن أعجب ما رآه فى سفرته ، فقال خالد : مررت بمدينة الأنجرس ، فرأيت لملكها ذى الجوابر بنتاً اسمها كرمة ، ما اكتحلت عين إنسان بأجمل منها ، وجعل يصف جمالها وسحرها حتى اغتاظ معروف وأسكته خشية أن يعلق بها قلب ابنه وتشغله ، وكان ما خشيه أبوه ، فقد ملأت كرمة قلب ابنه وسمعه ، وجعلت الرغبة فى رؤيتها تلح على فؤاده حتى ركب جواده ذات ليلة وخرج خفية إلى مدينة الأنجرس ، ودخلها فى ضحوة النهار ، ووجد بستاناً جميلا فيه قصر كرمة فدخله وعقل جواده ، وأكل طعاماً كان معه ثم اضطجع ليستريح فأخذه النوم ، وأطلت كرمة من نافذة قصرها فوجدته نائماً ، ولكن مخايل البطولة والشهامة تشع من وجهه وشكله ، فقالت فى نفسها ، إذا كان للبنت أن تختار بعلها فلن أختار لنفسى غير هذا الشهم الذى ما أظنه إلا بطلا مقداماً نبيلا ، واتفق أن استيقظ من نومه ساعتئذ ، فسألته ، من أنت يا هذا ؟ فقال : أنا حوارى من حوارى

المسيح اسمه لكاعات ، فقالت : أيمن بطلعتك ، وأحب أن يبارك القصر بزيارتك ، ثم أمرت الجارية ففتحت باب القصر وسارت به إلى غرفتها فسلم وجلس ، وكانت محبته قد تمكنت من قلبها وارتضته بعلا لها مهما يكن من أمره ، فجعل يحدثها عن الأديان مبيناً لها مزايا الإسلام وما ينال به المرء من سعادة فى دنياه وآخرته حتى سألته : لعلك مسلم ؟ فقال : نعم ، وداعية إلى الإسلام ، فقالت : قد ارتضيت ورغبت فى دينك وأن أقرن حياتى بحياتك لنسعد فى ظل هذا الدين المجيد ، فأبرم عقد زواجه منها وعاشرها أياماً ، وجاءها أبوها ذو الجوابر يوماً فرآه فى قصرها ، ففزع وسأله : من أنت ؟ ولماذا دخلت هذا القصر ؟ فقال : أنا الحوارى لكاعات ، بعثنى المسيح إلى ابنتك لتحمل وتضع قليوناً يكون نائبه فى الأرض ، فابتسم أبوها فرحاً ، والتفت إلى ابنته وقال لها : أطيعى هذا الحوارى وأكرميه ، فذلك فضل خصنا به المسيح .

كان إسرافيل ملك سمرقند قد بلغه الحديث عن جمال كرمة هذه ، فأرسل إلى أبيها يخطبها لنفسه ، فأبى وقال : إن إسرافيل يهودى وابنتى نصرانية ولن أزوجها منه ، فاغتاظ إسرافيل وجاءه بجيش تهتز لمشيته الأرض ، ووقعت حرب بينهما دامت نحو عشرة أيام ، وأراد أبوها أن يدفع عنه شر إسرافيل ويزوجه ابنته ، ولكن هذا أثار غضب عرقوص ، فركب جواده وتقلد سلاحه ، وخاض المعركة وجعل يجز رقاب الغازين المعتدين جزًّا حتى قتل إسرافيل ملكهم وولوا الأدبار فزعاً ورعباً ، وفرح به الملك

ذو الجوابر فرحاً عظيماً . وسأله وزيره عنه فقال: إنه حوارى أرسله المسيح إلى ابنتى لتحمل وتضع قليوناً يكون نائباً عنه ، وقد رأيت كيف وقانا بسيفه شر اليهود أعدائنا ، ثم أقبل إليه وهنأه وشكره ، وقال له : أحب أن تكون معى فى الديوان ليدوم أنسى بك ، فقال : سمعاً وطاعة .

استيقظ معروف فى الصباح ولم يجد ابنه ، فظن أنه خرج إلى مدينة الأنجرس ، فركب جواده وأخذ سبيله إليها حتى كان أمام البستان الذى فيه قصر كرمة وفيه ابنه فوجد شخصاً خارجاً من بابه ، وهو ينفخ كأنه ثعبان ، وأدرك من تجاربه ومعرفته أنه سارق وأن الوعاء الذى يحمله فيه الشىء الذى سرقه . فصاح فيه قائلا : قف مكانك ، وأدرك هذا الشخص من صيحته هذه أنه بطل ولا قدرة له عليه ، فسلك سبيل الحيلة لينجو منه ، وقال : إنى بستانى ، أحمل بعضاً من ثمار هذا البستان ، وأريد أن أعجل به إلى المدينة لأبيعه ثم أعود إلى هذا البستان لمزاولة أعمالى فيه ، ثم مد يده وأخرج أصبعاً من الموز وناوله إياه وقال : ذق هذا الموز فلعله يعجبك وتكون أول من يشترى منى ، فأكله معروف وسقط على الأرض مغشياً عليه ، فكتفه هذا الشخص ثم سقاه شيئاً فأفاق من غشيته فنظر معروف إليه وقال : لم فعلت بى هذا يا رجل ؟ فقال : مالك وللناس ؟ ! إنك رجل مسلم ولا تفتأ تؤذى اليهود ، فوقعت فى شر أعمالك ، فقال معروف : أأنت يهودى ؟ فقال : نعم ، وقد سرقت الآن هذا النصرانى الذى قتل ملكنا إسرافيل ، ولما تصديت لى بنجتك وكتفتك ،

وها أنا ذا سائر بكما إلى ابنه شرميل ليقتلكما فى أبيه . تتذكر معروف شيحة ، واستغاث به سراً ، وإذا بحاخام قد أقبل عليه من البستان يتلو التوراة بلغة اليهود ، فكلمه ذلك السارق وائتلفا وصحبه فى مسيره ، وكان هذا السارق اسمه مردخ ، فقال له الحاخام : أشركنى فى الثواب معك ، واجعلنى أحضر قتل هذا المسلم لآخذ قطرة من دمه وأضعها على فطير العيد ، فقال : تعال معى وخذ من دمه ما تشاء .

وضع مردخ السارق معروفاً وابنه على جواد معروف وسار فى طريقه إلى سمرقند والحاخام معه ، وانتصف النهار وهو سائر ولفحه وهج الحر فمال إلى ظل شجرة فى طريقه ليستريح ، فعقل الجواد ووصى الحاخام أن يحرس من معه حتى ينام قليلا ، ثم اضطجع وغرق فى نومه ، فوضع الحاخام على وجهه منديلا ملطخاً بالبنج فنفذت رائحته إلى صدره وغشى عليه ، ثم أوثق كتافه ، وأطلق معروفاً وابنه . وأيقظ هذا السارق وعرفه أنه جمال الدين شيحة ، وسأله لم فعل هذا ؟ فقال : إن عرقوصاً قتل إسرافيل ملك سمرقند ، فبعثنى ابنه شرميل الذى خلف أباه ، لأسرقه ويقتله فى أبيه ، فلما سرقته لقينى هذا فبنجته وأخذته ، ثم جئت أنت وكتفتنى كما ترى ، فقال شيحة : إن دخلت فى دين الإسلام عفوت عنك وإلا قتلتك ، فقال : لن أسلم أبداً ، فجرد شيحة سيفه وقطع عنقه ، ثم قال لعرقوص : كيف وقعت فى يد هذا الكافر ؟ فحكى له قصته ، فأحضر لهما شيحة جوادين ليعودا بهما إلى مصر .

١٢

وذات يوم أحس الملك الظاهر ضيقاً فى صدره فخرج إلى الخلاء وحده ، وساقه المسير إلى سفح الجبل ، فجلس ينظر فيما خلق الله من سماء وأرض وما سخر للإنسان من شمس وقمر ونهار وليل والطيبات من الرزق ، ثم غلبه النعاس فنام ، ثم استيقظ من نومه وهو مكتف اليدين ومربوط على ظهر جواد وبجانبه رجل فداوى كأنه المارد ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ماذا جنيته حتى فعلت بى ما فعلت يا هذا ؟ فقال الرجل : عجباً لكم أيها الملوك ! ! تتوارون فى سلطانكم ، وتزعمون أنكم فوق البشر ، تستحلون المنكر ، وتستبيحون الحرام ! ! فقال : وأى منكر فعلته يا هذا ؟ فقال : ألست الملك الظاهر ؟ فقال : بلى ، فقال : لم يكفك أن فرضت نفسك سلطاناً على مصر ، فحرمتنى ملك القلاع والحصون ومنحت شيحة ملكها ، وأنا أشد منه عزماً وأطول باعاً وأمضى سلاحاً ! ! فقال : إنى ما رأيتك ولا سمعت عنك قبل هذه الساعة ، فمن أنت ؟ فقال : أنا قادم بن شر صاحب قلعة دمورية ، ثم أخذه إلى قلعته ووضعه فى السجن .

انتظر إبراهيم وسعد عودة الملك ، ولما لم يعد ارتابا فى أمره وقلقا ، فخرجا يمشيان فى الخلاء ، وكان مشيهم فى طريق دمورية فلقيهما قادم ابن شر وسلم عليهما ، وسأله إبراهيم : إلى أين ذهب الملك ؟ فقال : إنه

عندى فى ضيافتى ، وقد اصطلحنا وتبدد ما بيننا من خلاف ، ولا بد من زيارتى لتناول طعامى مع الملك الظاهر حرسه الله ، فرجعا معه إلى داره ، ولما دخلاها هوى بهما سطح الأرض وهما سائران فى دهليزها فسقطا فى سرداب بعيد الغور ، فرفع إبراهيم رأسه إلى قادم وقال : أهذه ضيافتك أيها النذل الحقير ؟ ! فقال قادم : وهل تنتظران منى لكما غير هذا ؟ ! لقد خضعتما لرجل قصير القامة اسمه شيحة ، كما أخلصتما فى خدمة ملك أبوه مملوك عجمى اسمه الظاهر ، وإذا أردت العدل فيكما قتلتكما ، ثم أمر رجاله أن يقبضوا عليهما ويلقوهما فى السجن مع ملكهما . فألقوهما فى السجن كما أمر . ولما رآهما الملك حوقل واسترجع ثم قال : إنك يا ربنا ولى الصابرين .

وأراد قادم قتلهم لتخور عزيمة شيحة ويضعف شأنه وحينئذ يتمكن من القبض عليه وقتله ولكن العقلاء من أعوانه قالوا له : إنك إن قتلتهم فما أنت بناج من المسلمين لقوتهم وكثرة عددهم ، ولأنهم لا يقعدون حتى يأخذوا بثأرهم فى أقسى صوره وأبشع ضروبه ، ونرى أن تحبسهم فى سجنك وتجمع الجموع من رجالك وحلفائك وأصدقائك من الملوك ثم تلقى المسلمين فى معركة حاسمة تطفئ مصباحهم وتمحو آثارهم ثم تقضى فيهم بعد ذلك بما تشاء وأنت آمن على نفسك وديارك ، فقال : ذلك خير ما رأيتم. وأرسل رسوله بكتاب منه إلى « عاصى بن بحر » سلطان بنى الأدرع .

لقى رسوله شارد بن جردون فى طريقه غلاماً على ناقة كأنه ضال فى

تلك البيداء الفسيحة الأرجاء فسأله عن الطريق إلى قلعة سلطان بنى الأدرع ، فقال له : تعال معى فإنى ذاهب إليها فشكره الغلام وسار معه، وبعد قليل أخرج الغلام من جراب معه طعاماً ليأكل وناول الرسول بعضه وقال : كل يا سيدى من رزق الله ، فأخذه مثنياً عليه وأكل قليلا منه فسقط عن جواده مغمى عليه ، فنزل الغلام وكتفه، ثم فتشه وأخذ الكتاب الذى معه ، ثم أيقظه وعرض عليه الإسلام فأعرض وأبى ، فقتله الغلام ونزع عنه ثيابه ولبسها ، ثم سار بالكتاب إلى عاصى بن بحر سلطان بنى الأدرع .

كان هذا الغلام جمال الدين شيحة، فدخل على سلطان بنى الأدرع وناوله الكتاب ، ففضه وقرأ فيه :

قبضت على الملك الظاهر وإبراهيم وسعد وألقيتهم فى غيابة السجن إلى أن أقتلهم ، وأريد أن تأتينى بجنودك لنستولى على بلادهم ونجلس على عرش ملكهم وإذا تم لنا ذلك فستكون مصر والشام لى وتكون القلاع لك ، فابعث إلى مع رسولى ما عزمت عليه ، فإما حضرت إلينا بجنودك ، وإما حضرت إليكم بجنودى لنكون يداً واحدة على هؤلاء المسلمين .

قرأ عاصى الكتاب على مسمع من رسول قادم بن شرفنظر إليه نظرة غاضبة وقال : وهل جننت أنا حتى أتبع هذيان قادم بن شر ؟! وكيف امتدت يده إلى ملك المسلمين ؟! وكيف جسر على أن يفكر فى قرع أبوابهم ؟! ثم أمر بالقبض على الرسول ، فقال الرسوا :

إن كان لا يرضيك ما كتبه قادم بن شر فكن حليما ولا تؤذنى ، فربما وجدت عندى ما يسرك ، فقال : لا يسرنى إلا قتلك ، وقتل سيدك الكلب ، فقال الرسول : يعجبنى فيك العقل والوفاء : فقال : إن بينى وبين شيحة عهد لا ينقض وإن عصاه أبى قبضت عليه وأسلمته إليه ، فأبان الرسول عن نفسه ، وقال : نعم الصاحب الوفى يا ابن بحر ، فقال : إنى لن أخونك أبداً ، غائباً كنت أم حاضراً . فقال شيحة : اختم لى ورقة بيضاء ودعنى لأرى هذا الغادر الماكر سوء فعله ، فختم له ورقة بيضاء وناوله إياها وقال : إن أردت أن أذهب معك لأهلكه وأخرب دياره قمت من فورى ، فقال : شكراً لك . ثم ودعه وانصرف .

كتب شيحة فى الورقة ما أراده ، وذهب إلى قادم فى هيئة رسوله ، وناوله تلك الورقة فقرأ فيها :

حضر إلينا رسولك ، وقرأت كتابك . وقد أخذت فى حشد الجنود وجمع الجموع ، وأريد أن تحضر إلينا وحدك ومعك رسولك هذا فقد أعجبنى أدبه ولباقته ، ومعك الملك الظاهر وإبراهيم وسعد لنقتلهم على مرأى من جموعنا ، وقد كفلت لك القبض على شيحة كما قبضت أنت على ملكه وأمرائه وإنى لمرتقب حضورك على أحر من الجمر .

فرح قادم بن شر فرحاً عظيماً وأسرع إلى الرحيل إليه ومعه الملك وإبراهيم وسعد والرسول . ومر فى طريقه بغار فمال إليه وقال للرسول : سأنام قليلا لأستريح ، وعليك أن تحرس هؤلاء الرجال حتى أستيقظ ،

فقال الرسول : نوم العافية يا سيدى ، وكن مطمئنا. فقال : أعطنى شربة من الماء قبل أن أنام، فناوله قدحاً شرب منه فخر مغشياً عليه، فانكب شيحة عليه وكتفه، وأطلق الملك وسعداً وإبراهيم، وأعطاه ما أخرجه من غيبوبة البنج التى غرق فيها ، فناداه باسمه وقال : ما هذا الذى فعلته بى يا شارد بن جردون ؟ فقال : شردت روحك من جسمك ؛ أتحسبنى رسولك شارد بن جردون ؟ ! أنا جمال الدين شيحة الذى سيسلخ جلدك إن لم تدخل فى دين الله ، ثم رحلوا إلى سلطان بنى الأدرع فلما وصلوا إليه استقبلهم بما يليق بملك المسلمين من حفاوة وإجلال ، وبعد يوم من نزولهم عنده أحضر قادم بن شر وعرض عليه الإسلام فأبى ، فنهض إليه وسلخ جلده على مشهد من الناس، ونادى ابنه محمداً السابق فحضر لساعته ، وأمره أن يأخذ الجلد ويحشوه تبناً ويعلقه على باب دمورية ، ففعل ما أمره به أبوه .

* * *

كان فى أول بلاد الروم قلعة حصينة لامرأة ساحره يخافها ملوك الروم لأن قوتها فوق قوتهم بسحرها ، وبلغها أن عرقوص بن معروف اتخذ مدينة الرخام قاعدة حربية لمحاربة ملة الكفر وأهله ، ونشر دين الله وحمايته ، فأرسلت إليه « وردنوش » أعظم قوادها فى خمسة آلاف لمحاربته ، ولكن عرقوص بن معروف أسره ، بعد قتال عنيف وعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم جميع من معه، وأقاموا فى مدينة

الرخام جنوداً فى صفوف المسلمين ، فعرضت أمر هزيمتها على أعوانها فقال أحدهم : إن أردت أن تكونى غالبة فأحضرى عالم الملة جوان فإنه يعرف أحوال المسلمين وله خبرة بقتالهم فأمرت أحد أعوانها من الجان أن يحضره حيث يكون ، فانطلق مسرعاً وأحضره وخادمه البرتقش ، وقصت عليه ما فعلت ، فقال لها : إن قائدك ومن معه من الجنود قد أسلموا وصاروا جنوداً فى صفوف عرقوص ملك مدينة الرخام ، وأعتقد أنه ما دام جمال الدين شيحة على قيد الحياة فلن يغلب أحد من المسلمين ، فاغتاظت وأحضرت البرق الخاطف وهو أحد أعوانها من مردة الجان وأمرته أن يحضر لها من مدينة الرخام عرقوص بن معروف وشيحة فانطلق مسرعاً ، وخطفهما من مجلسهما ، ووضعهما بين يديها ، فأعجبها شكل عرقوص ، ولهذا ألقتهما فى سجنها حتى تقضى فى أمرهما ، على الرغم من إلحاح جوان فى أن تعجل بقتلهما .

وقالت الساحرة لجوان : إن لى فى الدير غلاماً قوياً ماهراً فى الحرب اسمه نور فابعث إليه ليكون عضداً لنا فى قتال المسلمين فإنهم لا محالة قادمون إلينا بعد خطف عرقوص وشيحة ، فأرسل إليه رسولا يدعوه إلى قتال المسلمين ، فلما بلغه قال : كيف أقاتل أناساً لم يؤذونا ولم يعتدوا علينا ، وذهب إلى أمه مريم فى الدير وأخبرها فقالت : أطع أمر جوان والساحرة ، ولكنك إن دخلت الحرب فاحذر أن تقتل أحداً من المسلمين ، غير أن لى ثأراً عند أحدهم وأود أن تأتينى به أسيراً ،

فقال ومن ذلك يا أماه وما الذى قدمه لك من إهانة؟ فقالت : إنه جمال الدين شيحة وكان قد جرحنى ، ولم أبرأ من جرحى حتى الساعة . فقال : سمعاً وطاعة ، وإن إحضاره يسير على ، لأنه محبوس فى سجن الساحرة .

فلما دخل على الساحرة ونظر إليه جوان : انقبض صدره ، وساوره الخوف منه ، فقال للبرتقش : إن قلبى يهتز خوفاً من هذا الغلام القصير ، وأخشى أن يكون شيحة ، فقال : إن شيحة فى السجن وإن صدق ظنى كان هذا الغلام ابن شيحة . وقالت له الساحرة أنت نور وأمك مريم ؟ فقال : نعم ، فقالت : إنى دعوتك لقتال المسلمين ولا بد أن تبيت معى فى فراشى كل ليلة حتى لا أمكن أمك من أخذك ، فقال : أمرك مطاع ، وبات معها الليلة الأولى ، وبينما هى غارقة فى نومها أخرج خنجره وشق بطنها وقطع عنقها فماتت ، وارتفع صياح الجان عقب موتها قائلين : أراحك الله يا نور كما أرحتنا من هذه الساحرة الماكرة ، وبطل ما كان لها من السحر فخرج نور وأطلق المحبوسين وقبض على شيحة وقال له : إن لأمى ثاراً عندك وقد أمرتنى أن أحملك إليها فإما سرت معى طائعاً مختاراً وإما حملتك إليها غصباً ، فقال : سأذهب معك مختاراً فهيا بنا إليها .

ولما دخلا على مريم استقبلته فرحة مبتسمة وقالت : لا خوف عليك فما طلبتك إلا لتلتقى بزوجتك وابنك ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقالت : أنا مريم التى تزوجتنى فى أثناء فتح المسلمين للسواحل ، وقد حملت منك

بنور هذا ، فهو ابنك وعلى دين الإسلام ، ففرح جمال الدين ونهض إلى ابنه فاحتضنه وقبله ، وقال نور ولم أخفيت عنى هذا يا أماه ؟ فقالت : أخفيت أمرك عنك وعن غيرك حتى أحافظ على حياتك من القوم الكافرين .

وكان وردنوش قد حضر بجيش كبير بعد خطف عرقوص وشيحة ، فلما أطلقهما نور من السجن ، ذهب عرقوص إلى الجيش وأوقد نار الحرب واستولى على قلعة الساحرة وأخذ ما فيها من الأموال وبعث بها إلى الملك الظاهر فى مصر وأخبره بما وقع له ولجمال الدين شيحة ، ثم استقروا فى مدينتهم ومساكنهم .

كان مرين وزير ملك الأفلاق قد شرح الله صدره للإسلام فآمن سرًّا ، وأخفى إسلامه خشية القتل أو الأذى ، وأحب أن يرحل إلى مصر ليظهر إسلامه ويقوم بخدمة الملك ، وما ينبغى لدينه من جهاد ، وأخفى كل هذا عن زوجته التى لا تزال مستمسكة بدينها ، فعرفها أنه يود زيارة القدس ويقضى فيها أياماً للتبرك ، فوافقته على رغبته وأخذها ومضى حتى كان فى مصر ، وهناك دخل على الملك وعرفه بإسلامه ورغبته فى المقام عنده وأن زوجته لا تزال على دينها ، ففرح به وقال : عسى الله أن يهديها للإيمان ثم أنزله فى بيت يليق به وكفل له المعيشة الراضية ، وقربه منه واتخذه من أمرائه .

علم جوان برحيل مرين إلى مصر وإسلامه ، فاغتاظ ولحق به

مستخفياً فى هيئة العلماء الداعين إلى الله ودينه ، واحتال فى أن يلتقى بمرين ويسمعه المواعظ ويتلو عليه آيات من كتاب الله، حتى سكن مرين إليه وأنس به فكان يقضى معه جزءاً من الليل يستمتع بحديثه ومواعظه .

وذات ليلة كشف له جوان عن نفسه وقال : إن المسيح بعثنى إليك وهو غاضب عليك لأنك صبأت وأسلمت وقال بلغه عنى أن يرجع إلى دينى وسأجعله على ملك مصر ، وأخذ جوان يوسوس فى صدره ويغويه حتى أضله وارتد عن إسلامه .

ففرح جوان وقال : ولقد أمرنى المسيح أن أشير عليك بأن تخفى ردتك عن الإسلام ، ثم ترجو من الملك أن يساعدك فى هداية زوجتك مرينة إلى الإسلام — وكانت زوجته مرينة حاضرة — وتطلب منه أن يقبلها فى قصره مع حريمه على أن يجتهدن فى هدايتها للإيمان ، ويحببنه إلى قلبها ، وحينئذ تسلم نفاقاً ورياء، وتكون أنت قد أعطيتها سماً قاتلا تحمله فى شعرها حتى تتمكن من وضعه فى طعام الملك فإذا أكل منه مات لساعته ، وإذ ذاك يضطرب حبل المسلمين وتتاح لك الفرصة للجلوس على عرش مصر .

اتفق جوان ومرين وزوجته مرينة على هذا، وفى الصباح طلب مرين من الملك ما وصاه به جوان، فقبل زوجته مرينة فى قصره مع حريمه، ووصاهن أن يحببن إليها الإيمان لتدخل فى دين الله، وأقامت بينهن فى قصر الملك مدة .

وفى صبيحة يوم استيقظت مرينة وهى تزغرد فاجتمعت جوارى القصر ونساؤه إليها فلما رأتهن نطقت بالشهادتين وزغردت ثم قالت : الحمد لله الذى هدانى للإيمان ، وحرم جسدى على النار بالإسلام ، ثم سألنها عن سبب إسلامها فقالت : — كما علمها جوان — جاءنى فى المنام الملك الصالح أيوب وأسمعنى حديثاً شهياً ، وأننى كتبت فى سجل القدر من المسلمات الصادقات وأمرنى بالإسلام فأسلمت ، واستيقظت من نومى فرحة مزغردة .

بلغ الملك إسلامها ففرح بها وأحضرها بين يديه وقال لها : اطلبى منى ما شئت يا مرينة ، فقالت : أبغى أن أقضى حياتى فى خدمة مليك الإسلام ، وأن يكون ذلك مع جوارى المطبخ ، فقال : جعلتك رئيسة لهن . ففرحت مرينة ، وقالت فى نفسها : سهل عليك يا مرينة وضع السم فى طعامه .

أعدت مرينة بطيخة للملك ومزجتها بالسم الذى معها ووضعتها على السفرة فى حجرتها ، وبلغت الملك أنها أعدت له بطيخة شهية ، وأنها تحت طلبه ، واتفق أن دخل السعيد ابنه تلك الحجرة ورأى البطيخة ، ولكنه لم يأكل منها ، وأحس الملك مشياً فى تلك الحجرة فسأل عنه فقيل : كان ابنك السعيد بها وخرج .

طلب الملك البطيخة فأتت بها مرينة ووضعتها أمامه ، ولما أكل منها أحس ألماً شديداً فى بطنه فصرخ وتلوى ، فأحضر الخدم إبراهيم

وسعداً فى الحال وحكوا له ما حصل . فقال : إن الملك مسموم ، ونادى : يا شيحة ، فرأوه حاضراً أمامهم ، وحكوا له ما جرى للملك عقب أكله شيئاً من البطيخة ، فقال عرفت كل شىء ، وأخرج من جرابه شيئاً . وأطعم الملك إياه فشفى فى الحال . وقال له : إن البطيخة فيها سم . فقال إبراهيم : ما وضع السم فى البطيخة إلا مرينة ، فقال الملك : اتق الله يا إبراهيم واجتنب الظلم وقول الزور ، ما وضع السم فى البطيخة إلا ابنى السعيد . فهو الذى دخل الحجرة التى كانت فيها . وقد أمرت بقتله ، وعبثاً حاول إبراهيم صرف الملك عن رأيه فى ابنه ، فقال : إذا كنت مصرًّا على قتله فاكتب لى بيدك أمراً بقتله ، حتى إذا ما قتلناه وندمت نكون فى مأمن من عقوبتك ، فكتب لهم بيده أمراً بقتل ابنه السعيد .

وغاب إبراهيم ساعة ثم جاء وفى يده ذلك المحكوم عليه بالإعدام ويقول : هذا جزاء الخائن ، فقال سعد : أدخله على الملك بظهره ثم اقطع عنقه ، فأدخله إبراهيم بظهره وضرب عنقه بالسيف وأطاح رأسه ، فذاع نبأ موته فى القصر وخيم عليه سحابة من حزن أليم ، وتسلل مرين إلى جوان وأخبره أن الملك قتل ابنه السعيد ، ففرح وقال : العاقبة لأبيه ، اكتب إلى ملك الأفلاق بذلك وأنك رجعت إلى دين المسيح ، وأن يركب فى جنده إلى بلاد المسلمين ، فكتب إليه بذلك ، وأخذ جوان الكتاب ورحل إلى ملك الأفلاق .



أمر الملك بقتل ابنه

١٣

كان عرقوص ومعروف قادمين إلى الملك لزيارته ، فلقيا جوان والبرتقش فى طريقهما فقبض عرقوص على جوان وسأله : من أين قدمت الآن ؟ فقال : من مصر ، فقال : ومن خلق فسوى إن لم تصدقنى فى إخبارى عما فعلته أنت فى مصر قتلتك أنت وتابعك ، فقال البرتقش : إن لم يقل الحق قلته أنا ، فقال جوان ، أعطنى الأمان وعدنى أن تخلى سبيلى ، فقال : لك ما طلبت . فحكى له ما وقع من ارتداد مرين وقتل السعيد ابن الملك ، فقال : وأين تذهب الآن ؟ فقال : بكتاب من مرين إلى ملك الأفلاق ، فقال : أعطنى الكتاب ، فناوله إياه ، فقال : سأفى بوعدى وأخلى سبيلكما ولكنكما إن دخلتم مدينة الأفلاق جعلت منكما مثلا وعبرة ، فقالا ، لن ندخلها ، وأمرهما بالانصراف .

قدم عرقوص وأبوه إلى الملك وحكى له ما وقع من ابنه السعيد وعاقبة فعلته وخطيئته ، فقال عرقوص وهو يكظم غيظه : تلك عاقبة الخيانة ، ثم قال : إن لى عند مولاى الملك أمنية ، قد وعدنى بها ، فقال : وما تلك يا عرقوص ؟ فقال : أن أتولى حكم مصر يوماً كاملا لا ينازعنى فيه منازع ، فقال : ولك ما طلبت ، وليكن هذا اليوم . ثم قام من مجلس حكمه وأجلسه مكانه ، وجلس الملك فى مكان من الديوان مشرف عليه .

أمر عرقوص أن ينعقد مجلس الملك ، فحضر فى الحال رجاله من

وزراء وأمراء وعلماء ، ثم قال : يا إبراهيم هل فى الديوان زغل ؟ فقال : نعم ، فقال : هاته إلينا ، فأمسك يد مرين وجذبه من مجلسه وأوقفه قدام عرقوص وقال : هذا هو الزغل ، فقال : ولماذا تركته فى الديوان وسكت عنه ؟ فقال : كان ذلك بأمر السلطان ، فقال عرقوص : يا مرين ، من الذى سم السلطان ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : وما رأيك فى هذا الكتاب الذى كتبته بيدك وأرسلته مع جوان إلى ملك الأفلاق ، ثم ناوله إلى أحد الجالسين وأمره بقراءته على مسمع من المجلس فأخذه وقرأ :

من الوزير مرين إلى ملك الأفلاق .

لقد رجعت إلى دين المسيح ، وقد علمنا جوان حيلة فعلناها ونجحت فقد أسلمت زوجتى مرينة نفاقاً ووضعت السم فى بطيخة وأكل منها الملك وأشرف على الهلاك ولكن شيحة حضر وأسعفه وبرئ من الخطر ، وقد اتهم ابنه السعيد — وقتله ، فاركب الآن بجنودك إلى مصر وسأكون معك ، لنقوض عرش المسلمين ونملك أرضهم وديارهم .

فضج المجلس وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم أمر إبراهيم أن يحضر مرينة زوجة مرين الخائن ، فأحضرها وكانت نظرات الغضب واللعنة تخزها ، فقال عرقوص : أحرقهما على عجل ثم ائتنى ، فذهب إبراهيم بمرين وزوجته وأشعل فيهما النار حتى كانا رماداً ، ثم رجع إليه فى مجلسه وقال : نفذ أمرك وهذه العاقبة لعدوك ، فقال : الحمد لله ، ثم نهض

واقفاً وتنحى عن العرش وقال : يا ملك الإسلام هذا عرشك ، ونحن عبيدك وخدمك ، وحفظك الله من كل مكروه .

جلس الملك على عرشه والهم يملأ صدره ، والحزن يضطرم فى قلبه ، على ابنه السعيد الذى قتله ظلماً وعدواناً ، ثم قال : يا إبراهيم أين السعيد ؟ فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال : إن لم تحضره يا إبراهيم طلبتك بدمه، فقال : إن معى أمراً كتبته بيدك ، فاطلب دم ابنك منك، فقال: لا تجادل وأحضر ابنى وإلا قتلتك، فقال: لم يكفك أنك ظلمت ابنك وقتلته فأردت أن أكون مثله ، وإذا حكمت وظلمت فإلى من يشكو المظلوم ؟ وإنى لا أملك إلا أن أقول : أمرى بيد ربى ؛ وفى تلك اللحظة دخل جمال الدين شيحة ، فأجلسه الملك بجواره ، ثم قال شيحة : أرى المجلس قلقاً مضطرباً كأن أمراً عظيماً وقع فما حكايتكم ، فقال إبراهيم : أمر الملك بقتل ابنه السعيد ، ونحن لأمره مطيعون ، فقال شيحة : وهل قتلته يا إبراهيم ؟ فقال : إنه الآن عند منكر ونكير ، فقال شيحة : لك يا إبراهيم من الملكة ألف دينار ، إن رددت السعيد إلينا حيًّا . فقال الملك : ومنى ألف دينار ، فقال كل من كان حاضراً : ومنى ألف دينار ، فقال : هاتوا دنانيركم وسأذهب إلى منكر ونكير أفاوضهما فى أمر عودته ، وقال شيحة : أعطوه الدنانير واتركوه ليذهب إلى حيث شاء وأنا الضامن ، فجمعت الدنانير وأخذها إبراهيم ومضى . وبعد ساعة حضر إلى المجلس وفى يده السعيد ، فوجم المجلس

عجباً ودهشة ، وقال الملك : كيف أحييته بعد أن أطحت برأسه أمامى ؟ فقال : يا مولاى ، أحضر لى سعد من سجن الملك رجلا بدوياً محكوماً عليه بالإعدام وألبسه ثياب السعيد ، وأمرنى أن أدخله بظهره ، وهذا الذى قتلته وما ظلمته ، لأنه يستحق القتل شرعاً .

وأما السعيد فقد حفظته فى دارى حتى أحضرته الآن بين أيديكم ، فقال الملك ألم تقل إنه عند منكر ونكير ، فقال : سميت اثنين من أتباعى منكراً ونكيراً وكان عندهما وتحت رعايتهما. فشكر له الملك جميل معروفه وزادت محبته فى قلبه .

وأراد عرقوص العودة إلى مدينة الرخام ولكن كتاباً جاء من صاحب الإسكندرية يشكو فيه من سرقة الأموال وعدم الاهتداء إلى اللصوص ، فقال : إنى ذاهب إلى الإسكندرية لأرد الأموال إلى أصحابها وأستأصل شأفة اللصوص الذين ظهروا فيها وأزعجوا الآمنين ، وقال أبوه معروف : وأنا معه فى هذا العمل المجيد ، فقال الملك : وقد جعلتك والياً على الإسكندرية حتى تجعلها آمنة مطمئنة وتطهرها من عبث العابثين .

لبث عرقوص وأبوه فى الإسكندرية باحثين عن اللصوص وما عثروا على أحد منهم أو عرفوا مكانهم ، وفى يوم الجمعة كانا يصليان الجمعة فى المسجد فرأى عرقوص رجلا من الأشراف جالساً بجانب المنبر ، فأمسكه وأقامه ، ثم جره وخرج به من المسجد ، وخرج معروف معه فقال لابنه : لم فعلت هذا فى ذلك الرجل الشريف ولم يقع منه ما يستحق عليه

الطرد من المسجد ؟ فقال : هذا الذى سجنك فى القيطلان ، وكان السبب فى تربيتى محروماً منك ، فقال : إذن هو كنيار القيطلانى، ثم كتفه معروف وضربه الحاضرون ضرباً مبرحاً ، وسأله عرقوص : أين أموال الناس التى سرقتموها ؟ فقال : لا أعلم عنها شيئاً ، ولقد قدمت إلى الإسكندرية وحدى فى تلك الأيام . فسأله : وأين المركب الذى جئت فيه من مدينتك ؟ فقال : كان لتجار وقد سافر إلى وجهته ، فقال له رجل أجنبى كان واقفاً بجواره : اطلب منه الأمان ودله على اللصوص وإلا دللته عليهم ، فقال : دله أنت ، فقال الرجل سر معى وأنا أدلك على مكانهم ، فسار عرقوص وأبوه وهذا الرجل حتى وصلوا إلى كنيسة فقال الرجل : فى هذه الكنيسة رفقاء كنيار وجماعته ، فدخلها عرقوص وأبوه ، وجعلا يفتشان فلم يجدا أحداً ، فوقفا حائرين يفكران ، ثم دققا فى البحث حتى عثرا على غطاء خشبى لا قفل فيه ، فرفعه عرقوص ووجد من تحته سرداباً فى الأرض وهم أن ينزل فيه فمنعه أبوه وقال : انتظر قليلا فربما كان فيه الموت ، وإذا بدخان صاعد منه له رائحة ذكية ملأت صدريهما فوقعا على الأرض مغشياً عليهما ، وخرج من السرداب أربعون محتالا من القيطلان فكتفوهما وحملوهما إلى فناء الكنيسة وأحاطوا بهما وإذا بنارنجة نحاسية سقطت بينهم من الجو فانكسرت وخرجت منها رائحة دخلت فى أنوف هؤلاء المحتالين فسقطوا كأنهم موتى من الإغماء .

كان جمال الدين شيحة هو الذى ألقى النارنجة النحاسية فظهر فى الحال ،

وأيقظ معروفاً وابنه ، وذبح المحتالين جميعهم ، ثم أخرجوا من السرداب الأموال التى سرقوها ، فنقلها عرقوص إلى ديوان الحكم وهناك ردها إلى أصحابها.واطمأن الناس واستقر الأمن ، ثم أخذ كنيار وعاد إلى مصر هو وأبوه معروف، وأحضراه بين يدى الملك وقصا عليه ما حصل ، فقال الملك:لا جزاء لكنيار القيطلانى عندى إلا القتل، فقال كنيار : ولكنى أحببت أن أدخل فى دين الإسلام، وبعد ذلك افعلوا بى ما تشاءون، فقال الملك : إن أسلمت حرم علينا دمك إلا بالحق ، فأسلم وقال ، وأحب أن أن أكون خادماً لأبى بكر البطرنى فى الغراب المنصور ، فقال البطرنى : والله لن تضع قدمك فى الغراب المنصور أبداً ، فقال عرقوص : تعال معى ، وأقم عندى فى مدينة الرخام ، وهناك أصنع لك سفينة مثل الغراب المنصور ، فقال الملك: اذهب يا كنيار إلى الإسكندرية واصنع لك مركباً كما تحب واختر له من الأسماء ما شئت. وهذا كتاب منى إلى صاحب الإسكندرية ليمدك بالمال والرجال . وكان إبراهيم بن حسن غائباً فى هذا اليوم، فاغتنم فرصة غيابه وأخذ الكتاب وسافر إلى الإسكندرية . ولبث كنيار فى المدينة حتى صنع مركباً كبيراً ، ثم ركب فيه وجرى به فى البحر ، ولما بعد عن المدينة رفع على المركب راية بلاده ودينه الذى ارتد عن الإسلام إليه ، واستمر يجرى به الفلك حتى كان فى بلدته فدخل على إخوته وحكى لهم ماحصل له ثم قال : ولا بد من جمع الجموع ومحاربة المسلمين فحشدوا السفن والمراكب وجمعوا الجموع وتأهبوا للرحيل .

نهاية جوان

١

بلغ صاحب الإسكندرية الملك ما فعله كنيار وأنه تسلل وهرب على مركبه الذى صنعه ، فأمر الملك البطرنى بالسفر على الغراب المنصور وإحضاره ، فقال : سمعاً وطاعة ، وركب الغراب وانطلق يجرى به فى البحر حتّى رسا على جزيرة العرانيص ، وكان كنيار قد احتاج إلى شىء من جزيرة العرانيص ، فركب هو ومن صحبه المركب وأقلعوا به حتّى بانت لهم الجزيرة ، وتأكدوا أن الغراب المنصور فى الميناء ، فاختار بعضاً من محتاليه فى مركبه وسبحوا فى البحر حتّى كانوا عند الغراب المنصور ، فطلعوا وركبوا فيه سرًّا ، وكان الليل قد اشتد ظلامه وأمعن فى سكونه ، ثم أطلق فى الغراب المنصور رائحة البنج الذى معه ، فغشى على جميع من فيه وعلى أبى بكر البطرنى وساق كنيار الغراب المنصور إلى مدينة القيطلان ، حتّى رسا به فى مينائها ، فخرج إلى إخوته وأخبرهم ، فسجنوا من فى الغراب جميعهم ، وأتلفوا الغراب ونقلوه إلى الميناء الحرب .

وقدم جوان وقوبل بالجفاوة البالغة وأخبره كنيار ما فعله ، فقال : الآن قويت شوكتك ، وأصبحت تقاتل الملك الظاهر وأنت آمن ، وأنا ضامن لك الفوز والظفر ، وأن تجلس على عرش مصر ، ولكن فاتك شىء عظيم إن فعلته كان لك قوة لن تغلب ، فقال : وما ذاك ، فقال : ما دمت قد أتلفت الغراب المنصور فكان من المحتوم أن تنشئ مثله ،

وتسخر أبا بكر البطرنى فى صنعه ، فقال : لقد أشرت بما فيه الخير ، وأحضر أبا بكر البطرنى وكلفه أن يصنع مركباً مثل الغراب المنصور ، فقال البطرنى : لا أستطيع صنعه إلا بمعونة رجالى الذين ألقيتهم فى السجن ، فإن أنت أخليت سبيلهم وأجريت عليهم أرزاقهم صنعت لك المركب الذى تريده ، فأطلق كنيار سراحهم وأمر رجاله أن يحضروا لهم ما يحتاجون إليه من أخشاب وغيرها .

وعكف البطرنى ورجاله فى الميناء على صنع المركب حتى أخرجوه أكبر وأوسع وأقوى من الغراب المنصور ، وكان كنيار قد أغلق بالسلسلة الميناء حتى لا يستطيع البطرنى أن يخرج منه .

فرح كنيار وأنزل فيه المدافع والعدد الحربية ، وركب فيه هو وجوان والبرتقش ، ومائة من أعوانه ، وأمر البطرنى أن يغدو به ويروح فى الميناء بين السلسلة والساحل ، فجعل البطرنى يجرى به فى الميناء وهم جالسون يشربون الخمر حتى أفقدتهم وعيهم ، وأصبحوا كأنهم فى غشية من الإغماء ، وكان المد قد ارتفع بالماء فوق السلسلة ، وصار من الممكن أن يعبر المركب فوقها دون أن تعوقه ، واغتنم البطرنى هذه الفرصة وانطلق يجرى بالمركب حتى بعد عن الميناء وغاب عن المدينة .

وأمر البطرنى رجاله أن يذبحوا رجال كنيار فذبحوهم وألقوهم فى اليم ، وأبقوا كنيار وجوان والبرتقش ، فكتفهم البطرنى وأقلع إلى مدينة الإسكندرية . وهناك أسلم كنيار إلى صاحبها وواليها وأبقى معه فى المركب جوان والبرتقش ، وكتب إلى الملك الظاهر كتاباً قص عليه فيه قصته ، ثم قال : إن رجال

القيطلان قادمون إلى الإسكندرية فى عدد لا يحصى لقتالك، وهذا لتستعد للقائهم ، وإنى لمنتظر قدومك، فلما قرأ الكتاب أمر بالجنود أن تسافر إلى الإسكندرية فى الحال ، فتجهز الجيش وسافر معه الملك إليها .

وذات ليلة اشتد خوف جوان فيها، فقال للبرتقش : إن بقينا فنحن هالكون ، فقم واقطع حبالى بأسنانك ، وبعد أن أنطلق من قيودى فككت قيودك وهربنا قبل أن يأتى الصباح ، فهذه ليلة شغل فيها المسلمون عنا ، وقد لا يتاح لنا وقت مثلها .

فك كل من جوان وتابعه قيود صاحبه ، واتفق أن كان فى الميناء مركب لتجار من الروم ، فناجاهم خفية ، وعرفهم أنه جوان وتابعه، وأنه يريد الهرب به ، فأنزلوهما فى مركبهم وأخفوهما عن الأنظار ، وقال صاحب المركب لجوان — وكان من القيطلان — : إنك إن دخلت القيطلان من غير كنيار صعب على إخوته وعاتبوك عتاباً قد لا تحتمله ، فقال : أما كنيار فلا أستطيع الآن أن أصل إليه ، ولكنى أستطيع سرقة البطرنى ، فإذا أخذته إلى القيطلان بادلنا المسلمين وأنجينا به كنيار ، فقال : إن فعلت هذا كنت فى منجاة من العتب واللوم .

أراد أبو بكر فى تلك الساعة أن يخرج إلى البر ، فرأى هذا المركب الذى فيه جوان، وظن أنه من مراكب الميناء التى تنقل الناس والبضاعة بين الساحل والمراكب الكبيرة ، فنزل فيه وقال لربانه سر بى إلى الساحل ، وكان جوان يراقبه ، فأخرج فى الحال بنجاً وبنجه ثم كتفه وأمر الربان أن يقلع ويرحل إلى القيطلان .

أما إخوة كنيار القيطلانى فإنهم أصبحوا فلم يجدوا المركب الكبير الذى صنعه أبو بكر البطرنى ولا جوان والبرتقش وكنيار ، فعرفوا أن مكيدة دبرت وانتهت بهرب البطرنى سارقاً كنيار وجوان والبرتقش فى المركب الذى صنعه. فجهزوا مراكبهم وانطلقوا بها فى البحر كأسراب الحمائم حتى التقوا بجوان فى مركبه ، فانتقل إليهم وحكى لهم ما حصل وما فعله ، وقال : ولقد سرقت أبا بكر البطرنى لنتخلص به كنيار الذى سرقوه ، فقال أحد إخوته : اقتلوه وارموا جثته فى البحر ، فقال البرتقش : إن قتلتموه قتل المسلمون أخاكم كنيار ، ولكن خذوه معكم إلى الإسكندرية وحافظوا عليه حتى تخلصوا أخاكم ، وبعد ذلك اقتلوه أو احرقوه ، فنزلوا على رأى البرتقش وساروا إلى الإسكندرية .

كان عرقوص قد ذهب إلى مدينة الرخام فصنع مركباً عظيماً سماه السحاب السيار ورجع به إلى الإسكندرية ، ليدعم به قوة السلاح البحرى لجيش الإسلام ، وكان وصوله إليها وقت وصول الملك وجيشه ، وقدم إليه عرقوص فرحاً وبلغه أنه صنع السحاب السيار ، ليغيظ به الكفار ، ويملأ قلوبهم خوفاً ورهبة ، وكان سرور الملك به عظيماً .

وقطع عليهم هذا السرور أن جاءهم نبأ هروب جوان والبرتقش وفقد أبى بكر البطرنى وأن ملوك القيطلان قادمون إلى الإسكندرية لمحاربة المسلمين ، فبدا على وجه الملك ما يخالج فؤاده من هم وغم ، فقال عرقوص : لا يحزنك قدومهم ، فإنى راكب مع جندك إليهم ، لأجعل البحر قبراً لهم

وأجعل القيطلان ملكاً لك ، يجرى فيها نفوذك وحكمك .

أفسح البحر صدره لمراكب المسلمين ، فأقلعت تجرى كأنها حمائم تحوم على مرج نضير ، ولما بانت لهم وجوه الأعداء جعل عرقوص من الجيش ميمنة وقلباً وميسرة ، وهجم على الأعداء هجمات كاسحة ، وألقم البحر كثيراً منهم ، فضجوا وفزعوا إلى جوان قائلين : أين وعدك الذى وعدتنا ؟! وإن دامت هذه الحال فإن البحر سيبتلعنا ولا يُبقى منا أحداً ، فقال لهم : الحرب سجال، وإذا غُلبتم اليوم ، فغداً ستغلبون ، وقد دبرت لكم حيلة تظهرون بها على أعدائكم ، فقالوا : وما تلك يا عالم الملة ، وكاشف كل مضرة ؟ فقال : لا يعرف فنون الحرب فى البحار من المسلمين إلا عرقوص ، ولكنه لا يبلغ شأو كنيار فيها ، ولا يستطيع الوقوف فى وجهه ، وأرى أن تكتبوا إلى ملك الإسلام أن تعطوه أبا بكر البطرنى ويعطيكم كنيار ، وإذا ما قدم كنيار وقبض على زمام الحرب فقد قضى على المسلمين وصاروا طعاماً لسمك البحر وحيتانه .

أعجب الكفار حيلة جوان ، فكتبوا إلى الملك بها ، وعرض هو كتابهم على عرقوص ليبدى رأيه فيما كتبوا فقال : إن شعرة واحدة من جسم أبى بكر البطرنى بألف رجل من هؤلاء الكفرة ، وإذا كانوا قد عقدوا آمالهم فى النصر على كنيار فإنى سأخيب آمالهم وأمحو رجاءهم ، ففرح الملك وأجابهم إلى ما طلبوا ، وما هى إلا فترة من زمن حتى كان البطرنى فى مجلس الملك ، وكنيار عند إخوته ملوك القيطلان ، ففرحوا بعودته وشكوا له ما حل بهم من هزيمة ، وقالوا : إن عرقوصاً أصل كل بلاء

ورزية . فقال : إننى أستاذه . وما تعلم فنون الحرب إلا منى ، وغداً سأخرج إليه وألقيه فى اليم طعاماً لسمكه .

ولما بان وجه النهار ركب كنيار فلكاً على قده ، وانزلق به على سطح الماء بين الجيشين وصاح قائلا : جئتك يا عرقوص ، فابرز إلىّ ، لأقدمك للحيتان لقمة سائغة ، فما أتم كلامه حتى كان عرقوص على فلكه أمامه ، وقال : هأنذا جئت إليك ، حتى لا أضن بالموت عليك ، وحتى تلقمه بفمك وشفتيك، ثم جعل كل منهما يرمى خصمه بسهام من موت عاجل، أو يغرقه فى لجج البحر الزاخر، وهو فى حذر من أن يكون هدفاً مصاباً. واستمر عرقوص يحاوره ويداوره حتى دنا من فلكه فمد يده وكفأه فابتعلته اللجة . وكان كنيار يلبس ثوباً أسود ، وعرقوص يلبس ثوباً أبيض فهوى عرقوص فى أثره . وبعد برهة ظهر على سطح الماء دم أخذ يكثر قليلا قليلا ، ثم طفا أحدهما فى ثوبه الأسود ، فابتهج الكفار وأسف المسلمون أسفاً أليماً ، ولكنه ما فتئ أن غطس وغاب فى اللجة عن الأنظار ، ثم ظهر هذا ثانية بين مركب المسلمين، وتشبث بمركب وقفز من الماء قفزة قوية كان على أثرها فى المركب ، وتبينه المسلمون فوجدوه عرقوصاً ، ففرحوا وزال أسفهم ، ثم سألوه كيف قتل خصمه ؟ وكيف ظهر فى ثوبه فقال : ألقيت بنفسى فى اللجة على أثره، وأمسكته تحت الماء وقطعت عنقه بأسنانى ، وخشيت أن أظهر بين الكفار فى ثوبى الأبيض فأقتل بنبالهم وقذائفهم ، فنزعت عنه ثوبه الأسود ولبسته ، ولما ظهرت أول مرة وجدتنى عند الكفار فغطست وجعلت أسبح إلى أن كنت

عندكم ثم خرجت من الماء وقفزت فى هذا المركب ، فقالوا : ما أشجعك وما أصبرك ! !

سقط فى أيدى الكفار بعد موت كنيار وخارت عزائمهم ، ولكنهم حاولوا أن يكون الغلب لهم فما استطاعوا وفنى كثير منهم ، فخاف الباقون وولوا الأدبار ، وتبعهم جيش المسلمين حتى دخلوا ميناء القيطلان وخرجوا من المراكب إلى المدينة ، وأوجعوهم ضرباً ، وقتلوا عبد الصليب وكثيراً من رجالهم ، وملكوا المدينة واستولوا عليها ، وجلس الملك على عرشها.

وجاءه غلام فقال : إن أبى وأعمامى قد هلكوا ، وأنا وارث ملكهم من بعدهم وأحب أن أكون ملكاً فى المدينة على أن أكون تابعاً لك ، خاضعاً لأمرك ، مؤدياً ما تفرضه علينا من الجزية كل عام ، وإن جرى على يدى ما يغضبك كان دمى حلا لك ، فقال : قد جعلتك ملكاً فى المدينة ، على أن تكون لنا مطيعاً ، وعلى أن تعطينا الجزية كل عام ، ثم ترك الملك له المدينة ومضى إلى جيشه ، ثم أمره بالرحيل إلى مصر ، فركبوا فلكهم . وقالوا باسم الله مجراها ومرساها ، وانطلقت أشرعتها فامتلأت بالهواء ، وضربت بمجاذيفها وجه الماء . وما لبثت الريح التى كانت رخاء أن اشتدت حتى صارت إعصاراً فتفرقت سفن المسلمين .

ولما هدأت الريح وتفقد المسلمون سفنهم ، لم يجدوا فلك عرقوص .

ووصل الملك إلى مصر حزيناً على فقد عرقوص .

٢

ساق الإعصار فلك عرقوص إلى جزيرة قريبة من رومة، وكان أبوه معروف معه ، فخرج إلى الجزيرة ومشى فيها حتى دخل بستاناً قد جملته أشجاره وزينته أزهاره ، ورأى قصراً منيفاً يشع جمالا وبهجة ، فجلس بجانبه ، ليستريح من تعبه ، وكان هذا القصر لابنة ملك رومة ، واسمها شموس ، وأطلت من نافذة قصرها كعادتها فألفته جالساً ومخايل البطولة والمجد بادية فى وجهه ، فقالت فى نفسها : وماذا عليك لو نزلت إلى هذا الغريب الذى ينم شكله عن كرم وسيادة وشرف وإمارة ، فربما كان فى حاجة إلى طعام أو شراب . فنزلت إليه ووقفت أمامه وقالت : من أنت أيها الغريب الكريم ؟ فنظر إليها فملأت بجمالها وعذب حديثها قلبه وسمعه وبصره وقال : إنى حوارى سائح واسمى عزم المسيح القاطع ، فقالت : مرحباً بعزم المسيح القاطع ، وأرجو أن تأتى معى فى قصرى لتباركه ، وتبارك من أنست بك ، وسعدت برؤيتك ، فاستجاب لها ودخل القصر معها ، وجلست إليه فى غرفة فخمة الأثاث وأحضرت له طعاماً وشراباً فأكل وشرب وشكر لها كرمها وعطفها وشرف مسعاها وجميل ضيافتها ، فزادها حديثه هذا محبة فى قلبها ، فقالت له : إن فى حديثك طلاوة وحلاوة ، وإنى لألمح فيه أنك على دين

قويم غير ما عرفتني من أنك عزم المسيح، فجعل يحدثها فى البر والكرم والأمانة والوفاء ، وأن الدنيا زائلة والآخرة خير وأبقى، فقالت: بربك الذى تعبده إلا عرفتنى دينك، فقال : إن الدين عند الله الإسلام، وإنى مسلم أعبد الله ولا أشرك به شيئاً، فقالت: ليتنى كنت مسلمة فأنال ما أبتغيه ، فقال : وماذا تبغين من إسلامك ؟ فقالت : ما تبغيه كل مسلمة ، وإن المسلم ليجرى فى دمه جميل العشرة ، والإحسان إلى العشير ، وبودى لو أسلمت وقرنت حياتى بشهم كريم ماجد مثلك ، فقال : وماذا عليك لو أسلمت وتزوجتك ؟ فقالت : علمنى كيف أسلم ، فعلمها كيف تنطق بالشهادتين ، فنطقت بهما وتزوجها عرقوص وأقام معها فى قصرها ، وطالت غيبته على أبيه الذى ينتظره . فخرج من الفلك يبحث عنه وقاده قلب الأب إلى ذلك القصر ، فوقف حائراً يرسل النظر إليه ويرجعه ، ورأته جارية على هذه الحال ، فظنت أنه غريب ضال ، أو باحث عن الفتى الذى دخل القصر ولم يخرج ، وأخبرت سيدتها شموس، فنبض قلب عرقوص ونهض فى وسط الغرفة واقفاً ونظر إليه فقال: إنه أبى ، فأمرت شموس جاريتها أن تأتيها به ، فنزلت إليه وقالت : تفضل يا سيدى ، فإن الذى تبحث عنه مع سيدتى فى غرفتها ، وهو عندها أعز إنسان .

دخل معروف على ابنه وزوجته ، واستقبلاه استقبال حفاوة واحترام ومحبة ، ثم جلسوا، وعرفه ابنه بما حصل ، ثم قال عرقوص : ارجع أنت

بالفلك إلى مدينة الرخام ، وكن نائباً عنى فى الحكم حتى يقضى ربى بما يشاء .

فرجع أبوه إلى فلكه ، ولكن القلق على ابنه يساوره ، فلم يبرح مكانه إلا بعد يومين ، ثم سافر إلى مدينة الرخام .

وذات يوم جاء ملك رومة ليزور ابنته شموس فى قصرها ، فوجد عرقوصاً معها ، فنظر إليها نظرة ساخرة وقال : من هذا يا شموس ؟ فأجابه عرقوص : أنا يا سيدى . حوارى يمشى فى مناكب الأرض واسمى عزم المسيح القاطع ، فقال أبوها : مرحباً بك ، باركت القصر وصاحبته ، فتعال معى إلى ديوانى لتباركه ، فصحبه عرقوص وقضى معه فى ديوانه ذلك اليوم ثم رجع إلى زوجته .

جعل عرقوص يقضى نهاره فى ديوان الملك وليله فى قصر ابنته ، وهو فى سرور عظيم به ، وذات يوم قدم جوان ورأى عرقوصاً فى ديوانه فسأل الملك عنه فقال : هذا عزم المسيح القاطع ، فابتسم جوان ابتسامة ساخرة وقال : هذا عرقوص بن معروف ، ثم حدثه كثيراً عن تاريخه ، ففزع الملك وساوره القلق على ابنته ، فقال جوان : ولكى يبين لك صدق فراستى اقبض عليه الآن ، فأمر الملك بالقبض عليه ، ثم كتفه وقال له جوان : كيف أنت الآن يا عرقوص ؟ أظننت أن المسيح نائم عنك ؟ لقد بعثنى من خلفك ، لأكشف للناس عن خداعك وكذبك ، وكيف تجسر على ابنة الملك وتقيم معها فى قصرها ؟ ! ما جزاء من فعل فعلتك

إلا أن يقتل ، فسكت عرقوص مطرقاً ولم يجبه بكلمة ، وأمر الملك بقتله ، فقال البرتقش : عجباً لكم أيها الملوك ! إذ حال السلطان بينكم وبين البصر بالعواقب ! فقال الملك : وكيف ذلك يا برتقش ؟ وهل هناك خطيئة أكبر من خطيئة هذا الخادع الأثيم الكذاب ؟ ! فقال البرتقش : وإن أنت قتلته فقد ارتكبت خطيئة أعظم وأكبر ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إن وراء هذا ملك المسلمين وجنوده ، وإن قتلته فقد خربت ديارك ، وضيعت ملك آبائك وأجدادك ، فقال الملك : وماذا ترى ؟ فقال : ضعه فى السجن حتى تهتدى إلى رأى صائب فيه ، فأمر الملك بإلقائه فى السجن .

وكان على مقربة من رومة دير السراديب ، يقيم فيه موسى بن حسن القصاص تلميذ إبراهيم ، وكان محبباً إلى النصارى ومشهوراً بينهم ، ويعرفون أنه البطريق الكبير ، كما كان معروفاً عند المسلمين بأنه فداوى شريف ، فجاءه جمال الدين شيحة ، ولما سلم عليه وأجلسه وحياه قال له : يا جمال الدين ، عرقوص محبوس فى سجن رومة ، فقال جمال الدين : لقد جئتك من أجل هذا راجياً منك المعونة ، فقال موسى : لا أبخل عليك بنفسى وما أملك ، فماذا تريده منى ؟ فقال : اكتب إلى رومان ملك رومة وقل له : سيكون عندى فى الكنيسة ليلة الأحد القادم حوارى لبيان شريعة المسيح ، فعليك أن تحضر أنت ووزراؤك لتعرف منه حكمة المسيح وأسرار شريعته ، فإذا حضروا فاترك الأمر لى . فكتب موسى إلى

رومان ما أشار به جمال الدين .

ولما علم جوان بهذا الكتاب قال : للملك : أحب أن أكون معكم ، فمال البرتقش على أذن جوان وألقى فيها : لا تلتق بهذا الحوارى ، لأنه من عند المسيح والمسيح يعلم أنك كذاب ، فقال جوان : أخشى أن يكون هذا الحوارى جمال الدين ، وقد جاء من أجل عرقوص والكيد لنا ، فقال البرتقش : إن كان كما تقول فما أنت راجع إلا بخيبة أمل فادحة ، فقال جوان : ليكن ما يكون ولا بد من الذهاب إليه .

وفى الوقت المعلوم ذهب إلى الكنيسة رومان ووزراؤه وأمراؤه وجوان والبرتقش ، ونظمهم المجلس وارتقبوا ما يقوله ذلك الحوارى القادم على موسى ، وبعد سكتة طويلة بدأ موسى الحديث بتلاوة شىء من الإنجيل ، فاعترضه جوان قائلا : أسمعنا يا حوارى صوتك ، واطرد هذا العى الذى عقد لسانك ، ولا تشمت بنا حسادك ، فسُمع صوت يدوى فى أرجاء الدير ويقول : اسكت ، ففزعوا وارتخت أطرافهم وشخصت أبصارهم ، فرأوا ناراً وشرراً يتطاير فوق سور الدير ، ثم سمعوا منادياً ينادى : يا موسى أقبل إلينا ، فنهض من فوره إلى ناحية الصوت وقال : هأنذا جئت إليك أيها الحوارى ، فقال : لماذا سكت عن تلاوة الإنجيل ؟ ما جزاؤك إلا التأديب والضرب ، وإذا بمقرعة تهوى عليه ضرباً ، ثم قال له : ارجع كما كنت فرجع إلى المجلس واستقر فى مكانه ، فسمعه المجلس يقول : يا موسى ، أرسل رومان ملك رومة ، فنهض الملك إليه قائلا : سمعاً وطاعة يا حوارى المسيح ،

فقال : لأى شيء تقعد عن الجهاد ومحاربة المسلمين ، فصاح جوان قائلا : كثيراً ما حفزته إلى قتالهم ، ولكنه يخلد إلى التهاون ، فرأوا شبحاً يطوف بهم ويرسل شرراً من فمه ، ثم قال الحوارى : من المتكلم ؟ فقال البرتقش : جوان ، فقال : ومن جوان هذا ؟ فقال : عالم الملة الرومية ، فقال الحوارى : يا رومان ، أنت أكبر ملوك الملة الرومية، وإن المسيح يبلغك أن عرقوصاً ترك الإسلام ورجع إلى الملة الرومية فأحضره حتى أسمعه نصحى وأبلغه رسالة المسيح ، فقال : أمهلنى حتى أحضره ، فقال : أسرع وأحضره ، فعاد رومان إلى المجلس وأمر موسى أن يحضر عرقوصاً ، فأرسل أتباعه وأحضروه من سجنه مكتفاً ، فلما حضر سمعوا الحوارى يقول : فكوا قيوده ففعلوا ثم قال : يا عرقوص ، أنت على دين المسيح السليم فلماذا قعدت عن الجهاد فى سبيله ؟ فقال : لأن ملوك الروم أغفلوا شأنى ولم يساعدونى ، واتبعوا كذب جوان وخبثه ولؤمه، فقال الحوارى للملك رومة : جهز فى الحال ألفين من جنودك وأمّر عليهم عرقوصاً ، وأرسله بهم ومعه ابناك فرتين ومرتين إلى بلاد المسلمين ، واطرد الآن جوان وإلا أحرقتكم وجعلتكم رماداً ، ثم نفخ نفخة أرسل فيها لهيباً أفزع الحاضرين ، فانكبوا على جوان وطردوه من الدير هو والبرتقش، فاستقبله أربعة من أعوان موسى وفيهم محمد السابق فكتفوه ورموه فى غار .

تسابق الكفار إلى أن يكونوا مع عرقوص فى جنده، ولكن رومان قال :

سيكون الجيش كما قال الحوارى ، ولن أخالف له أمراً .

كان هذا الحوارى جمال الدين شيحة ، فتركهم ومضى إلى معروف فى مدينة الرخام وقال له انتظر قدوم ابنك . وحكى له ما فعله .

وبعد أيام قليلة كان عرقوص وجيشه أمام مدينة الرخام ، فخرج إليه أبوه معروف وسلم عليه ، ثم نادى عرقوص فى الجيش قائلا : ما كنت نصرانيًّا ، ولكنها حيلة عملت لأخرج من سجن ملككم الظالم ، وما أنا إلا مسلم ، وأدعوكم الآن إلى الإسلام لتحقنوا دماءكم،فاغتاظ فرتين ومرتين وحضًّا الجيش على القتال،فهبوا فى وجه عرقوص،وأسرع معروف وجنده فأطفأوا ثورتهم بسيوفهم وقتلوا كثيراً منهم وقبضوا على فرتين ومرتين ،وقال:أنتما رهينة عندى حتى يبعث أبوكما بشموس زوجتى ،ورجع المهزومون إلى رومان وأخبروه بما وقع ،فهاج الناس ، وغشيتهم سحابة من حزن أليم .

أما جوان فإن شيحة دخل عليه فى الغار ، وضربه مائة سوط وأطلقه ، ففر إلى رومة ووجد الملك وحاشيته فى غم وألم ، لما فعله عرقوص بهم ، فقال له : ألم أقل لك إن هذا الحوارى شيحة ؟ ولكن اصبر قليلا فسأنتقم لك وأخلص ابنيك ، فقال : افعل ما شئت يا جوان .

٣

كان الملك الظاهر قد سافر بجيشه إلى الشام ليجدد القصر الأبلق ويقيم فيه مدة، ولما أصلحه واطمأن به المقام سمع رجلا تحت نافذته يقول : مظلوم يا ملك الإسلام . . . فدعاه الملك وسأله عن ظلامته فقال : أنا حسن السكرى من الشام ، وأشتغل بالتجارة متنقلا ببضاعتى بين مصر والشام ، ولى شريك اسمه شمس الدين السحرتى ، وفى هذه الأيام سافرت ببضاعتى من الشام ، ومعى ابن لى يبلغ من العمر عشر سنين . ولما كنت أمام قلعة صيدة خرج إلى يعقوب الصيداوى وطلب منى أجرة حراسته الطريق ، فقلت : هذا مال السلطان ، ولا أجرة لحراسته ، فأخذ منى البضاعة غصباً ، فبكى ابنى وقال له : حرام عليك أن تنهب مال أبى ظلماً ، فأمسكه وذبحه ، فقلت أفى عهد الملك الظاهر تنهب الأموال وتذبح الأبناء ؟ ! فقال : لو كان معك من ينقل خبرك إلى الملك الظاهر لذبحتك أيضاً ، فارجع إليه وبلغه ما فعلته ، وليأتنى بجنده ، وليركب ما شاء من خيله . وهذه ظلامتى .

فعل يعقوب الصيداوى ما فعله وهو سكران ، فلما أفاق من سكره أخبره رجاله بما وقع منه ، فقال : كان عليكم أن تقتلوا التاجر حتى لا يخبر الملك الظاهر ويعاقبنى ، فقالوا: أنت الذى أمرت بإخلاء سبيله،

وما ينبغى لنا أن نخالف أمرك ، فقال : علينا أن نستعد لقدومه ، وأنتم أربعمائة رجل ، فخذوا مكانكم فوق هذين الجبلين ، وليكن مائتان منكم هنا ، ومائتان هناك . وسألقاه فى الوادى ، فإن وجدتمونى غلبته فلا تتحركوا من مكانكم ، وإن غلبنى فارموه بنبالكم وادفعوه عنى .

ركب الظاهر جواده وخرج إلى قلعة صيدة وحده فلما أشرف عليها لقيه يعقوب على جواده ، ووقع بينهما نضال عنيف خشى يعقوب الصيداوى عاقبته ففر من وجه الملك هاربًا ، ولكن الملك ما لبث أن رأى الجبلين يمطرانه نبالا فجلس ورفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم اكشف عنى ضر المعتدين . فما أتم دعاءه حتى رأى فارسًا مقبلا على جواد كأنه الريح ،وهجم على جبل من الجبلين فأفنى رجاله ،ورأى رجال الجبل الثانى ما حل بزملائهم ففروا هاربين ، ثم نزل الفارس إلى الملك فداوى جروحه وجروح جواده وعاد إلى حالته، كأن لم يصبه ضر أو أذى ، فقال له الملك: لقد قدمت لك عندى معروفًا لن أنساه ، فقال الفارس : ومن أنت ؟ فقال : الفقير إلى الله الملك الظاهر ، فصرخ الفارس فى وجهه صرخة عالية وقال : لو علمت أنك الملك الظاهر لمزقتك إربًا ، ولا ينبغى لى أن أسترد معروفًا قدمته ، وأتبع الحسنة السيئة ، ولكنى سأتركك إلى فرصة أخرى ، فقال الملك ، ولم ذلك أيها الفارس الكريم ؟ فقال : لأنك منحت شيحة ملك القلاع وحرمتنى ، فقال الملك : إن أنت ملكتنى هذه القلعة وقطعت رأس صاحبها منحتك السلطة ، فضحك الفارس



الملك الظاهر يدعو ربه

وقال : ارجع إلى قصرك ، وقد كفلت لك فتح هذه القلعة .

رجع الملك إلى قصر الأبلق، وحكى لرجاله ما حصل له،وجعل يثنى على الفارس ويحمد له صنيعه ومعروفه، فقال إبراهيم : إذا مدحت فلا تسرف فى المدح حتى تتبين فقال: وهل تعرفه ؟ فقال : إنه نصير التمر ، ولنا معه إهانة سابقة كان فيها من الأذلين . فقال: لقد وعدنى أن يفتح قلعة صيدة ويقتل صاحبها ، فقال : لا تثق به فى وعد، فإنه يكره الإسلام والمسلمين ،وقم الآن معتمداً على ربك ، وافتحها برجالك ، فسار الملك فى جيشه حتى كان أمامها، ووجدها مغلقة ولا سبيل لهم فى دخولها، فحاصروها ثلاثين يوماً ولم يفتح لها باب ، فقال الملك : قم يا إبراهيم وابحث لك فى حيلة ندخل بها القلعة ، فأخذ إبراهيم سعداً وجعلا يطوفان بها باحثين عن منفذ أو سبيل يعبرانه إلى داخلها . فما اهتديا إلى سبيل، وكادا يرجعان يائسين منها ، ولكنهما لمحا غبرة قادمة ، فانتحيا ناحية حتى تنكشف لهما تلك الغبرة عن رجالها .

كانت هذه الغبرة لجيش من قلعة الشقيق وعلى رأسه ابنا أخت يعقوب الصيداوى ، وقد جاء لنجدته ، فانتظر إبراهيم وسعد حتى فتحت أبوابها، ليتسللا إلى هذا الجيش ودخلا القلعة معه كأنهما من رجاله ، واندمجا فى كبار الجيش وجلسا معهم ، وبان لهم أنهما غريبان فجعلوا يتساءلون ليعرفوا إلى أية فرقة وإلى أى قائد ينتميان ولما أيقنوا أنهما لا من هؤلاء ولا من هؤلاء أمر يعقوب بالقبض عليهما، فجردا سلاحيهما وهماً

أن يقاتلاهم ، وكان هياج ومرج استطاع سعد خلالهما أن يفلت فوثب من فوق السور ورجع إلى الملك الظاهر ، أما إبراهيم فإنه ثبت حتى كثروا من حوله وقبضوا عليه وألقوه فى السجن . وبينما سعد يحكى للملك ما حصل له ولإبراهيم جاءهم إبراهيم . ولما انتهى سعد من حديثه سألوا إبراهيم كيف خلص منهم بعد أن قبضوا عليه فقال : رمونى فى السجن ، وكان السجان جمال الدين شيحة فأطلقنى وجئت إليكم ، ففرح الملك بوجود شيحة فى القلعة وارتقب كل خير على يديه .

وفى الصباح طلب يعقوب إبراهيم فلم يجدوه فى السجن ، فسأل عنه السجان فقال: ما رأيته ولا علمت به، فقطع عنقه، ثم فتح أبواب القلعة وخرج بالجيش لقتال الملك الظاهر ، وبعد قليل بدأت المبارزة بين الفرسان ، وكان الظافر فرسان المسلمين ، وفى اليوم الثانى أقبل نصير النمر وبرز إلى فرسان المسلمين وجعل يأسر كل من برز إليه منهم ، وبلغ عدد من أسره من أمراء المسلمين عشرين أميراً فى يومين ، وفى كل يوم يأتى برءوس من لخذه منهم على رماح ويضعها أمام خيمة الملك ، فضاق صدره وقال : يا إبراهيم ماذا نفعل ؟ فقال : لا يصلح أمرنا إلا إذا حضر شيحة ، وإذا بالأمراء الذين أسرهم نصير النمر ، وقطع رءوسهم قد أقبلوا على جيادهم ومعهم شيحة. فاندهش الملك وأصحابه ونهضوا إلى شيحة يستقبلونه ، فقال شيحة : اذهب يا إبراهيم إلى دير صيلة وائتنا منه بنصير النمر ، وقال الملك لشيحة : لمن هذه الرءوس التى فوق هذه الرماح ؟ فقال : هذه رءوس

الأمراء الذين أسرهم نصير النمر ، وقد صنعت لهم رءوساً غيرها وجئت بهم إليك . ثم ضحك فقال الملك : أظنك تخفى شيئاً عنى وتريد أن تحكيه . فقال : كان نصير النمر قد أغار على دير وقتل من فيه إلا بطريقاً . فسكن فيه واتخذ هذا البطريق خادماً له ، ووصاه أن يفعل خلاف ما يأمره به ،فإذا قال له: افتح الباب أغلقه.وإن طلب منه ماء جاءه بطعام وهكذا ، فجاءه بهؤلاء الأمراء الأسرى وقال له : اقطع رءوسهم واجعلها على رماح ، فأخذهم البطريق وأخفاهم فى مكان عنده وجاءه من ميدان القتال برجال غيرهم يشبهونهم وقطع رءوسهم وجعلها على رماح . وبعد ذلك دخل عليه فى نومه وبنجه وكتفه ، ثم تركه فى الدير وأحضر الأمراء من مكانهم وجاءهم بخيل ركبوها وقدم بهم إليك ، وكان هذا البطريق جمال الدين شيحة .

فضحك الملك وقال : لازلت للمسلمين خير معين ونصير ، ثم مضى إبراهيم وسعد إلى الدير فوجدا نصيراً منكبا على وجهه فحملاه وأتيا به ، فأيقظه جمال الدين ، ففتح عينيه على الملك الظاهر ، فصرخ صرخة عالية، ثم التفت إلى جمال الدين وقال له: ما فعل بى هذا إلا أنت أيها القصير ، وماذا عزمت عليه فى أمرى ؟ فقال شيحة: سوف ترى بعد أن أفرغ من عملى وأفتح القلعة ، فأمر الملك بحبسه ر فظة عليه حتى يفتح القلعة .

دخل شيحة القلعة فى صورة رئيس الحرس، فمر على الحراس فى أماكنهم

على سور القلعة وبنجهم ثم ذهب إلى يعقوب وطمأنه على سور القلعة ، وأن الحرس فى يقظة واستعداد ثم تركه بعد أن بنجه ، ثم ذهب إلى أبوابها وفتحها وكان ذلك بالليل والناس هاجعون فى فراشهم ، ثم انطلق إلى الملك الظاهر وأمره بدخول القلعة فوراً، فأسرع بجيشه ودخلوها ، وذبحوا الحرس جميعهم ومضى إلى قصر يعقوب فدخله فوجدوه مغشياً عليه فكتفوه ووضعوه بين يدى الملك الظاهر ، وجلس الظاهر على عرش القلعة وأحضر الرجل التاجر ، فقال له : أهذا الذى نهب مالك وذبح ابنك ؟ فقال : نعم ، فأمر بقطع رأسه فقطعوه ،وأعطى الملك التاجر أضعاف بضاعته التى نهبت إلى أهله ، ثم طلب نصيراً فلم يجدوه فى معتقاه . كان قد هرب الطود وفرقد ابنا أخت يعقوب الصيداوى حين فتحت القلعة ، فاختلطا بجيش الملك الظاهر ، ورأيا نصيراً محبوساً مكتفاً ، فاحتالا وأطلقاه ومضيا به إلى عبد الصليب فى قلعته، وكان نصير فى أشد الغضب مما حل به ، وأصر على أن يقتل الملك الظاهر وشيحة وإن تعلقا بالسحاب ، ولما اجتمعوا بخالهم حكوا له ما فعله المسلمون بيعقوب الصيداوى فحزن حزناً أليماً، وجاءهم إذذاك جوان وجلس إليهم وأوقد فى صدورهم نار الغضب على المسلمين ووعدهم أن يساعدهم بحيلة فى فنائهم .

عرف الملك الظاهر من جواسيسه أن الطود والفرقد ابنى أخت يعقوب الصيداوى سرقا نصيراً وهربا إلى عبد الصليب صاحب قلعة الشقيق فأمر بالمسير إليها وفتحها والقبض على نصير وصاحبيه، فصدع الجيش بأمره ،

وبعد قليل كانوا فى معسكرهم أمام القلعة .

بعث الملك إبراهيم بكتاب منه إلى عبد الصليب ، فلما كان بين يديه وهم أن يناوله الكتاب ، نهض نصير قائمًا وصفع إبراهيم على وجهه وقال : ما نحن بقارئين لكم كتبًا ، ولكننا سنسفك دماءكم بسيوفنا ، ثم أمر أن يلقى فى السجن ليكون باكورة لمن سيأخذه فى الميدان من أمراء المسلمين . فجذبه الحرس ورموه فى السجن .

وفى الصباح برز نصير إلى الميدان فى قوة وثقة من نفسه ، وغضب يضطرم فى صدره ، فجعل يأسر كل من برز إليه من فرسان المسلمين حتى بلغ عددهم عشرين فارسًا فى ثلاثة أيام ، فقال جوان لعبد الصليب : إن نصيراً يأسر الأمراء والفرسان من المسلمين ويلقيهم فى السجن ، وقد أصر على إرجاء قتلهم حتى يأسر ملكهم ، وهذا خطأ وخيم العاقبة ، وأرى أن تقبض على نصير هذا وتحبسه حتى تقتل هؤلاء الأسرى ، فأحضره عبد الصليب وجعل يثنى عليه ويلهج بشجاعته وقوته ، ثم ناوله كأسا من خمر ممزوجة بالبنج فشربها نصير وهو فرح بمدحه ونصره ، فسقط مغشيًّا عليه ، وأمر عبد الصليب رجاله فكتفوه وألقوه فى غيابة السجن .

وفى الصباح نزل الفرقد إلى الميدان وجاءه شاهين فضيق عليه وأسره ، فنزل الطود فألحقه شاهين بأخيه ، فاغتم عبد الصليب ودق طبول الهدنة بقية هذا اليوم وقال لجوان : قد أشرت علىّ بالقبض على نصير فساءت

حالنا وأسر المسلمون أمراءنا بعد أن كنا ظاهرين عليهم بسيف نصير النمر ، فقال : ما أشرت عليك إلا بما أمر به المسيح ولعل له فى ذلك سراً وحكمة ، فأحضر الأسرى واحداً واحداً واقتلهم وابدأ بإبراهيم ، فأمر السياف أن يأتيه بإبراهيم ويضرب عنقه وحضر السياف ومعه إبراهيم فلما رآه جوان قام فزعاً وقال : هذا شيحة وما هو بسيافك فاقبض عليه قبل أن يقتلنا ، ثم عجل بقتله مع إبراهيم ، فأمر بالقبض عليه فوراً ، وقال البرتقش : ألم تتعظ بما أشار عليك جوان به من القبض على نصير النمر وبما وجدت من آثاره السيئة ؟ ! أتريد أن تقتل أمراء المسلمين ليقتل الملك الظاهر الفرقد والطود ؟ ! أما علمت ما فعله بالملوك من قبلك ؟ ! حافظ على أمراء المسلمين فى سجنك حتى يتبين الأمر وتبصر العاقبة ، فقال عبد الصليب : إنك عاقل حازم وأمر أن يلقى إبراهيم وشيحة فى السجن مع بقية الأمراء والفرسان .

وأقبل ساعتئذ جماعة من غلمان مرد يقدمهم غلام قوى البنية ، اسمه نوير ، فسلم على عبد الصليب وسأله عن غيوم الفتنة التى تظلل القلعة ، فحكى له ما حصل وما أشار به جوان من حبس نصير النمر بعد بلائه الحسن فى القتال ، وانكفاء الإناء بعد حبسه ، فقال الغلام : ما أشأم طلعة جوان! وما أفسد رأيه! وهل رأينا منه إلا هلاك الأنفس وخراب الديار ؟ غداً أحارب أعداءكم ، وأرد إليكم الطود والفرقد رغم أنوفهم .

اقشعر بدن جوان حين رأى هذا الغلام ، فقال لتابعه البرتقش :

ما أخوفنى من هذا الغلام ! وما أحسبه إلا شيحة، فقال : وإن صدق ظنى فهو ابنه، فقال:وما الرأى ؟ فقال: الرأى أن تهرب ، فقال : لن تطاوعنى نفسى أن أترك القلعة قبل أن ينعق فيها غراب الخراب .

وفى الصباح كان الغلام فى ساحة القتال ينادى من يبارزه ، فتسابق الفرسان إليه . ولكن قدرته كانت فوق قدرتهم ، فكلما برز إليه فارس جرحه ورده إلى قومه ، وعف عن القتل أو الأسر ، إلى أن جاءه سعد فأرهقه الغلام وأعسره ، ولما أحس عجزه قال لسعد: إنك تبارزنى وجماعة من قومك يساعدونك من خلفك ، فالتفت سعد إلى الوراء ، وفى أثناء ذلك فر الغلام إلى القلعة هاربًا ، فرماه سعد بحجر فشج رأسه، واستمر الغلام يمضى قدمًا حتى دخل على أمه ، وطلب إليها أن تضمد جرحه ، وحكى لها ما فعله سعد به، فضمدت جرحه وقالت : لا أخاف عليك إلا من رجل قصير فى العرب اسمه شيحة ، وإن أتيتنى به أكلت من لحمه وشربت من دمه ، فقال : إن شيحة فى السجن ومن اليسير على أن أحضره، ولكن أى شىء بينك وبينه حتى كرهته ؟ فقالت:جرحنى جرحًا لم يبرأ ، فقال : سآتيك به لتثأرى لنفسك منه ، ثم أحضره مكتوف اليدين فقالت أمه : يا نوبر ، كيف جئتنى بأبيك مكتوف اليدين ؟ ! فقال : إنه شيحة الذى جرحك ، فقالت : إنه أبوك وأنت ابنه وأنا أمك وزوجته، فقال : إن أبى رباح بن مكافح ، فقالت : إن رباحًا هذا جدك لأمك ، وأما أبوك فهو شيحة، وقد أخفيت ذلك حتى أحافظ عليك من

الروم وكيدهم ، فقم إليه وفك قيوده ، وقبل يديه واتبع دينه ، فنهض نوير وفعل ما أمرته به أمه ، وضمه شيحة إلى صدره وعلمه الإسلام ، ثم جلسوا فى متعة من هذا اللقاء الجميل ، وقال نوير : سأحارب فى صفوف العرب وأملكهم هذه القلعة ، فقال أبوه : إذا جاء الليل فأطلق سراح المسجونين منهم ، وائتنى بنصير النمر مكتوف اليدين ، ففعل نوير ما أمره به أبوه ، وانطلق جميعهم فى ظلام الليل إلى جيش العرب . وفى الصباح وصل إلى عبد الصليب نبأ هروب الأسرى ونصير ، فقال لجوان : كيف رأيت عاقبة مشورتك ؟ وماذا أفعل الآن وقد هرب الأسرى وحرمنا من معونة نصير النمر ؟ فقال : إن ملك العرب لا حول له ولا قوة ، فاركب جوادك ، وابرز إلى ساحة الوغى وقل لهم : لا ينبغى أن نكون سببًا فى سفك دماء الأبرياء من الفرسان ، وليبرز إلى ملككم فإن غلبنى كنت فى طاعته وكانت القلعة له ، وإن غلبته دخلتم فى طاعتى ، وبذلك ينتهى ما بيننا من خصومة وعراك ، وقال جوان: واعلم أنك ظاهر عليه لأنه ضعيف عاجز .

نزل عبد الصليب إلى الميدان ، وقال ما علمه إياه جوان، فتقدم غلام أمرد إلى الملك الظاهر وقال : ائذن لى يا مولاى أن أبارز هذا اللعين لأقتله ، وأثأر لأبى الذى قتله ، وأنا نور الدين بن فلك ، ولن أسكت عنه حتى أقتله كما قتل أبى ، فقال له : دونك وما تريد ، فانفلت إليه فرحًا ، وهجم عليه هجوم الليث فأطاح رأسه ورجع يتيه فخراً ، ولكن

جوان حض الروم على القتال فاندفعوا إلى الميدان يحاربون ، وقابلهم العرب فردوهم خائبين . وجلس الملك على عرش القلعة ، ثم ولى عليها نور الدين ، وأمر بالرحيل إلى مصر ، وكان قد هرب الفرقد والطود لأن كلاً منهما فك قيود أخيه بأسنانه . أما نصير فكان فى حراسة إبراهيم وسعد .

رشا نصير إبراهيم فأعطاه صكًّا يلزمه أن يدفع لإبراهيم ستة آلاف دينار ليمكنه من الهرب . وأخذ إبراهيم الصك وأطلقه ، ثم دخلا على الملك وأخبره أن نصيراً هرب واعتذر بأن تعب السفر أغرقهما فى نوم ثقيل طويل فتمكن نصير من الهرب فى تلك الفترة ، فصبر الملك على مضض ، أما شيحة فإنه أصر على أن يقبض عليه .

أخذ شيحة يجوس خلال الأسواق والطرق فى مصر وكان فى شكل درويش من الدراويش فوجد دكانًا فى أول حارة الروم فارغًا من البضاعة ، وقد جلس فيه اثنان على هيئة التجار فسلم عليهما واستجداهما فأعطياه نصفين من الفضة، فأخذهما شاكراً، ولكن أحدهما سقط منه على الأرض فتركه ومشى دون أن يعبأ به، فقال الفرقد: يا درويش، وقع منك نصف فخذه. فرجع إليهما وقال: لا أنحنى لأخذ شىء يسير سقط منى ، لأننى أعرف صناعة الكيمياء، وأحول المعادن إلى ذهب خالص، وعندى مال كثير، وقد صرفت عنى الناس والحكام بالتنكر فى هيئة درويش يستجدى فخدعهما قوله هذا، وقال الطود: ألا تحب أن تحسن إلينا وتأخذنا عندك لنكون من

خدمك واحتسب أجرك عند ربك ؟فقال : ذلك لا يكون إلا خفية وفى مكان منعزل لا تحيط به شبهة ،فقال الفرقد: عندنا ذلك المكان المنعزل ،ولا يجيئنا فيه إلا صاحب نثق به ،على أن مجيئه إلينا قليل ،فسر بنا إليه واتخذنا من دراويشك ومن أطوع خدمك وعلمنا صناعة الكيمياء ، فقال : الإحسان جميل أينما كان ، ولا يضن به إلا لئام الناس . فهيا بنا إلى مكانكما .

وسار ثلاثتهم إلى بيت الفرقد والطود ودخلوه وأغلقوا بابه، وبعد أن جلسوا ووضعوا الموقد بينهم وأشعلوا النار فوقه طرق باب الدار ، فأدرك شيحة أن الطارق صاحبهم وأنه نصير النمر ، وفتح الطود الباب وأخبره أمر الدرويش ، فلما دخل عليه نصير عرفه فقال : إلى يا قصير ، وفزع إلى عصا فى يده يريد أن يهشم بها رأسه ولكن شيحة أسرع وقفز إلى الحارة من نافذة الحجرة وجرى ، فأسرع نصير وقفز من تلك النافذة وجرى خلفه ، فدخل شيحة ربعًا فى السكرية وصعد فيه حتى دخل على امرأة فى حجرتها تغسل ثيابها ، وكان يبدو عليه الرعب والفزع فسألته عما أفزعه فحكى لها قصة نصير . فأطلت من النافذة وألقت عليه الماء ، فشتمها ، فشتمته بأقذع مما قاله لها ؛ وانتظر بالباب إلى أن يخرج ويمسكه ، وقال شيحة لتلك المرأة : ساعديني وخذى هذا الكتاب إلى الملك الظاهر ، فقالت : سيصله فوراً .

لبست المرأة ثيابها وأخذت منه الكتاب وخرجت ، فظنها نصير شيحة ، وأراد أن يمسكها ولكنه عرف أنها امرأة فتركها ، ومضت إلى

الملك وناولته الكتاب . فلما قرأه عرف أنه محبوس فى بيت المرأة فى السكرية وأن نصيراً وقف ببابه ينتظر خروجه ، وأنه يطلب منه الرجال لإنقاذه ، فأمر إبراهيم أن يأخذ رجاله ويذهب إلى ذلك البيت ليخلص شيحة ويقبض على نصير .

ولما رأى نصير إبراهيم ورجاله مقبلين فر هارباً ، فلم يتبعه أحد منهم وقدموا إلى البيت وخلصوا شيحة ، فخرج وسار معهم إلى الملك ، وقص عليه إبراهيم ما حصل ، فقال الملك : لقد تهاونت يا إبراهيم فى القبض على نصير ، وأحب ألا تريني وجهك إلا إذا قبضت عليه وأحضرته ، فأخذ إبراهيم سعداً وخرجا يبحثان فى المدينة ليمسكاه .

أما نصير فإنه استمر فى هربه حتى وجد بالغورية فرساً مسرجة فامتطاها ووخزها وانطلقت كأنها الريح إلى منزل صاحبها ، وكان شيخاً من شيوخ القليوبية معروفاً بالكرم وسماحة الخلق ، فقيل له : إن رجلا امتطى الفرس وجرى بها ، فقال : لا بأس فى ذلك ، فستذهب به إلى منزلى ضيفاً له علينا كرم المثوى ، وبعد أن فرغ من أعماله رجع إلى منزله فوجد نصيراً فيه فسلم عليه وحياه وأكرمه ، وكان نصير قد حاول أن يصرف الفرس عن طريق منزل الشيخ فلم يستطع .

وفى تلك الليلة قدم إبراهيم وسعد إلى منزل هذا الشيخ وكانا متنكرين فى صفة غريبين ، فأنزلهما مع نصير فى بيت الضيافة ، وكان قد عرفاه وهو لم يعرفهما ، فقال إبراهيم لسعد : انتظر حتى ينام ، ثم نهجم عليه

وتمسكه ونخبر الشيخ أنه طلبة الملك ، ثم جلس جميعهم يتحدثون ، فقال نصير للشيخ : أما عندك رجل يسلينا بطرف من حكاياته ؟ فقال الشيخ : قدم علينا الآن رجل شاعر وسأحضره إليكم ، ثم قام وأحضره ، وقال : هؤلاء ضيوف ويحبون أن تسامرهم وتسليهم بشعرك ، فقال : إنى جوعان، فأمر الشيخ الخدم أن يحضروا له لبناً يطفىء به لهب الجوع حتى ينضجوا له الطعام ، ولما حضر اللبن ووضعه الخدم بين يديه وهو جالس معهم قال نصير : إذا رأى أحد لبناً ولم يطعم منه أصابه النكد ، ولا بد من أن أطعم منه . فقام الشيخ إلى المصباح ليصلحه فأطفأه ثم رجع إلى قصعة اللبن وجلس ، وأمر الشيخ الخدم فأصلحوا المصباح وأوقدوه ، وانكب نصير وإبراهيم وسعد على اللبن يشربون منه ، فسقطوا على الأرض مغشياً عليهم .

فزع الشيخ إلى الشاعر وقال له : ما هذا ؟ فقال : أنا شيحة ، وهؤلاء مطلوبون للملك ، ثم قام وأوثق كتافهم وحملهم على جمل فكان نصير فى شق وإبراهيم فى الشق الثانى وسعد على ظهر الجمل ، وأحكم رباطهم وسار بهم إلى الملك . وصل شيحة بهم إلى الملك ووضعهم بين يديه وأيقظهم من غشيتهم ، وقال : أما إبراهيم وسعد فإنهما يستحقان التأديب ، وأما نصير فلا بد من سلخه ، ولبس شيحة ثوب السلخ وهم أن يقتله ويسلخه، فقال نصير للملك : أهذا جزاء من أنقذك من الموت ونجاك من أعدائك ؟ ! أما وعدتنى أن تجزينى أحسن الجزاء ؟ ! وهل

قتل أمامك هو ما وعدتنى به من الجزاء الحسن ؟! فقال الملك : لايحميك يا نصير إلا الإسلام وأن تطيعنى وتطيع شيحة، فنطق نصير بالشهادتين وأعلن طاعته للملك ثم قال : أما أن أطيع شيحة فذلك ما لا يكون ، فالتفت الملك إلى شيحة وقال: لقد حمى نصير نفسه بالإسلام وطاعتى ، وما دمت أنا فى طاعتك يا شيحة، فقد أصبح نصير بهذا فى طاعتك، وأحب أن تعفو عنه، فقال شيحة: وإنى لن أرد لك أمراً، وعفا عنه. فقال الملك: لك عندى يانصير أمنية فاطلبها الآن فقال نصير : أمنيتى فى حياتى أن أكون خادمك وأن تجعلنى مع إبراهيم فى ميمنتك ، فقال : لك ما طلبت يا نصير ، فقال إبراهيم: المركب الذى له رئيسان مصيره إلى الغرق ، فأعفنى من الشركة وليقم نصير وحده بشئون ميمنتك ، فقال الملك : وإنى لا أرغمك على أمر لا ترغب فيه ، وقال سعد : وما دام إبراهيم قد اعتزل فإنى لا أستطيع العمل بدونه ، فقال الملك : أنت وما تريد ، فخرج إبراهيم وسعد واعتزلا العمل فى ديوان الملك . وقام نصير بخدمة الملك محاولا أن يقف على أسراره وشئون ديوانه ، وكان لشيحة سرداب تحت الأرض من ديوان الملك إلى بيته ، اتخذه له طريقاً سرياً يعبره ليلا ، عرف نصير هذا الطريق فارتقب انصراف شيحة من الديوان فى الثلث الأول من الليل كعادته ، واقتفى آثاره خفية، ولما قرب من نهايته أسرع إليه وأمسكه من رقبته وقال له : أين تذهب الآن ؟ ! أأنت تسلخنى ؟ ! ثم حمله تحت إبطه ومضى إلى بيته ، ثم أحضر

الطود والفرقد وقال لهما : سأسبقكما إلى قلعة الطير ، فائتيانى هناك ، لأنى أخذت شيحة وأريد شنقه فى تلك القلعة ، ثم ركب جواده ووضع شيحة تحت فخذه ، وسار يقطع الوعر والسهل ، ومر فى طريقه بأبناء إسماعيل ، وكانوا راجعين إلى قلاعهم من وليمة ، فقال لهم : هذا شيحة سلطانكم تحت فخذى وإنى ذاهب به إلى قلعتى لأصلبه على بابها ، وإن كنتم ذوى نخوة وقدرة فخلصوه منى ، فهموا به يقاتلونه ولكن شيحة قال لهم : لا تتحركوا من مكانكم واتركونى ، فقال سليمان : كيف نتركك فى يد عدوك ؟ فقال : إذا وجد منكم الغلبة وخزنى بسيفه وقتلنى ، وخلصتمونى من يده قتيلا ، وأية منفعة لكم أو لى فى ذلك ؟ فقال سليمان : أنت وشأنك معه يا نصير . وصل نصير إلى قلعته وأحضر رجاله وقال لهم : هذا شيحة جئت به لأقتله وسألحق الملك الظاهر به ، فقالوا : كان عليك أن تأتى بأولاده معه لتكون آمنًا على نفسك منهم ، وإنك بهذا كمن قطع ذنب الأفعى وترك رأسها ، وستكون فى خطر لادافع له إن أنت قتلته دون أولاده ، فقال نصير : لن أقتله حتى أجيء بأولاده وأقتلهم معه ثم وضعه فى السجن ، وانتظر أولاده يحضرون إليه ليخلصوه ، أما أبناء إسماعيل فإنهم كتبوا إلى الملك الظاهر بما وقع لشيحة من أسر نصير له وما عزم أن يفعله فيه ، وكان الملك الظاهر فى دهشة وخوف لغيبة شيحة ونصير معًا ، فأحضر إبراهيم وسعداً وسألهما عنه فقال إبراهيم : قد قربت نصيراً منك على غير رغبة منا ، ولا نظن إلا أنه

كاد له وأخذه ، وجاءه كتاب سليمان الجاموس وهو يتحدث إليهما ، فلما قرأه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، لقد كنت السبب فى نكبة شيحة ، ثم أمر الجيش بالرحيل ، فسار به وأخذ بنى إسماعيل معه ، وكانوا ينتظرونه فى طريقه حتى وصل إلى قلعة الطير وعسكر بالجيش أمامها ، وأراد أن يكتب إلى نصير وإذا محمد السابق مقبل على جواده ومعه صندوقان فأفرغهما وأخرج منهما الطود والفرقد وقال : وجدتهما فى طريقهما إلى نصير النمر ، ليساعداه فى قتالك ، فأمر الملك بوضعهما فى السجن .

قدم إلى نصير الطود والفرقد فقالا له : لقد جئناك لتحمينا ونكون من أتباعك إن قدرت على حمايتنا وإلا فتشنا عن أحد غيرك يحمينا ، فقال : إنى قادر على حمايتكما وحماية عشرات معكما ، فأقيما عندى ، وقد وكلت إليكما حراسة شيحة لأفرغ لقتال المسلمين ، فقالا : سمعاً وطاعة ، فترك لهما شيحة ، وكان الطود والفرقد ابنى شيحة ؛ نورا ونويرا ، فأخرجاه من سجنه .

نزل نصير ميدان القتال ، وبرز إليه إبراهيم ودامت المبارزة بينهما جميع النهار ، ولما دنت الشمس للغروب انكب إبراهيم عليه وأمسكه وأسرع إليه سعد فأعانه ، وأخذاه أسيراً ، فهجم جيش نصير ليخلصوه ، وهجم جيش الملك ليصدوهم ، واشتعلت نيران القتال وكانت الغلبة لجيش الملك الظاهر ثم سمعوا شيحة يصيح من فوق السور ويقول :

يا معشر العرب ادخلوا القلعة فقد فتحت أبوابها ؛ فاندفعوا إليها ودخلوها. وجلس الملك على عرشها وأحضروا بين يديه نصيراً والطود والفرقد ، فأنذرهم القتل الأليم ، ثم وكل حراستهم إلى إبراهيم وأمر الجيش بالرحيل فارتحلوا حتى كانوا عند الخانكة فنزلوا، وأمر الملك أن يقتل نصير والطود والفرقد على رمالها وكلف إبراهيم أن يأخذهم إلى ساحتها الرملية ويقتلهم فيها . فأخذهم إبراهيم ومضى فى الخلاء ، أما الفرقد والطود فإنه قتلهما وأشعل النار فيهما ؛ وأما نصير فإنه جعل يسترحمه ويقول : اعف عنى هذه المرة فربما هدانى ربى إلى الإسلام وكنت فيه قوة ، فتأثر إبراهيم بقوله ورجع به وألقاه فى السجن ، وسأله الملك عن تركه نصيراً دون أن يقتله ، فقال : أرجأت قتله إلى صباح الغد ليكون لغيره عبرة ، ولما جاء الصباح أخبر السجان الملك أنه وجد باب السجن مكسوراً ولم يجد فيه نصيراً ، فأحضر إبراهيم وعاتبه لأنه لم يقتله مع الطود والفرقد ، فقال : إذا كان فى أجله بقية فليس لنا فيه حيلة . وحضر إذ ذاك شيحة فوجد العتاب على أشده ، فقال : لا تغضب أيها الملك ، وسأجد فى طلبه حتى أحضره .

كان الذى خلص نصيراً من سجنه جوان اللعين ، وذلك أنه بنج السجان وكسر باب السجن ثم دخل فيه وأخذ نصيراً من يده وخرج به إلى الخلاء ، فقال له نصير : من أنت ؟ فقال : أنا جوان عالم الملة ، فقال : وما دفعك إلى خلاصى ؟ فقال : كرهت أن يكون مثلك

مملوكًا ومحبوسًا تحت إمرة بلوى حقير مثل شيحة ، وأنا الذى علمته الحيل والمكائد ، فقال نصير : إذا كان الأمر كذلك فإما قتلتك وإما علمتنى حيلة أقتل بها شيحة ، فقال جوان : إن أطعتنى نلت ما تبغى ، فقال : إنى طوع يمينك فأشر على بما تريد .

وكان جوان قد مر بروبان فشكا إليه وقال : إن عرقوص بن معروف عنده ولدا فرتين ومرتين رهينة لزوجته شموس ابنتى ، وأخشى أن أبعث بها إليه فيقتلهما ولا يردهما إلىّ ، فقال جوان : سأردهما إليك دون أن ترسل إليه ابنتك شموس .

وقال جوان لنصير : سأعلمك حيلة تخلص بها فرتين ومرتين ابنى رومان من يد عرقوص وسجنه ، فإذا ما أحضرتهما إلى أبيهما اتفق هو وملوك الروم وحاربوا العرب وخربوا ديارهم وقتلوا ملكهم وشيحة ، وكنت أنت سيد أرضهم وبلادهم ، فقال : وما تلك الحيلة ؟ فقال : اذهب إلى دكان سمعان ، واجعله يكتب على صفحة سيفك : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ، وعلى الصفحة الأخرى : هذا السلاح للجهاد به فى طاعة الله ، وهو لنصير النمر المطيع الخاضع لجمال الدين شيحة ، فاندهش نصير وقال : ما هذا ياجوان ؟ فقال : إنك لا تستطيع أن تدخل على عرقوص وتحوز ثقته إلا بهذه الطريقة ، ففعل نصير فى سيفه ما أمره به جوان ثم أخذه وسار إلى مدينة الرخام ، ودخل نصير على معروف وقال : السلام عليكم ، فقال معروف : وعليكم السلام ،

ارجع يا نصير ، ولا تطأ بقدمك بساط ابنى ما دمت تعصى جمال الدين شيحة . فقال نصير : لقد أطعته وهذا سيفى شاهد على ما أقول ، فنظر معروف إلى سيفه وقرأ ما كتب عليه ثم قال : أهلا وسهلا بك يا نصير ، تفضل ، ثم أجلسه فى حفاوة وإكرام وجعل يثنى عليه لابنه عرقوص ويشيد ببطولته وشجاعته . فجعله عرقوص فى ميسرته ، وكان أبوه فى ميمنته وأقام أياماً حتى عرف مكان فرتين ومرتين فى سجنهما والسبيل إليهما ، وكان جوان ينتظره فى مدينة الأفلاق ، وفى ليلة دخل السجن عليهما فأطلقهما ومضى بهما إلى جوان فى تلك المدينة ، وهم جوان أن يأخذ نصيراً معهما إلى أبيهما ، فقال البرتقش : أبق نصيراً هنا فى مدينة الأفلاق وخذ فرتين ومرتين إلى أبيهما ، فربما طلبت منه أن يقاتل العرب فيمتنع ويقول : إن ابنىّ رجعا إلى أبيهما سالمين فلا حاجة بى إلى قتال الملك الظاهر ولا غيره ، وحينئذ يغضب نصير ويقتلك ، فإذا كنت وحدك وقال لك رومان هذا القول استطعت أن تهرب من وجه نصير، فقال جوان : حسن هذا يا برتقش ، ثم أقنع نصيراً بالبقاء فى المدينة حتى يرجع إليه بجيوش رومان ومن معه من الملوك لغزو العرب فى بلادهم . فقال نصير : سأمكث فى هذه المدينة حتى تأتينى بجيوش الروم .

أما عرقوص فإنه وجد نصيراً غائباً فساوره ظن السوء وزاده ثباتاً على ظنه حين أتاه السجان وبلغه أن فرتين ومرتين سرقا من السجن . ودخل عليه شيحة وهو غارق فى غمه وتفكيره ، فسأله عن حاله فأخبره بقصة

نصير وسرقة ابنى رومان اللذين كانا رهينة لزوجته شموس أختهما ، فقال شيحة : لا تحزن وسآتيك به وبزوجتك وأنت مطمئن وادع ، ثم تركه شيحة وانصرف إلى مدينة الأفلاق فوجد نصيراً فيها ، فجعل يسرق من بيت الحاكم وبيوت الوزراء الأموال والجواهر ويضع فى بيت نصير حتى ضجوا وقلقوا ، وفى ليلة كان الحاكم جالساً فى غرفته فنزل شيحة فى شكل حوارى من السقف ووقف بين أرض الغرفة وسقفها وقال : أنا حوارى من حوارى المسيح أرسلنى إليك ويقول لك : أعط الناس أموالهم التى سرقت منهم ، فقال له : ومن أين أجىء بها حتى أردها إليهم ؟ فقال شيحة : بدير الأفلاق البطريق أبو الدواهى ، فأحضره بين يديك ، واسأله عنها ، فإنه يرشدك إلى مكانها وإلى من سرقها ، وإذا عرفت السارق فاجزه شر الجزاء ، وإن لم تفعل ما أمرتك به جئتك الليلة القادمة ونفخت فى وجهك فأحرقته ، ثم نفخ نفخة طويلة كانت ناراً حامية ، فانطوى على نفسه من الرعب وقال : سأفعل ما أمرنى به المسيح .

وفى الصباح أحضر نصيراً وقال له : أين أموال الناس ؟ فقال : لا أعرف عنها شيئاً ، فقال : أحضر لى البطريق أبا الدواهى من الدير ، فأحضره فى الحال ، وكان البطريق قد أوهنه الكبر وأنحله الضعف حتى بدا عظماً قد لف فى ثوب فضفاض من الجلد ، فقال له : أتانى حوارى من عند المسيح وقال : سل البطريق أبا الدواهى عن الأموال التى سرقت

فإنه يرشدك إلى مكانها ويدلك على من سرقها وقد أحضرتك من أجل ذلك ، فقال : ما سرقها إلا كبير من الكبراء فاجمع كبار رجالك لأعرفه منهم ، فجمع الحكام والأمراء والوزراء ، ثم طلب بعضاً من الدقيق ، فأحضر له ، فصنع منه عجينة وأعطى كل كبير لقمة منها وأمرهم أن يأكلوها ، فأكل كل منهم لقمته إلا نصيراً فإنه لم يستطع أن يبلعها ، فقال البطريق : يخيل إلىّ أن نصيراً هو الذى سرقها ، ولكن أنظرونى قليلا ، ثم أحضر ورقة وكتب عليها شيئاً يعرفه ثم نفخها فطارت فى الهواء وقال لهم اتبعوها حتّى تحط على مكانها ، فتبعوها حتّى حطت على بيت نصير ، فأخبروه أنها حطت على بيت نصير ، فقال : من حطت على بيته فهو الذى سرق الأموال ، ولكن نصيراً لا يزال ينكر أنه سرق ، فقال البطريق : اضربوه حتّى يعترف ، فضربوه وما تنازل عن إنكاره ، فأحضر البطريق ورقة وكتب عليها ونفخها فطارت ثم حطت فى مكان من بيت نصير ، فقال : احفروا فى هذا المكان وستجدون فيه الأموال ، فحفروا وأخرجوا جميع الأموال والجواهر المسروقة ، فردوها إلى أصحابها ، وقبضوا على نصير وسألوا البطريق : ما جزاؤه ؟ فقال : أن تبنوا سور المدينة على أن يحمل نصير الحجارة والطين ، فنفذوا ما أمر به البطريق . واستمر نصير فى الشقاء حتّى بنى سور المدينة ، وقال البطريق : إن حوارى المسيح جاءنى فى المنام وأمرنى أن أذهب إلى كنيسة مريم لزيارتها ، ثم ودعهم وانصرف من المدينة ، وكان هذا البطريق شيحة .

ذهب شيحة إلى رومة فوجد الناس مجتمعين فى زحمة شديدة حول رجل اسمه عبد الصليب يقوم بألعاب مسلية شائقة ، فوقف معهم ، ولما انتهى من ألعابه بسط منديله وأخذ يدور عليهم وكل منهم يضع فيه ما تجود به نفسه من النقود ثم مضى إلى بيته ، وتبعه شيحة فجلس أمام بابه يبكى ، ولما خرج منه عبد الصليب لقضاء بعض شئونه ، وجده بالباب يبكى ، فسأله عن بكائه فقال : مات أبى فى حرب بيننا وبين العرب ، فقالت أمى : اذهب إلى عمك عبد الصليب فى مدينة رومة لأننا افتقرنا ولم نجد ما نقتات به ، فجئت رومة وجعلت أفتش عن عمى فلم أجده ، فقال عبد الصليب : وما اسمك ؟ فقال : بولص ، فقال : أنا عمك عبد الصليب ، فتعال معى ، فذهب معه حتى قضى بعض أموره ، ورجعا إلى البيت وناما فيه ، ولما جن الليل بنج شيحة عبد الصليب ثم كتفه وأيقظه ، وعرض عليه الإسلام ولما صد عنه وأبى قتله . ثم لبس ثيابه وجعل صورته كصورته وبات إلى الصباح ، ثم خرج إلى المدينة يعرض على الناس ألعاباً عجيبة مدهشة حتى أعجب دوفش بن رومان وأخذه عنده ليسلى زوجته ، التى كانت فى نفور منه وأبت عليه أن يدنو منها ، وكانت ابنة ميخائيل ملك القسطنطينية ، وقد كره الله إليها زوجها دوفش لأن فى علمه أن تؤمن به ، فصانها وحماها بكراهيتها له حتى لا ترى منه ولا يرى منها ، وكان هو لجمالها لا يغضبها ولا يفعل شيئاً لا تريده .

وقدم جوان اللعين إلى رومان وسأله عن دوفش ابنه فقال : إنه فى بيته

مع زوجته ومعهما عبد الصليب يعرض عليها ألعاباً تكاد تكون معجزة ليسلي زوجته ، ولعلها تنسى بذلك نفورها وترضى به زوجاً لها ، فقال جوان : هاتوه ليعرض علينا شيئاً من ألعابه ، فأرسل ابنه فى طلبه ، فقال لمارية : إن جوان عالم الملة قد حضر عند أبى ويريد أن يرى ألعاب عبد الصليب.فأظهر امتعاضاً وألماً ، وعرفت ذلك منه مارية ، وكانت قد أنست به وعزمت أن يمكث عندها ولا يفارقها فقالت : لينتظر جوان حتى أشبع نفسى من السرور بألعابه وبعد ذلك أبعث به إليه ، فبلغ دوفش والده رغبتها فقال لجوان : إنها فتاة فى مقتبل عمرها ولا ضير علينا أن نعطف عليها ونشبع رغبتها فلنصبر قليلاً حتى تشبع رغبتها، وعزم شيحة أن يفر بمارية ليلا حتى لا يلتقى بجوان ، فلما جاء الليل بنجها وزوجها ، ثم كتب ورقة علقها فى رقبة دوفش وفيها : اعلم يادوفش أنى شيحة وقد سرقت زوجتك مارية وذهبت بها إلى عرقوص فى مدينة الرخام، وهى رهينة عنده حتى يبعث أبوك ابنته شموس إلى زوجها عرقوص ، ثم وضع مارية فى صندوق حمله وخرج ، ولقيه البواب عند الباب فسأله إلى أين تذهب ؟ فقال : إلى الملك رومان ، فقال : وما هذا الذى تحمله ؟ فقال : لا تسأل عن شيء لا يعنيك ، فقال : اجلس بجوارى هنا حتى يطلع النهار ثم أذهب معك إلى جوان والملك رومان ، فقال شيحة : ومن أنت ؟ أأنت سابق ؟ فضحك البواب وقال : يا أبى لم لا تأخذ حذرك من البواب ، وهأنذا قتلته وجلست بالباب مكانه، فقال

شيحة : خذ مارية وكتابى هذا وامض قدماً إلى الملك الظاهر ، واحفظ مارية فى قصر الملك مع حريمه حتى أعود إليكم من مدينة الرخام ، فقال : سمعاً وطاعة ، وكتب الكتاب وناوله إياه فأخذه وانفات وجعل يقطع الفيافى والقفار ، وأخرجها من الصندوق ليطعمها ويسقيها فوجدت منه خلقاً كريماً ورجولة نادرة وعبادة قويمة لله رب العالمين ، فسألته عن دينه فقال : دينى الإسلام ، وأخذ يذكر لها مزاياه وما يحث عليه حتى شغفت به ، وطلبت منه أن تسلم وتتعلم شرائعه وأحكامه . فأنطقها بالشهادتين وأسلمت ، ثم حملها ومضى ، وقال فى نفسه ما دمت قد علمتها الإسلام فلا بد من الزواج منها ، وفتح كتاب أبيه وقرأه فوجده يقص حكاية سرقتها ويوصى الملك أن يحفظها حتى يعود ويتزوج منها ، فمزق محمد السابق كتاب أبيه وقلد خطه وكتب غيره يرجو فيه الملك أن يزوج ابنه مارية عقب وصوله إليه ، فلما قرأ الملك الكتاب فرح به وأقام له الأفراح وزوجه مارية ، فدخل بها وانتظر عودة أبيه.

أما جمال الدين فإنه انتظر فى مدينة رومة ليعرف ما سيكون ، وفى الصباح دخل الخدم على دوفش فلم يجدوا زوجته ووجدوه مغشياً عليه وفى عنقه ورقة ، فنقلوا الخبر إلى أبيه ، فحضر هو ووزراؤه وعرفوا كل شىء ، وانتظروا حتى أفاق بعد مدة وعرف منهم ما حصل ، فثارت ثائرته وثائرة أبيه رومان ، وأمر بالجيش أن يسافر مع دوفش وأخيه دومار إلى مدينة الرخام ، فانفلت شيحة يجرى كالبرق حتى كان عند عرقوص فأخبره بقدوم ذلك الجيش وأمره أن يستعد للقائه فقال : مرحباً بالقتال ، وقال

شيحة : ليخرج معى أبوك معروف فى طائفة من الفرسان والأبطال لنكمن لهم فى طريقهم ، حتى إذا ما التقيتما ونشب القتال بينكما ، هجمنا عليهم من خلفهم وأعملنا فيهم السيوف من الأمام والوراء حتى نهلكهم أو يفروا خائبين ، فقال : نعم الرأى يا شيحة ، ونفذوه فى الحال . وبعد قليل من الأيام حضر الجيش ونشبت حرب طاحنة أسر عرقوص فيها دوفش ودومار وقتل جيشه وجيش أبيه ألوفاً من الأعداء ، فولوا الأدبار ورجعوا مهزومين ، ورجع عرقوص ظافراً ، ووصاه شيحة أن يحافظ على دوفش ودومار حتى يرسل أبوهما زوجته شموس ، ثم ودعه وانصرف عائداً إلى مصر . ولما وصل إليها وسأل الملك عن مارية أخبره بما فعله وأراه الكتاب فعرف حقيقة الأمر وحمله حنان الأبوة على أن يخفى خطأ ابنه ومكره وصبر .

أما المهزومون فإنهم أخبروا رومان ملك رومة بأسر ولديه وهزيمة جيشهما ، فهم أن يجهز جيشاً آخر للقتال فقال وزيره مخبتون : أنت تعلم أنه لا طاقة لأى ملك من ملوك الروم بقتال العرب ، وإن قاتلناهم أهلكنا أبناءنا وخربنا ديارنا ، وأرى أن تكتب إلى الملك الظاهر بما حصل وتعده أن ترسل شموس إلى زوجها عرقوص إن أرسل إليك دوفش ودومار وتطلب منه أن يكون ضامناً لك فيما قلت ووعدت ، أما مارية فلا بد أنها أسلمت وأرسلت إلى مصر ، ولا فائدة منها لنا بعد إسلامها ، فكتب رومان الكتاب وبعث به وزيره مخبتون إلى الملك الظاهر فى مصر .

٤

ركب الوزير مخبتون فى السفينة بعد الغروب ، وباتت تلك الليلة فى الميناء ، فجاءه جوان وبنجه وهو نائم ، ثم أخذ كتاب رومان من جيبه فمزقه ووضع مكانه كتاباً آخر من عنده كتب فيه : من رومان الملك العظيم الذى تعرف شدة بطشه إلى ذلك المملوك الحقير الذى ارتفع فى غفلة الزمن إلى منزلة الملوك ، أما بعد فقد سرق عرقوص أولادى فاكتب إليه أن يردهم إلى أبيهم ، وإن لم تفعل فستجدنى عندك حاضراً ، أصب عليك الدمار ، وآخذ منك المُلك والديار ، وهذا نذير لك قبل أن يحل بك العطب .

وفى الصباح أيقظه جوان وتحدثا قليلا ، ثم أقلعت السفينة بالوزير ، فنزل فى الإسكندرية ، ثم سافر منها إلى مصر ودخل على الملك الظاهر بعد أن أذن له. وقدم إليه هدية ثمينة كان قد جاء بها من رومان إليه ، وناوله كتابه فأمر بقراءته ، ولما انتهى من قراءته اربد وجه الملك من الغضب. فقال له أحد الحاضرين معه : لا يرسل الهدية إلا من شعر بالذلة ، والملوك أجدر الناس بالحلم ، ولا بد أن يكون هذا الكتاب قد حمل على رومان ظلماً وزوراً ، فقال الملك للوزير مخبتون : أهذا كتاب رومان ؟ فقال : إنه برىء من هذا ، وما كتب إلا ما يشرح الصدر ويرضى النفس ، فقال : ومن الذى بدله وغيره ؟ فقال : بات جوان معى ليلة

فى السفينة ، وأظن أنه سرق كتاب رومان وبدله . فسمح له بالعودة إلى رومان ليأتى بكتاب غير هذا .

كان الوزير عند ملكه رومان وأطلعه على ما جرى فغضب وقال : اكتب أنت إليه بما شئت واختمه بخاتمى ، فكتب الوزير كتاباً رقيقاً وختمه بخاتم رومان ومضى به إلى الملك الظاهر ،فأطفأ الفتنة التى أجج نيرانها جوان الأثيم،وكتب الظاهر إلى عرقوص يقول : إلى البطل المغوار عرقوص، طلب إلى رومان أن ترسل إليه أولاده على أن يرسل إليك زوجتك شموس ، فأرسل الأولاد إلى أبيهم وأنا ضامن لك وصول زوجتك إليك.

وأرسل سعد بكتابه هذا إلى عرقوص فلما قرأه نظر إلى سعد وقال : أما كان الأجدر بالملك أن يرغم رومان على إرسال زوجتى ويجعل الوعد منى بإرسال أولاده وعداً لا يخلف وأمراً لا ينقض ، ثم كتب للملك رافضاً طلبه .

ناول الملك الكتاب للقارئ فقرأه ، فغشى الجلسة سحاب كثيف من وجوم ، وضحك الملك من شدة الغضب،وقال : اتركونا من الحديث فى أمر عرقوص . فإما أدبته وشفيت الغضب بالتنكيل به وإما عفوت عنه غير عابئ بسفاهته وحمقه ، ثم أمر أن يحضر إليه أبو بكر البطرنى ، فلما حضر ناوله كتاب عرقوص الذى أرسله إليه وقال : اذهب إلى مدينة الرخام وأعط معروفاً هذا الكتاب سراً دون أن يعلم به عرقوص ابنه ولا أحد غيره ، فقال : سمعاً وطاعة ، ثم كتب إلى معروف كتاباً آخر

قال فيه : قد أرسلت إليك مع كتابى هذا كتاب ابنك عرقوص إلينا ، فإن كنت حريصاً على دوام صحبتنا وسلامة أمر العرب فائتنى ومعك ابنك فوراً لأطفئ تلك الفتنة وربك يخلق ما يشاء ويختار . .

قرأ معروف الكتابين فعلت وجهه سحابة من الحزن ورفع يديه إلى السماء وقال : عجز الروم عن الوقوف بسيوفهم فى وجه العرب فلجأوا إلى تدبير المكايد لصدع الصفوف وتفريق الكلمة ، فاللهم أبطل كيدهم واحفظ العرب من مكرهم ، وأصلح ذات بينهم حتى يكونوا غصة فى حلوق الروم وقذى فى أعينهم ، إنك على كل شىء قدير ، ثم نهض إلى ابنه فوجده نائماً فبنجه وحمله وذهب به مع البطرنى إلى السفينة التى جاء البطرنى بها ، ثم أقلعت وجرت فى البحر إلى الملك الظاهر . واعترضهم فى طريقهم مراكب للأعداء فقامت بينهم مناوشات حربية اضطر معروف أمامها أن ينبه ابنه ويوقظه فنهض وانتضى سيفه وهزمهم ووجد أن أباه قد سرقه ليحمله إلى الملك الظاهر، وهو لا يريد أن يمضى إليه ،فركب فى مركب للأعداء سراً وأرغمه على المسير به إلى مدينة الرخام ، فصدع صاحب المركب بأمره وطار به إلى المدينة ، وهناك أعلم رجاله ما فعله أبوه به . وعتب عليهم أنهم أهملوا شأنه حتى سرق فاعتذروا بأنهم لا يعلمون شيئاً مما فعله أبوه .

أما معروف فإنه بعد المعركة تفقد ابنه فلم يجده فقال للبطرنى : ارجع بنا إلى مدينة الرخام فإنه لا فائدة من المضى إلى الملك دون أن يكون

ابنى معنا ، فرجع البطرق به إلى المدينة .

ولما دخل على ابنه قام إليه وسلم عليه وقال له : إنك يا أبى فى أمن من يدى ولسانى ، وأحب أن تعتزلنى وتقيم وحدك فى مكان بالقلعة ، فإنى لا آمن على نفسى منك ، وأخشى أن تسرقنى كما سرقتنى وتمضى بى إلى الملك الظاهر ، وأحب أن تتركنى وشأنى معه ، فإما قهرته وإما قهرنى .

فاعتزله أبوه وأوى إلى غار فى جبل الرخام وأقام فيه يبكى ويدعو الله أن يقى ابنه شر نفسه ، فجاءه شيحة فى شكل درويش من الدراويش وسلم عليه فرد عليه السلام وقال له : ادع ربك أيها الشيخ الصالح أن يهيئ لابنى من أمره رشداً ، فقال الشيخ : يا معروف ، أنا أخوك شيحة فقم معى إلى ابنك لأصلح بينكم ، دخل شيحة ومعروف على عرقوص فلما رأى أباه قال له : إن اعتزالك أخف على نفسى وأهون؛ فلم قدمت يا أبى ؟ فعرفه شيحة بنفسه وقال له : ما الخبر ؟ فحكى له ما حصل من أوله إلى آخره ، فقال شيحة: إنك عندنا وعند الظاهر مليكنا بأمة الروم وملوكها ، والخطأ إن وقع فمن ورائه صوابه ، ولا عصمة إلا لنبى ،والكمال لله وحده ، والفتنة ضلال والتمادى فيه غى وإثم ، وأنت أكبر من أن تمكن الفتنة من نفسك وسيفك ، فتكون طامة كبرى عليك وعلى قومك ، فإن لم ترحل مع أبيك الليلة إلى الملك الظاهر طائعاً مختاراً وتعتذر إليه فإنى قاتلك وسالخ جلدك فيما بعدها من الليالى، ثم اختفى شيحة فجأة فلم يكن له أثر ، وساد المكان سكون طويل، ثم قال عرقوص: أسمعت يا أبى ما قاله شيحة ؟

فقال : يا بنى إنك تعلم أنه رجل يفعل ما يقول ، وأنه لا يبغى إلا إصلاح ذات البين . وما دام الخير وجهته وهدفه فلا ضير عليك أن تطيعه ، فسكت قليلا ثم قال : هيا بنا إلى الملك الظاهر ، ففرح أبوه وركبا فى الفلك وجرى بهما إلى مصر .

أما البطرنى فإنه رجع وحده إلى الملك الظاهر وأخبره بما حصل ، فقال الملك : وهل كان الأعداء يترصدونكم ويعلمون أنكم قادمون إليهم هذه الليلة وفى تلك الساعة ؟ ! أخبرنى يا أبا بكر بالواقع على حقيقته واحذر أن تخفى عنى منه شيئاً ، ودخل شيحة إذ ذاك عليه فقال : إن ما أخبرك به البطرنى حق ، وإن معروفاً وابنه قادمان إليك فى شمس الغد ، فاطمأن الملك ولبث ينتظر قدومهما .

وفى أثناء النهار دخل معروف على الملك وابنه فى يده وقال : هذا ابنى بين يديك فافعل به ما تشاء ، فأخذه الملك بيده وأجلسه إلى جانبه وجعل يحدثه حديثاً ليناً حتى أزال غيظه ومحا غضبه ثم قال : أغضبك أنى أمرتك بإرسال أبناء رومان إليه ؛ لأنك فهمت أن ذلك عن ضعف منى ، وسواء أصدقنا وعده أم لم يصدق فإننا نستطيع أن نصل إلى ما نريده من ملوك الروم رغباً أو رهباً ، ولهذا أرى أن تنفذ ما أمرتك به وترسل إليه ولديه ، أما زوجتك فإنها آتية لا ريب فيها طوعاً أو كرهاً ، فقال ذلك لا يكون ؛ لأننى أخشى أن يقتلها بعد أن يصل إليه ولداه ، فقال أيدمر — وكان يحمل فى صدره لعرقوص عداوة قديمة —

كيف تجعل رغبتك فوق رغبة المليك ؟ ألم تعلم بأن رومان قادر بجنده أن يمحوك من الوجود ، إذا تخلى عنك المليك، وفلم يطق عرقوص صبراً على هذا الكلام ، وهم به يضربه أو يقتله فغضب الملك وقال : كل منكما يلزم مجلسه ، ثم أخذ يقرعهما لأنهما لم يحترما ديوان الملك ومقر حكمه ، وقسا فى تقريعهما حتى غضب عرقوص وغادر مجلسه، فلقيه جوان فى هيئة درويش وقال السلام عليكم ، فأجابه : سلام الله على من هداه، فقال: مالى أراك غاضباً يا بنى؟ فقال: كنا نرجو النصفة عند العرب فوجدناهم ظالمين ، فواحسرتى على أيام قضيتها بين الروم عزيزاً مطاعاً ، فقال : وماذا يمنعك أن تعود إليهم لتعود إليك أيام العزة والجاه ؟ اعلم ياعرقوص أن الذى يحدثك جوان عالم الملة الرومية ، وبودى أن أرافقك إلى ملك من ملوك الروم لتنزل عنده ؟ فقال: ومن هذا الملك الذى سنمضى إليه ؟ فقال: رومان ملك رومة ، فقال: إن له عندى ولدين رهينة لزوجتى شموس ابنته ، فقال جوان : سنأخذ معنا ولديه ، وهناك أصلح بينك وبينه ، وتقيم عنده مع زوجتك شموس فى رخاء وسعة ، فقال : هيا بنا إلى ما أردت ؛ فقد كرهت العرب ويئست منهم .

وأخذه عرقوص إلى مدينة الرخام، فأخذا ابنى رومان وساروا إليه ، وكان جوان قد بعث إلى رومان من سبقهم ليخبره بقدومهم ويوصيه أن يلقى عرقوصاً لقاء حسناً لأنه ترك العرب وأصر على قتالهم مع الروم ، وأن يقيم عندك مع زوجته شموس .

استقبلهم رومان وأبدى ابتهاجه بانضمامه إليهم ، وقال جوان : إن عرقوصاً يريد أن تجمع ملوك الروم فى جيوشهم بروما ليخرجوا منها معه لغزو العرب غزوة ماحقة تقضى عليهم ، فاكتب إليهم بهذا ، فكتب رومان إلى الملوك بما قاله جوان ، واجتمعوا بجيوشهم فى رومه ، ثم رحلوا منها إلى مدينة حلب ، ونزلوا أمامها ليستعدوا لفتحها والاستيلاء عليها ، وشعر بهم صاحب المدينة وعرف من جواسيسه مقصدهم ، فكتب إلى الملك الظاهر بذلك وطلب منه النجدة والمعونة ، فأتاه الملك بجيش جرار نزل به فى أرض حلب تجاه جيوش الروم الغازية .

٥

كان معروف قد خرج من مجلس الملك بعد أن غادره ابنه غاضبًا ، وأقسم لهم وهو خارج أنه سيقتل أول رجل يخبره أن ابنه ركب فى جيش لقتال الملك الظاهر ، وقال لإبراهيم وسعد سآوى إلى مكان منعزل، فاصحبانى حيث أكون لآنس بكما وأخفف آلامى بمصاحبتكما فساروا به إلى دمشق .

وذات يوم دخلوا المسجد الأموى للصلاة فوجدوا رجلا يصلى وهو متقلد عدة الحرب فسأله إبراهيم : لماذا لبست عدة القتال وأنت فى مدينة يرفرف عليها السلام ؟ فقال : إن عرقوصاً جمع ملوك الروم وهم مجتمعون على قتال الملك الظاهر أمام مدينة حلب ، فقال إبراهيم : يا سعد، بلغ معروفًا هذا النبأ ، فقال سعد : بلغه أنت يا إبراهيم فإنى لا أزال أذكر أنه أقسم ليقتلن أول رجل يخبره أن ابنه يحارب الملك الظاهر ، فقال : تعال معى . فعسى أن نهتدى إلى وسيلة نبلغه بها هذا الخبر ، ثم خرجا من باب المسجد فوجدا رجلا يهوديًّا ينادى من عنده فضة ليشتريها ، فقال إبراهيم : إذا دللتك على رجل عنده فضة كثيرة فماذا تفعل ؟ فقال: أكافئك بفنجان من القهوة ، فأخذه إلى معروف وقال له : اسأله عن الفضة التى عنده ، وبلغه أن عرقوصا جمع ملوك الروم وهو يحارب

الملك الظاهر أمام مدينة حلب ، فقال : شكراً لك وسمعاً وطاعة، فذهب إليه وأخبره ثم قال : هات ما عندك من الفضة لأشتريها ، فقام إليه ناهضاً وقال : ما عندى لك إلا الموت العاجل ، ثم ضربه بسيفه فأطاح رأسه . والتفت إلى صاحبيه وقال: أسمعتما ما قال؟ فقال إبراهيم: ما سمعنا، فماذا قال ؟ فقال معروف : أخبرنى أن ابنى عرقوصا انضم إلى ملوك الروم وهو فى قتال مع الملك الظاهر ، فأصبح من الواجب علينا أن نركب ونذهب لمعونته «فركبوا ومروا بقلعة صهيون وأمر معروف عماد الدين أن يجمع رجاله ويسيروا معه لمناصرة الملك الظاهر ،ودخل على مريم زوجته وأخبرها أن ابنها ترك العرب ورجع إلى الروم وألف من ملوكها عصبة على العرب ، وأنه الآن يقاتل الملك الظاهر فقالت : سألتك بالله أن تأخذنى معك ، لعله إذا رآنى حن قلبه ورجع إلى الهدى والصواب .

اجتمع كل أولئك وساروا إلى حلب ، فنصبوا خيامهم ونزلوا فيها كما نزلت مريم فى خيمة معروف التى أعدت له ، ثم ذهب معروف إلى الملك الظاهر ودخل عليه فى مجلسه ، فسلم وحيا وقال : هذا يوم المنى ، إذ أقف مجاهداً فى سبيل الله وأقتل بسيفى أعز الناس عندى ، فعجب الملك من ثبات إيمانه والتفت إلى أيدمر وقال : أنت السبب فى كل هذا يا أيدمر ، فقال معروف : تلك إرادة الله التى لا راد لها ، وأرى أن تكتب إلى عرقوص كتاباً كعادتنا قبل بدء الحرب ، والله بعد ذلك يفعل ما يشاء . فكتب كتاباً وبعث به إبراهيم إلى عرقوص ، ولما

فضه وجد فيه : غرك الشيطان يا بنى وخدعك فجمعت ملوك الروم الذين أذلهم سيف العرب لمحاربتى ، وظننت أنكم ستغلبون ، وإنى أنصح لك أن ترجع إلى العرب قبل أن يحل بك غضبهم ، وحينئذ لا ينفعك الندم ، فإن أبيت فلا لوم علينا ، وهذا إنذار منا لك والسلام ، فكتب إليه عرقوص : دعنا من إنذارك وتهديدك ، والسيف خير حكم بينى وبينك، وغداً يكون ما يكون ، ورجع إبراهيم بالكتاب إلى الملك الظاهر فلما قرأه مزقه وقال : سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وفى الصباح قفز عرقوص إلى الميدان وصاح قائلا : لا يأتينى إلا الملك الظاهر والكلمة المطاعة لمن غلب منا ، ولا حاجة بنا إلى سفك دماء الأبرياء ، فركب الملك الظاهر ونزل إليه ، وجعلا يتبارزان جميع النهار ، ثم قال الملك : ياعرقوص إن شجاعتك لا ينكرها إنسان، ولكنى لا أريد أن أبغى على مسلم مثلك فارجع وتعال فى صباح الغد ، لنتم ما بدأنا من المبارزة ، فقال : ولك ذلك .

مضى يومان وهما يتبارزان وصمد الملك حتى بدد من ذهن عرقوص ما كان يظنه فيه من عجز وقصور ، وبعد جهد عنيف أصابت ضربة طائشة فم الملك فسال منه الدم ورآه رجاله فانكبوا عليه كالمطر واختطفوه من الميدان ومضوا به إلى خيمته ثم نادوا : يا شيحة ، فحضر فى الحال وضمد جرحه وشفى ، وأشاروا عليه بالمقام فى قصر الحاكم بالمدينة ، وأن يعتصم الجيش جميعه بها ، وفى الحال دخل الجيش وحصن أسوارها

وأبوابها بالجنود المدججين بالأسلحة وأدوات القتال .

أما جوان فإنه أشعل النار فى صدور الروم وأغراهم بفتح المدينة والاستيلاء عليها، فخدعهم قوله، وكانوا كلما أغاروا عليها استقبلتهم السهام فشجت رءوسهم وشقت صدورهم وبقرت بطونهم وحصدتهم حصداً ، وما استطاعوا أن يشقوا طريقاً إليها من أى باب من أبوابها .

وحانت من معروف التفاتة فى الخلاء فرأى ابنه قد اعتزل فى مكان فوق الجبل فقال لأمه مارية : إنى ذاهب إلى عرقوص لعلى أجد فى اعتزاله أملا فى عودته إلينا ، فقالت : وإياك إن عصاك أن تدعو عليه . فقال لها : يفعل الله ما يشاء .

وذهب إلى ابنه وجعل يذكره بالآخرة وطاعة الوالدين ويدعوه إلى أن يعود إلى قومه ولا يناوئ مليكه، فأبى وأصر على مناوأة الملك . فغضب معروف ودعا عليه فقال : ابتلاك الله بالغربة وسؤال الناس ، والضعف والشقاء والمقام فى ديار أعدائك ، ولطف الله بك فيما قدره عليك ، ثم رجع إلى زوجته مريم فسألته عما فعله فقال : غضبت ودعوت عليه ، فقالت : ألم أحذرك أن تدعو على ابنك ؟ فقال : ذلك قضاء الله الذى لا مفر منه ، والله تعالى لطيف بعباده .

وهجم الروم ليلا فصدهم العرب صدًّا عنيفاً ، وفروا من وجه معروف فى المكان الذى وقف فيه ليدافع عنه وجرى من خلفهم وهو يحصدهم بسيفه حتى أبعدهم عن مكانه من سور المدينة ، ثم رجع وهو



معروف وقد فاضت روحه

يقول لعنة الله عليكم أيها الروم ، لا تهربون ولا تثبتون ، وعلى غفلة منه وهو راجع إلى مكانه أصابه سهم فى فخذه فجرحه جرحًا بليغًا ، فغمز جواده ، وأسرع به إلى مكانه فاضطجع فيه وجعل يذكر الله ويسبحه حتى فاضت روحه ، ولقى ربه شهيداً .

ومر إبراهيم وسعد به فى مكانه كعادتهم فوجداه قد مات والنور يشع من وجهه وشيبته ، فحزنا عليه حزناً أليماً ، وذهب سعد إلى الملك فأخبره فجاء مسرعاً إليه هو وأصحابه ، وأسفوا عليه أسفاً شديداً ، وجاءت زوجته مريم فسقطت فى حفرة فى طريقها وماتت لساعتها ، وكان معروف لا يزال قابضاً على سيفه فحاولوا أن يأخذوه من يده واحداً بعد واحد فما استطاعوا ، فتقدم إبراهيم وقال : أنت وعدتنى أن يكون سيفك لى بعد وفاتك وما عهدناك إلا وفيًّا ، ثم مد يده وأخذ السيف فناوله إياه كأنه حى من الأحياء، ثم أمر الملك بدفنهما فدفنا رحمة الله عليهما.

وذهب بطريق إلى عرقوص فى معزله فوق الجبل فقال : أبشرك بموت بطل عظيم من أبطال العرب اسمه معروف ، فكاد عرقوص أن يصعق ولكنه تجلد وقال : كيف تقول إنه مات وهو قادم إلينا من خلفك، فالتفت البطريق وراءه فضربه عرقوص بسيفه وشقه نصفين، ثم نهض ونزل من فوق الجبل وركب جواده وثار فى الروم ثورة النار فى الهشيم، ورآه الملك الظاهر وهو يقاتل الروم ويسقيهم الردى فمضى إليه حتى كان

بجواره وقال : هداك الذى استأثر بأبيك ونقله إلى جنته ورحمته، فاستحيا عرقوص وانفلت بجواده فى الصحراء، ورآه الروم فظنوه قد فر مهزوماً ، ففروا من خلفه ، وتشتتوا فى الصحراء بعد أن أذاقهم الله لباس الذل والوبال .

واجتمع ملوك الروم بعد هذا التشتت وأجمعوا رأيهم على أن يأخذوا للملك الظاهر جوان اللعين ويصالحوه على دفع الجزية حتّى يأمنوا على أنفسهم وديارهم من العرب ، فرجعوا إليه وأعطوه جوان اللعين وصالحهم على دفع الجزية ، وتقدم أحدهم وقال : إن أعطيتمونى جوان فلكم صندوق من الذهب ، فقال إبراهيم : الصندوق خير لنا من هذا اللعين ، ثم أخذوا الصندوق وأعطوه جوان ، وأمرهم الملك بالرجوع إلى بلادهم آمنين . ثم أمر بالرحيل فارتحلوا وقطعوا السهول والأوعار حتّى دخلوا مصر وهم فى حزن أليم على معروف وأهله .

فكر عرقوص فى أمره فوجد أنه أغضب العرب وملكهم بعصيانه وتمرده ، وأغضب ملوك الروم بنقض عهودهم وقتالهم ، كما فقد أباه الذى كان يعطف عليه ، فلم يجد إلا الهيام على وجهه فى الفلوات يأكل من نبات الأرض وحيداً طريداً ، فجعل يمشى فى مناكبها حتّى مر ببستان فيه من كل فاكهة فدخله ، وكان هذا البستان لملك اسمه الرقشوان وله بنت اسمها الرقطة ، وكانت ذات جمال يشع فتنة ، وكانت قد تعلمت كثيراً من العلوم والعزف على آلات الطرب ، وكان أبوها يحجبها عن الناس

حتى لا يطلب منه يدها أحد من الناس ، لأنه رغب أن يصطفيها لنفسه ، وكان لها قصر فى ذلك البستان، فنزلت منه وجعلت تمشى فى طرقات البستان حتى رأت عرقوصاً نائماً بجوار فسقية جميلة ، وجواده يرعى الكلأ هنا وهناك ، فوقفت تنظر إليه وتعجب من جماله ، واستيقظ إذ ذاك فرآها واقفة بجانبه فاعتدل جالساً ، وسألته الفتاة عن اسمه فقال : اسمى عزم المسيح ، فقالت : هذا اسم مبارك فتعال معى إلى القصر لأقوم بواجب الضيافة ، فمشى معها وأجلسته فى حجرتها على فرش حريرى وثير ، وأحضرت له الطعام والشراب فأكل وشرب ، ثم أحس منها ميلا إليه ورغبة فى زواجها منه ، ولكن الحياء يمنعها أن تفضى إليه بذات نفسها ، فجعل يحدثها عن الإسلام وفضائله وأحكام الزواج فيه ، فقالت: إنى أحببت الإسلام ورغبت فى الزواج منك من أجله ، فعلمها الإسلام وأبرم عقد زواجه منها وعاش معها فى نعمة واسعة .

وذات يوم أطل من نافذة القصر فرأى جوان اللعين قادماً على أتانه ومعه امرأتان على بغلين ، وكل امرأة معها غلام فى حجرها ، فأمعن النظر فيهما فوجدهما زوجتيه ، إحداهما بنت مغلوين ، والأخرى بنت رومان ، وكان الغلامان ابنيه وبكى عرقوص حين رآهما ، فسألته الرقطة زوجته عن سبب بكائه فقال : هاتان المرأتان زوجتاى ، وهذا جوان وتابعه البرتقش ، وجوان هذا سبب محنتى وحكى لها ما حصل ، فقالت : سأحضر جوان بين يديك لتفعل به ما تشاء .



عرقوص نائم والرقطة تقترب منه

وانتظرت حتّى قدم إليها وكان تحت قصرها ، فقالت للبرتقش: غبتم عنا طويلا ، وانقطعتم عن زيارتنا مدة طويلة، فقال : ها نحن أولاء قد جئنا ، فقالت : تعال يابرتقش فذهب إليها وقام إليه عرقوص فأمسكه من عنقه وقال : إما صدقت وأخبرتنى كيف أتيتما بهاتين المرأتين وطفليهما وإلا قتلتك ونلت أجراً جزيلا بذلك ، فقال دخلنا مدينة الرخام ، فقال جوان: أريد أن أسرق زوجتى عرقوص لأردهما إلى أبويهما ، فدخلنا بستان قصرهما، ولما نزلنا فيه احتال جوان وبنجهما ثم حملهما وخرجنا وكنت أظن أنه سيذهب بهما إلى أبويهما ، ولكنه جاء بهما إلى هذا البستان فرأيتنا قادمين ، فاعف عنى وأنا أبعث به إليك ، فقال : انزل وأرسله إلينا ، فنزل البرتقش وقال لجوان : إن الرقطة تطلبك فاصعد إليها ، ولما دخل عليها فى حجرتها ووجد عرقوصاً معها بال فى ثيابه من الخوف ، وقال عرقوص : أوحشنا غيابك يا جوان ! ! فقال إنك فى قلبى يا سيدى ، وما نسيتك ، وقد أتيت بزوجتيك ولا أزال أفتش عنك حتّى وجدتك فى هذا المكان ، فقال عرقوص : وهل كنت ولى أمرهما فى غيبتى؟ وهل تقدمتا لك بالشكوى من ضنك الزمن وضيق المعيشة ؟ ! ثم قام إليه وجعل يضربه حتّى أشرف على الهلاك. ثم فتحت له الرقطة حجرة مظلمة مهجورة فى القصر فألقاه فيها وأغلقها عليه .

انفلت البرتقش من البستان إلى الرقشوان أبى الرقطة فى قلعة مجمع البحرين وقال له : إن عرقوصاً مع ابنتك فى قصرها ، وأراد جوان أن



عرقوص يرى من النافذة زوجتيه

يطرده فأمسكه وأوجعه ضرباً ، ولا أدرى إن كان قد فاضت روحه فى يده أو لا يزال حيًّا ، وإن مات جوان ضنت عليكم الأرض بنباتها ومائها ومتم جوعاً وعطشاً ، فقم الآن وخلص جوان وابنتك ، فنزع الرقشوان ومضى لساعته إلى قصر ابنته فوجد عرقوصاً معها فى حجرتها وكانا نائمين ، فبنج عرقوصاً وكتفه ، وأخرج جوان من سجنه ، ثم أخذهم جميعهم إلى قلعته ، وهناك أمر السياف أن يقطع رقبة عرقوص ، فجاء السياف لينفذ أمره ، وكان السياف شيحة فعرفه جوان وعرف به الملك فأمر بقتله معه ، فتقدم البرتقش وقال : لا تجعل قتلهما على يديك وإلا قتلك ملك المسلمين ، ولكن احبسهما فى سجنك حتى يأتيهما جوان برجل غيرك يقتلهما لتكون آمناً على نفسك ، فقال جوان : احبسهما عندك حتى آتيك بمن يقتلهما ، فنفذ الرقشوان مشورته .

مضى جوان إلى مدينة الأفلاق ودخل سجنها بعد أن بنج الحرس ، وفك القيود عن نصير النمر وأحضر له سلاحاً وجواداً ، وظن أنه سيشكر له هذا الصنيع الجميل ، ولكن نصيراً قال له : إنى قاتلك الآن يا جوان لأنك ضحكت على وخدعتنى حتى مكنت منى شيحة الذى أوقعنى فى هذا العذاب الأليم ، الذى خلصتنى منه الآن ، ولو أنك أوقعت فى يدى شيحة لأنتقم منه لعفوت عنك ، فقال جوان : وما جئتك الآن إلا لأخلصك وأبشرك ، فإن شيحة وعرقوصاً محبوسان فى سجن قلعة مجمع البحرين ، فاذهب إليهما واقتلهما ، فقال : أسرع بى إليهما لأشفى غيظى منهما بقتلهما .

دخل نصير وجوان والبرتقش على شيحة وعرقوص فى سجنهما فنظر نصير إلى شيحة نظرة ترسل الشرر وقال : سآكل من لحمك وأشرب من دمك وأريح الناس من محالك وكيدك، وإذا دخان يملأ المكان ، وإذا نصير وجوان والبرتقش وشيحة وعرقوص تأخذهم إغماءة جعلتهم كالموتى ، وأقبل محمد السابق فكتف نصير وجوان والبرتقش، وإذا نوير يضع بين يديه صندوقاً ، ففتحه وأخرج منه الرقشوان مكتفاً مغشياً عليه ، ثم أطلق محمد السابق دخاناً آخر فأفاقوا جميعهم من غشيتهم وقال : آنستنا يا عالم الملة ، أبشر بما يحل بك من المصائب والمحن ، ثم هوى عليه ضرباً بالسوط حتى مزق جلده . ورأى نصير والرقشوان ما حل بجوان فأيقنا بالهلاك وقال الرقشوان : إنى حموك وأبو زوجتك يا عرقوص فأكرمنى واشفع لى عند شيحة ، فقال شيحة : يا عرقوص ، إن أردت العفو عنه فلا مانع لدى ، وإن عاد إلى عناده وعدائه جعلته عبرة بين الروم ، فقال الرقشوان : إنى لكم عبد خاضع وإن حصل منى ما تكرهون فافعلوا بى ما تشاءون ، فتركه شيحة وجاء بنصير النمر ، فالتفت إلى عرقوص وقال : اشفع لى عند شيحة وأعتقنى من عذابه على أن أكون عبدك وفى طاعتك ما دمت حياً ، وإن كان قد فرط منى ما يغضبك فأنت أهل لكرم النفس والعفو عند التوبة والندم ، فقال شيحة : إن أحببت العفو عنه أكرمته بالعفو من أجلك ، على شرط أننى إن قابلته فى أى مكان وليس معه تذكرة منك قتلته وإن

كان فى مجلس الملك الظاهر ، فقال عرقوص: أسمعت يا نصير ؟ فقال : سمعت وأطعت ، فقال: وعلى شرط أن تكون على دين الإسلام، فقال: وأنا الآن على دين الإسلام حقًّا، ونطق بالشهادتين فعفا عنه شيحة، وقال عرقوص للرقشوان : خذ جوان والبرتقش وضعهما فى السجن ولا تعتقهما إلا بأمر من جمال الدين شيحة، فقال : سمعاً وطاعة، وقال البرتقش : أعطونى جوان، وسأذهب به إلى بحيرة يفرة على ألا تطأ قدمه مدينة الرخام أبداً . وإن حاول الذهاب إليها قتلته ، وكان البرتقش صادقاً عند شيحة ، فأطلقهما وأخذ البرتقش جوان ومضى به إلى بحيرة يفرة . ثم كتب عرقوص كتاباً إلى وزيره فى مدينة الرخام ولى فيه نصيراً مدينة الرخام وجعله فيها الحاكم المطلق الذى لا ينازعه منازع وقال : خذ هذا الكتاب إلى وزيرى وخذ معك زوجاتى الثلاث ليقمن فى المدينة مكرمات فقال : سمعاً وطاعة .

ودخل نصير مدينة الرخام ولبث حاكماً فيها، أما عرقوص فإن شيحة عرض عليه أن يمضى معه إلى الملك الظاهر ليصلح بينهما فقال : لن أعود إلى بلادى حتى أرى أبى معروفاً أمامى، فقال شيحة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم تركه وانصرف .

٦

أخذ عرقوص سبيله فى القفار حتى بعد عن بلاد الروم والعرب ، فوجد نفسه وحيداً فى أرض خالية قفراء تحيط به الجبال من كل ناحية ، تفح ناراً من وقدة الحر ، فتضرع إلى الله وقال : يا رب إن ذنبى عظيم ، وإن لم تدركنى بلطفك هلكت ، فاغفر لى خطيئتى وارحمنى فإنك غفور رحيم ، ثم مشى قدماً وهو لا يدرى أين يذهب وسلك طريقاً واسعاً بين بحرين ، فجعل يمشى والطريق يضيق رويداً رويداً حتى كانت سعته ذراعاً ، فضاق صدره ، وأحس وحشة مفزعة ، فسمع صوتاً من خلفه يقول : شد حيلك يا ولدى ، لطف الله بك فيما قدره عليك ، فالتفت إلى ناحية الصوت فلم يجد أحداً ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، هذا جزاء من يعصى والديه .

ثم سار حتى انتهى به الطريق صباحاً إلى برية واسعة ، فوجد أناساً من الروم يلعبون ، ولما رأوه فروا من وجهه هاربين ، فأسرع حتى أدرك واحداً منهم وسأله عن هربهم حين رأوه ، فقال : هربنا منك لأنك عفريت من الجن ، فقال : إنى إنسان مثلكم ولست بعفريت ، فقال : هذا الطريق ما رأينا فيه إنساناً أبداً ، فلما جئتنا منه حسبناك عفريتاً ، فسأله : وما اسم مدينتكم ، ومن ملكها؟ فقال : كان اسمها مدينة المجير والبر

الطويل ، والآن اسمها مدينة التصاوير ، وملكها عبد الصليب ، فقال : اذهب إلى إخوانك وأصحابك وبلغهم أنى إنسان ولست بعفريت ، فأسرع إليهم وبلغهم ما قاله عرقوص فاطمأنوا .

دخل عرقوص المدينة واستأجر غرفة من خان وأقام فيها حتى فرغ ما معه من المال ، فطرده صاحب الخان وأوى إلى جانب الطريق واتخذه مقاماً وجعل يقتات من استجداء السابلة ، وكان قد براه الضعف وأنهكه الهزال .

وأقبل إليه فى جوف الليل والناس نيام شيخ وقال له : جنيت على نفسك بمخالفة أبيك معروف بن حجر الذى مات شهيداً ، ولولا دعاؤه لك باللطف فيما قدره الله عليك لكنت من الهالكين ، فخذ هذه الثمرة منى وأنا عبد الله المغاورى ، ثم اختفى ، فأكلها عرقوص وأحس العافية تدب فى جسمه ، فحمد الله ورجا عنده الخير ، ولما مضى من الليل ثلثاه جاءته امرأة وقالت له : تعال معى يا سيدى فلن تجد عندى إلا كل خير لك ، فسار معها وأدخلته بيتها وأدخلته الحمام فاغتسل ولبس ثياباً نظيفة من عندها وأحضرت له طعاماً فاخراً فأكل حتى شبع ، ثم سألها : من أنت يا سيدتى ؟ فقالت أنا امرأة صاحب الخان الذى طردك ، وجاءنى شيخ منير الوجه وقال : يا مريم أنت من أهل السعادة فادخلى فى دين الإسلام واذهبى إلى ابنى عرقوص فى مكانه من الطريق وأكرميه فإنه غريب ولا حول له ولا قوة ، فذهبت إليك وفعلت ما رأيت ، وهأنذا أجدد

إسلامى أمامك ثم نطقت بالشهادتين ، فقال : وجب عليك الآن أن تمتنعى عن زوجك ، فقالت : ما قرب منى أبداً ، ثم أخذته إلى مكانه من الطريق وجلس فيه نهاره ، وظلت على هذه الحال سبع ليال ، وفى اليوم الثامن نادى المنادون فى المدينة وقالوا : يا أهل المدينة ، ادخلوا مساكنكم فإن مريم بنت الملك ذاهبة إلى قصرها فى البستان ، وليحذر كل منكم أن يكون فى طريقها وهى سائرة .

دخل أهل المدينة مساكنهم وأقفرت طرقها من كل غاد ورائح ، وسارت مريم فى موكبها إلى قصرها ، فمرت بعرقوص وكان قابعاً فى مكانه من الطريق ، فجاءته عجوز من جواريها وقالت له : أما سمعت النداء؟ وكيف عصيت الأمر وجلست فى طريق ابنة الملك ؟ ثم ضربته وأوجعته ، ورأت مريم منها ذلك ، فأشفقت عليه وقالت للعجوز : ماذا جنى هذا الرجل الضعيف حتى تضربيه ؟ وأوسعتها تأنيباً وأوجعتها ضرباً ، ثم مضت قدماً فى سبيلها إلى قصرها ، وتبعها عرقوص حتى جلس أمام باب القصر وانتظر ما يفعله القدر ، ورأته من نافذة قصرها فأمرت بإحضاره أمامها ، فلما حضر أمامها نبض قلبها بالميل إليه والعطف عليه ، فأكرمته وأنست إليه ثم سألته : من تكون ؟ ومن أين أنت ؟ وما قصتك؟ فأخذ يسرد عليها قصته فى عبارات مؤثرة تلهب المشاعر وتهيج العواطف والأحاسيس ، وجاء فى خلال حديثه أنه يدين بالإسلام ، فقالت : ألا تحب أن تعرفنى بدينك هذا ، فجعل يسرد عليها مزاياه وشرائعه ويتلو عليها آيات بينات

من القرآن الكريم، فامتلأ قلبها بحبه وانشرح صدرها له ، وقالت : لقد أحببت الإسلام وأردت أن أتخذه لى ديناً فأدخلنى فيه ، فعلمها النطق بالشهادتين ، واتخذته رئيس الخدم فى قصرها حتى تدبر الأمر للزواج منه عن طريق أبيها .

واتفق أن مات وزير أبيها فجعلت مريم تثنى على عرقوص وتبين لأبيها ذكاءه وأصالة رأيه حتى اتخذه وزيراً له ، فوجد منه ما حببه إلى نفسه وعرض عليه أن يزوجه مريم ابنته ، وصارت هذه رغبة فى نفسه ، وتم الزواج وعاش عيشة راضية هنيئة .

وذات يوم قدم سبع الأندلس وزير محمد ملك مراكش ومعه خمسمائة جندى مغربى يطلب الخراج من ملك مدينة الهجير عبد الصليب ، فعسكر أمام المدينة وأرسل إلى عبد الصليب كتاباً يطلب فيه الخراج السنوى ، فلما قرأه الملك أمام عرقوص كتب إليه وقال : قد كنت تأخذ الجزية من هذه المدينة وليس لها حام يحميها ، ولكنها الآن فى حوزة حام لها لا يرضى المذلة بدفع الجزية ، فإما انصرفت معافى فى بدنك وجندك ، وإما جعلت السيف بينى وبينك حكماً ، ثم ناول رسول الوزير الكتاب وأمره أن ينصرف به إلى وزيره ، ولما قرأ الوزير سبع الأندلس الكتاب أرسل رسوله وقال : لن أرجع دون الجزية وليبرز إلى هذا الحامى غداً .

وفى الصباح كان عرقوص وسبع الأندلس فى الميدان ونشبت بينهما مبارزة تعلقت لها الأنفاس فى الصدور ، وانفرجت عن قبض عرقوص

على سبع الأندلس فقال له : أنت وزير وأنا وزير ، ولا حاجة بنا إلى أن يقتل أحدنا الآخر من أجل مال لا تفيد منه شيئاً فارجع إلى مليكك وبلغه ما حصل، وإن كان مصرًّا على طلب الجزية فليحضر هو نفسه وليأخذها بحد السيف ، فوجد سبع الأندلس فى قول الوزير وجه الحق ، وانصرف بجنده إلى مليكه و بلغه ما وقع . وزاد عرقوص فى نفس عبد الصليب بهذا محبة وجميل تقدير .

أما الملك الظاهر فقد جاءه إسماعيل أبو السباع أخو معروف بن حجر وقال : كان لأخى معروف ابن فأين هو الآن ؟ فحكى له الملك قصة عرقوص وقال : ما رأيته منذ مدة طويلة ، فقال إسماعيل : سأسيح فى الأرض مفتشاً عن ابن أخى حتى أجده أو أقف على خبره ومصيره ، فقال الملك : وأنا معك ، وقال إبراهيم وسعد : ونحن معكما .

أناب الملك ابنه السعيد فى الملك وخرج هو وإسماعيل وإبراهيم وسعد يفتشون عن عرقوص، وجدوا فى المسير يقطعون الفيافى والقفار حتى أشرفوا على جبل مرتفع فصعد فيه إبراهيم حتى كان فوق ظهره و رأى من خلفه جنوداً مسلمين فنزل إليهم وسألهم عن أمرهم فقالوا : نحن جنود ملكنا محمد صاحب مراكش وقد رحل بنا للجهاد ، ، فقال وأين خيمة ملككم ؟ فدلوه عليها، فذهب إليه وسلم عليه وقال : إن معى ثلاثة فرسان فهل تقبلنا مجاهدين معك ونحن مسلمون ، فقال : أقبلكم إن كنتم صادقين ، فقال : سترى منا جهاداً لم تره فى بطل من أبطال جندك

والله شهيد على ما أقول ، فقال : اذهب وائتنى بهم ، فرجع إبراهيم إلى الملك ومن معه وأخبره بما حصل ثم قال : نحن نسير فى الجيش مؤتنسين به حتى نكون فى العراق ، ونحن بعد ذلك وما نريد ، فذهبوا معه إلى ملك المغرب ودخلوا عليه ، وكان الملك الظاهر ذا هيبة ووقار فسأل محمداً صاحب المغرب وقال : ولأى شىء رحلت بجنودك ، فحكى له قصة الجزية وما وقع بين عرقوص ووزيره ، وأن ملك مدينة الهجير حرضه وزيره عرقوص على أن يمتنع عن دفعها إلا بحد السيف ، فعرف الملك وأصحابه أين عرقوص فاطمأنوا وكتموا ما عرفوا فى نفوسهم ، وصحبوا الجيش حتى عسكر أمام مدينة عبد الصليب التى فيها وزيره عرقوص ، وأشار الملك الظاهر إلى أن يكتب إلى عبد الصليب كتاباً بيده وخطه على لسان محمد صاحب مراكش فقال له : ذلك أسلم طريق وأحسنه حتى نتيح له فرصة حقن الدماء ، فكتب الظاهر بيده :

من محمد صاحب مراكش إلى عبد الصليب صاحب مدينة هجير ، السلام على من اتبع الهدى : أما بعد فأرسل إلينا حامى مدينتك الذى حضك على منع الجزية لنعرف له بالسيف قدر نفسه حتى لا يبغى على غيره ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، ثم بعث إبراهيم بكتابه هذا بعد أن ختمه بخاتمه .

ناول إبراهيم عبد الصليب الكتاب فقرأه ثم دفعه إلى عرقوص وكان جالساً معه وعرف إبراهيم وأطرق برأسه فلما قرأ الكتاب عرف خط الملك الظاهر فغرق فى حيرة . ودار بخلده : هذا إبراهيم نفسه ، وهذا خط الملك الظاهر بيده ، فكيف يكون على لسان محمد صاحب مراكش ؟!

وكيف يكون رسوله إبراهيم ؟ ! ثم قال : غداً يأتيكم حامى المدينةويبارز ملككم ، والحكم للسيف ، وكتب عرقوص إلى الملك بهذا وأخذه إبراهيم ورجع ، وقد عرف عرقوصاً أيضاً ولكنه كتم معرفته .

قرأ محمد صاحب مراكش الكتاب وبات على نية القتال ، وعرف إبراهيم الملك الظاهر أن عرقوصاً هو الذى كتب الكتاب وأنه لا بد أن يكون قد عرفنى كما عرفته وأخفى تلك المعرفة فى نفسه كما أخفيتها فى نفسى ، فقال الملك الظاهر : لن يبرز إليه فى الميدان غداً أحد غيرى ولن يكون إلا الخير .

وفى الصباح كان عرقوص فى الميدان ، فجاءه الملك الظاهر على جواده فما كاد يقرب منه حتى سمع إبراهيم يقول : يا عرقوص ، أمامك الملك الظاهر ملك العرب ، فنزل عرقوص عن جواده وأكب على قدمه يقبلها ، وهوى الملك على رأسه فقبلها وقال له : اركب جوادك يا عرقوص وامض إلى أهلك وقومك العرب ، فمضى مسرعاً إلى جيش محمد صاحب مراكش واجتمع بإبراهيم وسعد وإسماعيل عمه .

ثم رجع الملك الظاهر على أثره ، وساد الفريقان سكون شامل قطعه قدوم عبد الصليب إلى الملك الظاهر فحياه وجلس ثم قال : إن عرقوصاً زوج ابنتى ووزيرى وقد أسلمت وآمنت وأحب أن أكون من رجالك وخدمك ، فسموه عبد الله ، وعرف محمد صاحب مراكش أن هذا الملك الظاهر فأقبل إليه وقبل يديه واعتذر له أن لم يكن يعرفه ، وأقام الملك الظاهر عبد الله على مدينة هجير وساد السلام وزال الخصام وأصر

الملك محمد أن يسير الملك الظاهر معه إلى مراكش فلبى دعوته، ورحل معهم عرقوص بعد أن وصى عبد الله أن يحافظ على زوجته مريم ابنته حتى يأتيه ويأخذها، ثم ودعهم عبد الله وارتحلوا إلى مراكش، وبعد أن مكثوا بها أياماً ضيوفاً مكرمين ارتحل الملك ومعه أصحابه وعرقوص إلى مدينة الرخام فاستقبلهم نصير النمر ووزيره أروع استقبال ، ثم لبثوا فى المدينة أياماً وترك عرقوصاً فى مدينته ورجع إلى مصر وأقام مطمئناً هادئ البال لا يعكر صفوه حادث .

وذات يوم جاءه وزير ملك برشلونة وناوله كتاباً وجد فيه :

من سيرون الراهب والملك مرتين الأبرش إلى ملك المسلمين ، اعلم أن حامل كتابنا هذا وزيرنا مرين ،ومعه لكم صندوق من المال ، به ألف ومائتا كيس ، وكل كيس به ألف دينار ذهباً ، وذلك لتسمح لنا بدخول كنيسة مريم التى بالشام ، والإقامة بها ثمانية أيام من يوم الأحد إلى يوم الأحد الذى يليه ، وإذا لم تسمح لنا بذلك فقد حكمت فيما تملك ، وما لنا عليك من سبيل ، ولك الشكر على أية حال ، فسمح لهم بما طلبوا على أن يكون عددهم أربعين ،وأعطى مرين كتاباً بذلك ، فأخذه وانصرف .وعلم الوزير شاهين بعد سفر مرين أن الملك سمح لهم بدخول الكنيسة فقال له : لقد طلب الروم من جميع الملوك الذين تقدموك دخول الكنيسة فما سمحوا لهم به ، ولا قبلوا أموالهم ، فقال : ليتنى كنت أعرف ذلك ، ولكنى لا أرى ضرراً فيه . وما هى إلا زيارة لمعبد .

٧

وذات يوم جاء غلام إلى الملك الظاهر وقال له : لقد رأيت حلماً ، فجئت لأقصه عليك ، فقال الملك : اقصص علينا رؤياك .

قال : رأيت فى المنام رجلا جاءنى وقال : أنا الصالح أيوب ، فإذا استيقظت من منامك فاذهب إلى الملك الظاهر وقل له : إنك سمحت للروم بزيارة الكنيسة والمقام فيها ثمانية أيام وقد أخذوا منها السيف والقلنسوة ، ثم اختفى ، وانتبهت من نومى فلما جاء الصباح قدمت إليك وبلغتك .

فلبث الملك يفكر فى هذه الرؤيا وفى السيف والقلنسوة حتى جاءه شيحة فقصها عليه فقال : أما القلنسوة فإذا لبسها إنسان اختفى عن الأعين وأما السيف فإنه حاد قاطع ، وقد مكنتهم من أخذهما ويستطيع أحدهم أن يلبس القلنسوة ويمسك السيف ويقتل من يشاء منكم دون أن يراه أحد . فقال الملك : ذلك قضاء الله ونسأله اللطف فيه ، وهو ولينا وحسبنا .

وفى يوم من الأيام جاءه كتاب من صاحب الإسكندرية يضج بالشكوى من أنه ظهر فى المدينة سيف يقتل دون أن يراه أحد ، فبينما ترى الشخص واقفاً أو ماشياً إذا رأسه يسقط على الأرض دون أن ترى أحداً ضربه ، وطلب من الملك أن يتدارك هذه الحالة وإلا كانت طامة كبرى على الأهلين . فقال إبراهيم : ما أظنه إلا سيرون الراهب ، وقد

جاء إسكندرية بالسيف والقلنسوة، اللذين أخذهما الروم من الكنيسة . فقال الملك : وجب على أن أذهب إلى الإسكندرية وهناك يفعل الله ما يشاء ، فقال عثمان : وإنى ذاهب معك يا أشقر ،وأصر إبراهيم وسعد على أن يصحباه إليها .وجاءهم إذ ذاك رجل فداوى اسمه عمار القدموس صاحب قلعة القدموس، فقال : جئتك سائلا عن شيحة راغباً فى ملاقاته لأعترف له بالطاعة والولاء ، فقال : وما سبب ذلك ؟ فقال : كنت أجوب بلاد الروم فسمعت طفلا يبكى ، فجعلت أمه تسكته وتخوفه بالمسيح وبالبطريق وبمريم والصليب فلا يعبأ الطفل ولا يسكت عن بكائه، فقالت له : إن لم تسكت أحضرت لك شيحة ،فسكت فى الحال ، وانزوى فى صدرها خوفاً ورعباً ،فقلت فى نفسى إذا كان الطفل يخاف شيحة ويخشاه أفلا نطيعه نحن ونخشاه؟ ولهذا جئت باحثاً عنه لأكتب اسمه على سيفى اعترافاً بالولاء له، فقال الملك : إنه غير حاضر الآن ، وإنى ذاهب الآن إلى الإسكندرية لأنظر ما يفعله الروم فيها من المكائد، فقال : خذنى معك فعسى أن أجد شيحة ، وإن جاءتنى منيتى مت شهيداً وهذا ما أتمناه لأحظى بالسعادة فى الآخرة، فقال الملك : توكل على الله .

وساروا جميعهم حتى كانوا فى الإسكندرية ، فوجدوها خالية من الغادى والرائح يخيم عليها السكون كأنها مقبرة من المقابر ، فوقفوا فى شارع من شوارعها يتساءلون عن هذه الحال ، وإذا برجل يقول لهم من وراء باب منزله : أيها الناس، إن كنتم غرباء فاختفوا فى مكان وإلا طارت

رءوسكم من فوق أجسامكم ، فقال إبراهيم : أسمعت أيها الملك ما قاله الرجل ؟ فقال الملك : لا يقع إلا ما أراده الله ، وما انتهى من قوله هذا حتّى رأوا رأس عمار القدموس طار من فوق جسمه ، فقال عثمان : علام الانتظار ؟ هيا إلى المخبأ ، فدخلوا خاناً وأغلق صاحبه بابه ، ولبثوا فى الخان يومين كاملين وهم لا يهتدون إلى رأى فى هذه الحال الأسيفة المفزعة ، ثم بلغهم أن القتل قد زال وانقطع فخرجوا من الخان ومضوا إلى ديوان الحكم وأقاموا فيه ، و بعد يومين جاءهم أن القتل الخفى ظهر فى مصر ،[1] وأن أهلها يستغيثون بالملك ، فرحلوا إليها ومنذ دخلوها وقفت حركة القتل ، فلبث الملك يرتقب ما أراده الله ، وحاول صاحب السيف أن يقتل الملك فى ديوانه سبعة أيام متواليات ، ولكن الله كان يشعره به فيتوارى و يزوغ من طريقه ، فقال الوزير : يجب ألا تجلس فى الديوان ولا تدخله لأن القاتل جاء فى طلبك ولا يقصد غيرك ، وتقيم فى البيت بعيداً عن متناول يد هذا القاتل الأثيم حتّى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فامتنع عن الحضور إلى الديوان ثلاثة أيام ، وعرف هذا سيرون الراهب الذى يلبس القلنسوة و يطلب الملك ليقتله ، فذهب إلى دير فى مصر العتيقة وأقام فيه حتّى يفهم الملك أن القتل قد بطل فيأمن على نفسه و يحضر إلى الديوان كعادته وحينئذ يذهب إليه و يقتله ، و يسلم رأسه إلى جوان ، ولما سئم الملك من انقطاعه عن الديوان دعا عثمان إليه فلما حضر قال له : ماذا ترى فى هذه الحال ؟ تعال معى لنزور

---

(١) يقصد القاهرة .

السيدة نفسية فى قبرها ، فإنّ لها نفحات مباركات ، والله خالق كل شىء وهو على كل شىء قدير : فركب جواده وأخذ عثمان معه إلى قبرها وجلس إليه وقرأ القرآن وأخذته سنة من النوم فرأى السيدة نفيسة تقول له : إذا استيقظت من منامك هذا فامض قدماً إلى باب الفتوح وستجد هناك خاطاً اسمه بيبرس وأصله من طرابلس ، فإذا كنت عنده فافعل ما يأمرك به فإن قضاء الله نافذ فيه . ثم استيقظ وخرج من مسجد السيدة نفيسة وركب جواده فقال عثمان : أتذهب إلى الخياط الذى عرفتك به السيدة يا أشقر ؟ فقال : نعم يا عثمان ، ثم سار حتى كان أمام دكانه فسلم عليه ، فرد الخياط عليه السلام وقال له : اقعد يا سيدى حتى أقضى حقوق الناس ، ثم أحضر أحد جيرانه وأخرج له الملابس وقال هذا لفلان وهذا لفلان . . . فإذا حضرا فأعط كل ذى حق حقه ، لأنى مسافر إلى أمر دعيت إليه ، وإذا حضرت زوجتى فأعطها مفتاح الدكان وهذه التذكرة لتذهب بها إلى الملك الظاهر فى ديوانه ، لأن عنده أجرة خياطة ، ولا يعطيها إلا بهذه التذكرة ، ثم صحب الملك ورجع به إلى الديوان ، وقال له : ادخلنى حجرة الجلوس ، ولا يكن معى فيها أحد غيرك ، ففعل الملك ما أمر به وكانا معاً فى حجرة الجلوس وأغلقت عليهما ، فطلب الخياط ملابس السلطان فأحضرها بين يديه ثم لبسها الخياط ووضع على رأسه عمامة كعمامته ، وطلب مرآة فأحضرها ونظر فيها فوجد نفسه كأنه الملك الظاهر لا يكاد يختلف عنه فى شىء ، وإذا رآه أحد لا يظن أنه

غير الملك الظاهر ، ثم قال للملك : قم الآن إلى مكان خفى ، واستخف فيه واحذر أن يعلم بك أحد غير الله، وخذ معك فى هذا المكان ما يكفيك من الطعام والشراب ثلاثة أشهر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وبعد ذلك تخرج كعادتك وتقوم بشئونك وشئون دولتك، والله يفعل ما يشاء ، له الحكم وإليه المصير . فقال : سمعاً وطاعة ، ونهض إلى غرفة كانت معدة من قبل للمقام فيها ، فهى مجهزة من الداخل بمرحاض ومكان للصلاة والعبادة ومكان للنوم ، فأدخل فيها الطعام والشراب ، وجعل لها أقفالا من الداخل ، ثم دخلها وأغلقها . كل أولئك كان سرًّا لا يعلمه أحد . وكان ذلك ليلا ، وفى الصباح فتح باب حجرة الجلوس ودخل عليه رجال الدولة فكان الملك الظاهر ولم يرتب فى ذلك أحد ، وجاءته زوجته فى هذا اليوم ووقفت بالباب حتى يؤذن لها بالدخول . ولما دخلت عليه ناولته التذكرة لتأخذ أجرة الخياطة التى عند الملك لزوجها ، فنظر فيها وجعل لها مرتباً شهريًّا مدة الحياة من بيت المال ، وسميت فى سجل المعونة « أم العيال » ، ثم رجعت وهى تشكر للملك الظاهر عطفه على الفقراء وجميل إحسانه ، وعكفت فى منزلها تنتظر عودة زوجها من سفره ، ثم ركب إلى الجمالية ، وأمر رجال الدولة أن يبنوا له مسجداً فيها فى أقصر زمن ، فجمعوا له المهندسين والبنائين والعمال وأتموه فى ستين يوماً ، وبعد أن أتموا بناءه أمرهم أن يدفنوه فيه بعد موته .

ثم أمر أن يفتح الديوان ويجتمع المجلس للحكم والنظر فى أمور الدولة

فاجتمع رجال الدولة . وجلس هو على كرسى الملك، وأخذوا يتشاورون فيما عرض عليهم من الأمور وإذا سيرون الراهب قد دخل المجلس ولم يره أحد من الجند والحرس ورجال الدولة، وإذا هم يرون رأس الملك قد طار، وأن الضارب اختطف الرأس وخرج به ، فهاج المجلس وماج وذاع نبأ قتل الملك الظاهر وشمل الحزن عليه جميع الناس قريبهم وبعيدهم قاصيهم ودانيهم، ثم غسلوه ودفنوه فى مسجده الذى بناه بالجمالية ، واجتمع أبناؤه ورجال الدولة واختاروا ابنه السعيد ملكاً عليهم، وأصر على إحضار رأس أبيه الظاهر من برشلونة وأن يثأر لأبيه ممن قتله .

وكتب إبراهيم إلى الولاة وبنى إسماعيل وعرقوص ليجمعوا جيوشهم بالشام لمعونة الملك السعيد ، ولما تم جمعهم رحلوا إلى برشلونة وعسكروا أمامها .

أما سيرون الراهب فإنه رجع إلى الملك مرتين وجوان يحمل رأس الملك الظاهر ، ففرحا فرحاً عظيماً وقال مرتين : ما رأيك يا جوان بعد هذا ؟ فقال : أصبح العرب أوهن من خيوط العنكبوت ، فاكتب إلى ملوك الروم ليأتوك بجيوشهم فإذا اجتمعوا غزوت العرب وملكت أرضهم وجلست على عرش ملكهم ، فقال : اكتب إليهم يا جوان بما أشرت ، فجعل يكتب ومرتين يختم بخاتمه ، ثم بعث بها الرسل إلى ملوك الروم ، وبعد أيام كانت برشلونة غاصة بجيوش لا حصر لها ، وحضر السعيد بن الظاهر بجيوشه فوجد برشلونة كأنها فى يوم الحشر المجموع له الناس . فاعتمد على الله

وعسكر أمام المدينة .

عرف الملك الظاهر أن الجيوش قد رحلت إلى برشلونة لإحضار رأسه والثأر له من قاتله فطلع من حجرته خفية ورجع ومعه المملوك ريحان وأغلق الباب ، ثم قال له : إن أنت أذعت أمر وجودى قطعت رأسك ، ففرح المملوك بملكه وقال : سمعاً وطاعة ، ثم أمره أن يأتيه بملابس درويش عجمى سرًّا ، فلما جاءه بها لبسها وخرج متنكراً فيها مستخفياً ، وسافر إلى برشلونة ، وهناك نزع عنه تلك الملابس وتنكر فى ثياب تاجر من تجار المدينة ودخلها وأخذ يجوس خلالها ، وبينما هو سائر فى طرقاتها سمع رجلاً يقول لصاحبه إنى أريد أن أدخل قصر مرتين الملك لأسرق شيئاً من ماله بدلا من خنازيرى التى غصبها منى ، فقال له : إن أردت أن تدخله وأنت آمن فاذهب إليه بعد الغروب ، وستجد جميع الرجال والخدم غرقى فى غشية من السكر لا يعى أحد منهم شيئاً إلا البطريق مرقبون الذى يعلم صفية بنت الملك مرتين الأبرش ، فعزم الملك على أن يدخله فى ذلك الوقت .

دخل الملك الظاهر قصر مرتين الملك وجعل يجوس خلاله حتى سمع البطريق مرقبون يقول : يا صفية ، يقرب الروم القرابين لتدفع عنهم كل غارة ، وأم قويق قبل أن تلد ابنها قويقاً كان اسمها قويقة ،وأبو فصادة قبل أن يلد ابنه فصادة كان اسمه فصاد . هل حفظت ؟ فقالت : نعم ، فقال : أيهما أعظم عندك مرتين أم سيرون الراهب ؟ فقالت : يا أبانا ، مرتين

صاحب الملك ، وسيرون خادم له ، فقال : ولكن سيرون الراهب دخل بلاد العرب وأحضر من كنيسة مريم السيف والقلنسوة وقتل الظاهر ملكهم ، فقالت صفية : لم يُقتل ملك العرب الظاهر ، ولكن الذى قتل رجل يشبهه ، وسيأتى الملك الظاهر مدينة برشلونة ويسمع من فتاة فيها كلاماً ثم يخرج منها إلى جزيرة التلاحمة ، ويلتقى بالبطريق صاحب بيت لحم فيدله على بركة بجانب الدير ، ويخرج منها خاتم الكشف ، فيأخذه ويجىء به إلى مدينة برشلونة ، ويقتل سيرون الراهب ومرتين الأبرش أبى ، ويستولى على جميع بلاده ، وسيتزوجنى أحد أبناء العرب اسمه محمد ، وربما حكيت لك هذا والملك الظاهر يسمعنى ، فغضب البطريق من قولها وصفعها على وجهها وحذرها أن تحكى ما قالته لأحد .

سمع الملك الظاهر قولها فخرج من برشلونة مسرعاً ومضى قدماً حتى كان فى جزيرة التلاحمة ثم ذهب إلى الدير فطرق بابه ، فجاءه البطريق وفتح الباب وقال : أهلا بملك العرب ، فاندهش الظاهر وقال : وكيف عرفت أنى ملك العرب ؟ فقال : عرفنى سيدى الخضر وقال لى يا لفلفون سيأتيك الملك الظاهر غداً فأدخله الدير وبلغه حاجته التى جاء من أجلها ، واذهب به إلى البطريق الكبير وقل له : هذا الملك الظاهر الذى بشرك به أستاذك ، فبلغه مأربه لتكون من الفائزين .

فاطمأن الملك الظاهر وسار مع لفلفون إلى البطريق الكبير وقال : يا أبانا هذا الملك الذى بشرك به أستاذك ، فقال : أهلا وسهلا ، ثم أمر

لفلفون أن يأتيه بمطيته فجاءه بها وركبها وأخذ معه الملك الظاهر ولفلفون وخرج إلى بركة بجانب الدير . وأشار إلى مكان فى شاطئها وقال : احفر هنا يا ملك العرب فحفر حتّى عثر على أربعة أحجار، فقال له: أخرجها فأخرجها الملك ووضعها أمامه ، فأمره أن يلقى بواحد منها فى البركة فرماه فيها ففار ماؤها ، وأمره أن يلقى فيها الحجر الثانى فألقاه فزاد فورانه ، فأمره أن يرمى الثالث فيها فرماه فنقص ماؤها ، ثم قال له: ألق الحجر الرابع بشدة ، فألقاه فيها بقوة فغاض ماؤها ، وجفت أرضها وبان فيها مغارة فقال البطريق : ادخل هذه المغارة ، وستجد فيها كاتريون الحكيم نائماً على جنبه الأيمن ، فاقرأ له الفاتحة ، وادع له دعوة طيبة وسيمد إليك يده اليمنى ، فخذ الخاتم الفضى من خنصره ثم اقرأ له الفاتحة وارجع إلينا بظهرك ، فلما فعل ما أمره به البطريق وأخذ الخاتم قال له : توكل على الله وارجع إلى مصر من ميناء السويدية ، فإذا كنت فيها فاركب جوادك والحق بجيشك فإن نصره موقوف على وجودك معه ، فشكره الملك وسار حتّى وصل ميناء السويدية. وكان عبد الله المغاورى ينتظره، فقال له: يا ظاهر ، تعال عندى فى هذا المركب ، فذهب إليه وركب فى مركبه ، وقال عبد الله: باسم الله مجراها ومرساها ،وما هى إلا لمحة الطرف حتّى كان فى ميناء بلاق ،

فخرج إلى المدينة بعد أن ودعه عبد الله المغاورى وقال له : هات جوادك فإن الله قرن النصر بعنانه،ولما وصل إلى قلعة الجبل أمر عثمان أن

يأتيه بجواده، فقال: الجواد معد لركوبك فامتطاه، وأخذ طريقه إلى الشام.
ومن هناك سار إلى برشلونة، وعثمان يتبعه كأنه ظله، وكان إبراهيم قائماً على حماية خيمة الملك محمد السعيد ابن الملك الظاهر، فلما رآه قادماً إليه وعثمان من ورائه اندهش وقال: قف مكانك، من أنت؟ فقال: أنسيتني يا إبراهيم؟! أنا الملك الظاهر، فقال: الملك الظاهر قتل فى ديوانه، وهذا رأسه معلق على سور برشلونة، وقد جئنا للأخذ بثأره، وتخليص الرأس من أيدى الروم المعتدين، فقال: ذلك ما بدا لكم وللروم، ولله فى خلقه شئون، وقال عثمان: هات يا إبراهيم ابن الملك ومن معه من الولاة لاستقبال الأشقر، واترك هذا الجدل إلى وقت آخر، فذهب إبراهيم وأذاع بين الجيش نبأ قدوم الملك الظاهر، فخف إليه ابنه والولاة وأطلقت المدافع ودقت الطبول وعزفت موسيقى الفرح، وهبت فى الجيش ضجة ابتهاج وسرور.

وأحس هذا جوان فقال للبرتقش: إن العرب فى حزن أليم لقتل ملكهم الظاهر، ولكنهم فرحوا فجأة، فامض إليهم وجئنى بخبرهم، فغاب البرتقش إلى نصف الليل ثم رجع إلى جوان وقال له: بشراك يا جوان، فقال: بشرت بالخير يا برتقش فماذا أتيت؟ فقال: قدم إلى جيش العرب ملكهم الظاهر، وما فرحهم الذى شعرت به إلا بقدومه، فقال: ولكن سيرون الراهب قتله فى ديوانه وجاءنا برأسه، فقال: ومن الذى يمشى خلف العربة التى تحمل جثتك

بعد أن يقطعها شيحة ويمزقها كما حدثنا كتاب اليونان ؟ فإن أطعتنى فقم لنهرب قبل أن تذوق العذاب بالسوط من يد شيحة كما ذقته من قبل ، فقال جوان: اسكت فما أشأم خبرك، ثم نهض إلى سيرون الراهب ومرتين الأبرش وقال لسيرون : أتأتينا برأس مملوك وتدعى أنه رأس الملك الظاهر ، إن الظاهر فى جيشه الآن وهم فرحون بقدومه ، فماذا نفعل ؟ فقال سيرون ، لقد قتلت الظاهر وهو جالس على كرسى ملكه فى ديوانه وجئتكم برأسه ، وقد يكون المسيح قد أحياه ورد إليه رأسه ، فقال جوان: لا يزال الرأس الذى أتيتنا به معلقاً على سور المدينة ، ولم يأخذه المسيح ولا غيره ، فقال سيرون : إذا كنت قد قتلت غيره خطأ فإنى سآتيكم برأسه غداً .

بات سيرون على أحر من الجمر، وبيت فى نفسه أنه قاتله لا محالة؛ وفى الصباح لبس القلنسوة وحمل السيف ومضى لا يراه أحد، ودخل على الملك وهو جالس فى خيمته بين أمرائه ووزرائه، فلما رآه الملك قال : أمسكوه وفزع إلى سيفه وهم به ليقتله فخاف سيرون وفر هارباً، ودخل على جوان ترتعد فرائصه ، فسأله : ماذا بك يا سيرون ؟ فقال: ما أظن إلا أن الظاهر ملك العرب حصل على خاتم الكشف فلقد رآنى وهم أن يقتلنى ، ولولا أنى لذت بالفرار لكنت من الهالكين، فقال جوان : خدعك العرب وسخروا منك وما أظنك قادراً على أن تكيد لهم، فقال سيرون : لن أسكت عنهم حتى أنال منهم مأربى، ثم لجأ إلى الطلاسم والسحر حتى كان فى صورة شيحة وهيئته، ومضى إلى الظاهر بعد

العشاء، فاستقبله الملك على أنه جمال الدين شيحة ولما جلس سأله عن غيبته فجعل يرضى رغبته بزخرف من قوله ، ثم قص عليه الملك قصة سيرون وما فعله وكيف حصل هو على خاتم الكشف وأن سيرون هرب منه بعد أن رآه وهم بقتله ، فقال سيرون : والآن معك الخاتم؟ فقال: نعم، ها هوذا ، ثم نزعه من يده وناوله إياه، فأخذه ووقف قائلا: إن رأيت وجهى من غير رأس سيرون الراهب فما أنا جمال الدين شيحة. ثم تركه وخرج .

ودخل على أثر خروج سيرون جمال الدين شيحة فقال الملك : لماذا رجعت وليس فى يدك ما وعدتنى به ، فقال : ما وعدتك بشيء فقال : ألم تكن عندى هذه الساعة ، وأخذت خاتم الكشف منى وقلت لى : لن ترى وجهى دون أن يكون رأس سيرون الراهب فى يدى؟ فقال شيحة : أخبرنى بقصتك ، فقال : أنت كنت عندى الآن ، فقال : فهمنى حقيقة الأمر ، فقال الملك: لا أدرى الآن هل أنا فى يقظة أو فى منام ؟ فأدرك شيحة الواقع ونهض قائماً وخرج قاصداً المكان الذى فيه جوان ، فدخله قبل أن يعود إليه سيرون ، ووجد البرتقش داخلا المرحاض فبنجه فيه ونزع عنه ثيابه ولبسها وجعل نفسه على صورته ، ثم دخل على جوان ، فقال يا برتقش أشعر الآن برعب وخوف ، فقال شيحة: إن سيرون الراهب أتى بخاتم الكشف من الملك الظاهر ، فقال جوان : بلغنا مأربنا من العرب ، وإذا سيرون داخل عليه فقال : خذ يا جوان

خاتم الكشف الذى كان مع الملك الظاهر ، فخطفه شيحة وقال : بهذا الخاتم كان الظاهر يراك ، فقال : نعم ، وقد احتلت عليه وأخذته منه ، فقال شيحة : اترك هذا الخاتم عند جوان ، واذهب الآن إلى الظاهر واقتله ، فإذا رجعت برأسه فخذ الخاتم من جوان ، فقال سيرون : لن أترك الخاتم عند أحد ولن أخطو خطوة من دونه ، فقال شيحة كما تريد ثم ناوله الخاتم — وكان شيحة فى هذه اللحظة قد بدل به خاتماً آخر على صورته — وقام سيرون ومعه الخاتم المزيف ولبس القلنسوة وحمل السيف ومضى إلى الظاهر ليقتله ، وسبقه شيحة ووقف بباب خيمة الملك ، فلما جاء سيرون وخطا خطوته إلى الخيمة ضربه شيحة بالسيف من خلفه وأطاح رأسه ، ثم أخذ منه القلنسوة والسيف ، وقال للملك : هذه القلنسوة ، وهذا السيف ، وهذا الخاتم ، وهذا رأس سيرون الراهب ، ففرح الملك وأمر أن يعلق رأس سيرون فى مكان مرتفع ليراه الروم ويبطل طمعهم فى العرب والظهور عليهم .

قام جوان إلى المرحاض ليقضى حاجته ، فلما فتح الباب وجد البرتقش منكباً على وجهه فيه وهو فى إغماءة عميقة ، فأعطاه شيئاً أيقظه ثم قال : لقد نزلت خلف سيرون الراهب ، فماذا جرى حتى أراك على هذه الحالة ؟ فقال البرتقش : ما رأيت سيرون الراهب ، ولكنى دخلت المرحاض ، وما شعرت بشىء حتى أيقظتنى ، ولا بد أن يكون هذا من كيد شيحة ، فقال جوان : لا بد أن يكون هو الذى كان عندى ونزل خلف

سيرون ، وهو ماض إلى الظاهر ليقتله ، فاذهب إلى جيش العرب واعرف لى خبر سيرون ، فإنى فى شدة الخوف عليه .

فذهب البرتقش إلى جيش العرب ووجد سيرون غارقاً فى دمه ورأسه على رمح فى مكان مرتفع أمام خيمة الملك الظاهر ، فعاد إلى جوان مسرعاً وقال : إن الملك الظاهر جالس على كرسيه فى خيمته ، وأما سيرون الراهب فقد قتل ووضع رأسه على رمح أمام خيمة الملك . وإن أطعتنى لذنا بالهرب .

وسمعا إذ ذاك ضجة هائلة تدوى فى الفضاء ، وكانت هذه الضجة لأن شيحة أمر جيش العرب بالهجوم على الروم فاشتعلت نيران الحرب وجعلت تأكل الروم حتى طلع الفجر ، وأحس الروم عجزهم وذلهم ، وكان شيحة قد دخل المدينة وأولاده محمد ونور ونوير ، فبنجوا مرتين الأبرش وجوان والبرتقش ، ثم دخل الظاهر المدينة وجنوده واستولوا عليها فى ضحوة النهار وجلس على عرش مرتين ، فجاءه شيحة ووضع بين يديه مرتين الأبرش وجوان والبرتقش مكتفين وفى غشية ثقيلة من البنج ثم أيقظهم ، فأمر الملك بقطع رأس مرتين فقتله إبراهيم أما جوان فإن شيحة آثر أن يضربه بالسوط وتركه ليموت الموتة التى قدرت له .

وكان لمرتين الأبرش وزير اسمه مرين وكان قد أسلم وأخفى إسلامه فدخل على الملك وعرفهم أنه دخل فى الإسلام منذ سنوات ولكنه كان يخفى إسلامه خوفاً من الروم ، فقال الملك إذا أردت أن ترحل إلى مصر

ومعك من أسلم من الروم فإنى أتخذك أميراً تقضى بقية حياتك معنا .

وأخذ العرب السبايا وفيهن صفية بنت مرتين وارتحلوا إلى مصر .

أما عرقوص فإنه ذهب إلى مدينة الرخام .

ولما استقر بهم المقام فى مصر زوج الملك ابنه محمد السعيد صفية بنت مرتين الأبرش بعد أن دخلت فى دين الإسلام . ثم أحضر شيحة الخاتم والسيف والقلنسوة للملك فقال : يا شيحة : لا بد أن نتلف هذه الأشياء حتى لا تقع فى يد عدو للعرب ، فقال : افعل ما شئت فأتلفها الملك .

ثم أخذوا يتبادلون الحديث فى كثير من الشئون إلى أن قال شيحة : جاء فى الأثر أن أحد الصحابة قال : بينما نحن جلوس عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحدثنا ونحدثه وإذا بطارق يطرق الباب ، فقال الرسول : أتدرون من الطارق ؟ فقلنا الله أعلم ورسوله ، فقال : إنه إبليس اللعين ، فقال عمر بن الخطاب : ائذن لى يا رسول الله أن أذهب إليه وأقتله ، فقال : أما علمت يا عمر أنه من المنظرين إلى يوم الدين ؟ افتحوا له الباب ، فإنه مأمور بالمجىء إلينا ، فقام أحد الصحابة وفتح له الباب فإذا هو رجل أعور غليظ الشفتين ضخم الرأس قصير القامة فقال : السلام عليكم ، فقال الرسول وعلى المؤمنين السلام ، لأى شىء جئتنا يا عدو الله ورسوله ويا عدو نفسه ؟ فقال إبليس : يا محمد أنت معصوم منى ،

فتبسم الرسول وقال : وما تقول فى أصحابى هؤلاء؟ فقال : أما أبو بكر فما كان يطيعنى فى الجاهلية حتى يطيعنى فى الإسلام ، وأما عمر بن الخطاب فإنى شارد منه ، وأما عثمان فإنى أستحيي منه ، وأما على فليتنى أسلم من سيفه ، وأما سائر أصحابك فقد تركتهم لأنى علمت سرائرهم. وما جئتكم إلا كرهاً، فقد أتانى ملك وقال : إن الله يأمرك أن تذهب إلى محمد وتخلص له النصح فيما يسألك عنه ، فقال الرسول : من أبغض الناس إليك ؟ فقال : يا محمد أنت أبغض الخلق إلى ، لأنك حين ظهرت بغضت الخلق فى ، فقال الرسول : ومن تبغضه بعدى؟ فقال : أصحابك ، فقال : ثم من ؟ فقال إبليس : الشاب التائب الذى لا يفتأ يجدد توبته كل يوم ، فقال : ثم من ؟ فقال : السلطان العادل ، لأن عدل يوم واحد يعدل عبادة سبعين سنه ، فقال : ثم من ؟ فقال : فقير صابر ، فقال : ثم من ؟ فقال : غنى شاكر ، فقال : ثم من ؟ فقال : عالم ورع ، فقال : وكيف حالك إذا سمعتهم يقرءون القرآن ؟ فقال : أذوب كما يذوب الرصاص فى النار ، فقال : وكيف حالك إذا رأيت أحدهم يتصدق ويعطى الزكاة ؟ فقال : كأنه يشقنى بالسيف نصفين، لأن المتصدق يبارك له الله فى ماله وفى عمره ويستجيب دعاءه، ويدفع عنه البلاء ، ويحشره فى ظل ظليل من صدقته يوم القيامة فتبسم رسول الله ، وقال : لله فى خلقه شئون ، وهو الذى بيده كل شىء وهو على كل شىء قدير .

٨

كان من الفداويين بطل شجاع اسمه نجم الدين الغيور وكان قد ساح فى الأرض مفتشاً عن معروف ، ولما أعياه البحث ولم يجده رجع إلى القلاع والحصون . ففرح أهله بقدومه بعد غيبته الطويلة ، وهنأه الناس بسلامته وعودته ، وقال لهم : ضل سعيي فى العثور على معروف ، وجبت كثيراً من البلاد والقفار بقدر ما هيأت لى طاقتى ورجعت بعد هذه الغيبة الشاقة بخفى حنين ، فحكوا له قصة معروف وأخبروه أنه مات وأن له ابناً اسمه عرقوص فقال : لعل ابنه سلطان القلاع والحصون خلفاً لأبيه ، فقالوا : إنه سلطان مدينة الرخام بأمر الملك الظاهر .

أما سلطان القلاع والحصون فهو جمال الدين شيحة ، فغضب وقال : لا سلطان لها غيرى ، وأين هو الآن ؟ فقالوا : إنه فى مصر عند الملك الظاهر يعينه على أعدائه من الروم وهو يبلو فى ذلك بلاء حسناً ، فقال : إنى ذاهب إلى مصر لألتقى بشيحة ، وأخلعه من ملك القلاع وإن جر ذلك إلى قتله .

رحل نجم الدين الغيور إلى مصر ، وسأل عن شيحة فدله الناس على بيته ، فارتقب الهزيع الأخير من الليل ، ثم تسلق منزله ودخل عليه فى حجرته فوجده نائماً على فراشه ، فجرد سيفه وضرب عنقه وفصل رأسه

عن جسده ، ثم خرج وبينما هو نازل من مكان صعوده سقط فى قفص من الحديد ، فحاول الخلاص منه فلم يستطع ، وأفزعه أن وجد القفص يضيق عليه رويداً رويداً حتى كاد يعصره عصر الثياب . وإذا بجمال الدين شيحة أمامه يقول :آنست الفخ يا أمير ،ومن أوقعك فيه ؟ فقال: ومن أنت يا هذا ؟ فقال : الفقير إلى ربه جمال الدين شيحة ، فقال : ومن الذى قطعت عنقه الآن ؟ فقال : ما قتلت إلا هرة أرحتنا منها ورحت أنت بذنبها ، فقال: ارج أنت الثواب وخلصنى ، فتقدم وحرك يديه فى القفص هنا وهنا ومسح وجهه بمنديل فبنجه ، ثم وضعه فى مكان من داره وتركه وخرج .

كان الملك الظاهر جالساً على عرشه فدخل عليه جمال الدين شيحة وحيا وجلس ثم قال : دخل علىّ الليلة رجل فداوى وأنا نائم فقطع رأسى ، فقال الملك : وهذا رأسك فوق جسمك ؛ فقال : كان عندى رأس قديم فوضعته مكان الذى قطعه ، فقال : وأين الرأس الذى انقطع ؟ فمد يده فى مخلاة معه وأخرج رأساً يشبه رأسه وقال ها هو ذا ، فقال الملك : ومن فعل هذا ؟ فقال : رجل فداوى اسمه نجم الدين الغيور ، وقد وقع فى المصيدة وتركته فيها ، فتعالوا معى وانظروه ، فإنه فارس جبار ، ولكنى لا أدرى أهو جاهل أم عاقل ، فقال : اذهب أنت وإبراهيم وسعد وائتونى به ، فذهبوا وحملوه ثم وضعوه أمام الملك وأيقظه شيحة ،فلما فتح عينيه قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،

أين أنا ؟ فقال إبراهيم : احذر يا نجم الدين أن يطول لسانك ، فأنت أمام ملكين الظاهر ملك العرب وشيحة ، فقال : نجم الدين : وماذا تريده منى ؟ فقال الملك : لم جئت مصر ؟ فقال : لأقتل شيحة ، فقال : وقد قتلته ثم قبض عليك وجاءنى بك فدونك وإياه ، وقال شيحة : أتطيعنى يا نجم الدين ؟ فقال نجم الدين : ما أنا ممن يطيع بالقول ، فقال شيحة : ألقوه فى السجن وغداً أريه منزلته ، فقال نجم الدين : نتبارى فى شىء فمن غلب منا كان هو السلطان ، فقال شيحة : وإن غداً لناظره قريب .

وفى الغد جاء شيحة وقال للملك هذا موعدنا أنا ونجم الدين فأحضره. فلما حضر قال شيحة : من استطاع منا أن يحضر القارورة التى فيها الكوكب الدرى من قصر الكاهن الأسود بجزائر الشفق كان السلطان وكان صاحبه تابعاً مطيعاً ، فقال نجم الدين ، قلت حقًّا يا شيحة وسأسافر لإحضارها ، فقال شيحة ، وسأسافر بعد سفرك بثلاثة أيام .

وخلا الملك بشيحة وسأله عن هذا الكوكب الدرى ، فقال : كان فى الزمن القديم كاهن اسمه الأسود ، وكان الجن فى طاعته ، ورأى أن مصير المرء إلى الفناء ، فقال : إنى أفعل شيئاً يخلد ذكرى بعد مماتى ، فأنشأ سبع جزائر فى البحر بين كل جزيرة وأخرى سفر يوم ، وفى كل جزيرة قلعة ، وأنشأ فى القلعة الوسطى قصراً من ذهب ، فى وسطه بستان فسيح حوى جميع الأزهار والثمار التى هى من ذهب وفضة وجعل فيه

سريراً لجلوسه ، وعليه قارورة بها كوكب درى يضىء ليلا ونهاراً، وفى كل جزيرة جنود لا يحصى عددهم، لا يسمحون لأحد غريب بدخولها. فقال الملك : لم أوقعت نجم الدين فى هذه الورطة ، ألا ترى أنه من العار أن نبعثه إلى موت محتوم ؟ فقال شيحة : إنى مسافر خلفه ومن أجلك أيها الملك سأعمل على سلامته . وجاء موعد سفر جمال الدين فسافر إلى جزائر الشفق .

أما نجم الدين فقد جد فى المسير وأخذت تتقاذفه الأوعار والبرارى حتى كان فى اليوم الرابع أمام دير فدخله عسى أن يجد فيه بعض الراحة ، فوجد فيه بطريقاً فحياه، فرد التحية وأجلسه وأكرمه ثم سأله عن حاجته، فحكى له ما كان بينه وبين شيحة وما اتفقا عليه ، فقال البطريق : أرى ألا تذهب إلى تلك الجزائر وحدك ، ولا بد لك من رفيق يؤنسك ويعينك ، وإن لى فيها حاجة وما استطعت أن أسير إليها وحدى، فقال نجم الدين : فلتكن رفيقى وليكن بينى وبينك موثق أن يعين كل منا رفيقه وألا يخونه فعاهده البطريق على هذا ، وأوى كل منهما إلى فراشه ليسافرا فى الصباح .

كان هذا البطريق جمال الدين شيحة فبنجه وهو نائم ثم كتفه ، وأيقظه ، ففتح عينيه فوجد البطريق واقفاً أمامه شاهراً سيفه يريد أن يقتله ، فقال نجم الدين ألم تعاهدنى على عدم الخيانة ؟ ولم فعلت بى ذلك ؟ فقال : لأنك مسلم وقد نجست الدير بدخولك فيه، ولا يَطْهرُ إلا

بذلك ، فصاح نجم الدين وقال : يا سلطان القلاع يا شيحة ، فقال البطريق : هأنذا شيحة الذى تستغيث به فقم وامض إلى سبيلك ، ثم أطلقه واختفى .

استأنف نجم الدين سفره، وبعد سبعة أيام وجد فى طريقه صومعة فيها راهب يتعبد وبجانبه راوية، فقال له : اسقنى ، فقال : ادخل واشرب من هذه الراوية ، فقال: ولكن الخوف من مائك يساورنى ، فقال : لا أغصبك على الشرب ، ولا أمنعك إن شربت ، فأنت وما ترى ، فقال : ألست شيحة ؟ فقال : بلى ، وما فعلت ذلك إلا خوفاً عليك وحماية لك ، لأن الملك الظاهر وصانى بك، فقال نجم الدين: عهد الله بينى وبينك أن أطيعك وأكون تابعاً لك فساعدنى ولا تفضحنى فى قومى ، فقال : اجلس واطمئن وسأعينك وأحضر لك الكوكب الدرى ، وأحميك من كل شر حتى تعود سالماً ، وسأرى إن كنت تفى بعهدك أو لا تفى فقال : إن عهدك بمنزلة الإيمان فى نفسى ولن أنكثه ما حييت . فقال شيحة: انتظرنى فى هذه الصومعة وسآتيك بالكوكب الدرى وأنت هاجع فكل من هذا الطعام واشرب من تلك الراوية ونم إذا غلبك النوم ولا تخف ، ثم تركه ومضى هو إلى الجزائر فأحضر الكوكب الدرى وناوله إياه ففرح به وعزز الاعتراف بطاعته ، ورجا منه ألا يفضى لأحد بشىء من معونته محافظة على كرامته فوعده بما رغب فيه .

ورجعا إلى مصر وكان قد فارقه عند دخولها حتى يكون إحضار

الكوكب الدرى له وحده .

حضر نجم الدين مجلس الملك ووضع الكوكب الدرى أمامه ، وسأله الملك عن سفره وما لقيه فيه فقال : إن الله أعاننى وساعدنى حتى أحضرت الكوكب الدرى وجئت به .

وبينما هم يتحدثون دخل عليهم شيحة . فنهض إليه نجم الدين واحتضنه وقبل رأسه وقال : أشهد الله والملك ورجاله أنى تابع لشيحة مطيع له ولن أنازعه السلطة ما دمت حيًّا . وهذا سيفى أود أن يكتب عليه اسمه ، فأخذه شيحة وكتب اسمه عليه كغيره من سيوف أتباعه .

كان لدبل البيسانى فرس تحدث الناس بقوتها ومهارتها وجرأتها فطمع فيها جبير صاحب قلعة زاغوره ، وأبدى رغبته فيها لرجاله ، فتقدم إليه غلام اسمه نصير مهر فى الاحتيال واشتهر بالجرأة وقال : أنا لها ، وسآتيك بها وإن كانت تحت أطباق الثرى على أن يكون لى نصيب فى قلعتك ، فقال جبير : لك ما شئت يا نصير .

ذهب نصير إلى بيته وأخبر أمه بما كلف به ، فقالت : إن لدبل هذا ابنة اسمها سلمى إن أتيت بها مع الفرس كان لك ذكر خالد يملأ الدنيا ، فقال نصير : ولن أعود إليك يا أماه إلا بهما .

ذهب نصير مستخفياً متنكراً إلى قلعة دبل البيسانى ، ودخل حجرة سلمى ليلا فوجدها غارقة فى نومها فبنجها حتى لا تشعر وحملها وانسل بها وأخفاها فى مغارة قريبة من القلعة ثم رجع ليأتى بالفرس .

وتسلل إلى مربط الخيل ، وبنج الحرس وهم نائمون، وسرقها وانفلت بها إلى المغارة، ثم وضع سلمى عليها وانطلق بها إلى بيته . وهناك أيقظها وتركها عند أمه عائشة البشنانية ، وما كادت سلمى تبدى حزنها حتى أسرعت إليها عائشة وقالت : لا تخافى يا سلمى ولا تحزنى ، فأنا زوجة أخيك سعد ، وستنعمين بالمقام عندى حتى نلتقى بأخيك .

• • •

استغاث دبل البيسانى بالملك الظاهر وطلب منه المعونة ورد ابنته وفرسه، فأرسل قوة من الجند فيهم سعد وإبراهيم، ووقعت مناوشات حربية بين جبير وجنود الملك أسر فيها نصير سعداً ، فوضعه جبير فى السجن وأخبر نصير أمه بأسره ووضعه فى السجن ، فلما كان الليل قالت عائشة لسلمى : اذهبى إلى السجن ومكنى أخاك سعداً من الهرب وبلغيه أن نصيراً هذا ابنه وأنه ذاهب الليلة ليسرق الملك الظاهر ، فذهبت سلمى إلى أخيها وأطلقته وقالت : إن ابنك نصيراً هو الذى أسرك ، وهو ذاهب الليلة ليسرق الملك الظاهر ، فأسرع إليه وأخبره حتى تأخذوا حذركم . فانطلق سعد إلى الملك وصحبه وأخبرهم بما عرف وقص عليهم قصة هربه من السجن .

ولما ذهب نصير ليسرق الملك وجد سعداً جالساً معه فبهت ورجع من فوره إلى أمه وأخبرها بما رأى ، فقالت : يا نصير ، إن سعداً هذا أبوك وسلمى هذه عمتك وأخت أبيك ، وأنا أمك زوجة سعد أبيك

فإذا هداك الله للإسلام ودخلت فيه كنت من السعداء فى الدنيا والآخرة .

ولما أحس نصير ميلا إلى الإسلام وحباً فيه مضى مسرعاً إلى الملك وصحبه وأخذ معه أمه وعمته ، إلى ديوان الملك وقال : لقد أسلمت وآمنت وجئتكم بأمى عائشة البشنانية وعمتى سلمى ليجمع الله شملنا بأبى سعد ، ففرح الملك وأصحابه بهم وهنأوا سعداً لظهور ابنه ، ثم قال الملك لنصير : لك عندى أمنية فاطلبها يا نصير ، فقال : لا أريد إلا اسماً جميلا فى الإسلام ، فقال : سميتك ناصر الدين الطيار . وجعلتك عندى فى منزلة أبيك .

تذكر إبراهيم زوجته ناقلة الحصون وحن إليها واستأذن الملك أن يمضى لإحضارها ، فلعل له ابناً منها يهديه للإسلام ويكون عوناً له فى جهاده وكفاحه ، فقال الملك : توكل على الله ، وأرجو لك التوفيق ، وأن يظهر لك ابن يكون لك ردءاً وعوناً كما ظهر ابن سعد ناصر الدين الطيار .

ذهب إبراهيم إلى حوران وأفضى إلى أبيه بما عزم عليه فقال له : أرجو من الله يا بنى أن يرد إليك زوجتك كما رد إلى سعد زوجته وابنه وأخته .

* * *

ذهب جوان إلى عبد الصليب صاحب قلعة الصخر بجوار حلب ، وحضه على أن يغزو مدينة حلب ، فقال : لا طاقة لى بقتال أهلها وجيشها ، فقال : وسأحضر معك مسطرين ملك المدينه الحمراء وجنوده ، وما زال يغويه حتى رضى . وكتب جوان إلى مسطرين بذلك فحضر إليه فى

جنوده ثم رحلوا إلى حلب وعسكروا أمامها يبغون فتحها، فاستغاث صاحبها بالملك الظاهر فركب فى جيشه إليها ليدفع عنها هؤلاء الغزاة الظالمين .

اشتبك الجيشان ودارت معركة عنيفة قتل فيها مسطرين وعبد الصليب وأصيب يعقوب الهدار بجرح جسيم فسقط بين القتلى وفر الأعداء مذعورين هاربين ، وجاس سعد وإبراهيم خلال القتلى فرآهما يعقوب فنادى فى صوت خافت : يا إبراهيم، فأسرعا إليه وهم سعد أن يجهز عليه فمنعه إبراهيم وقال : لعله أراد بندائنا أن يدخل فى دين الإسلام، فهو يدعونا لإسعافه، فنقلاه إلى خيمة فى جيشهم وغلبه النوم فنام ثم استيقظ وهو ينطق بالشهادتين . فسأله إبراهيم عن إسلامه ، فقال : جاءنى فى المنام رجل فى ثوب أبيض يشع النور من وجهه وعلمنى الإسلام فأسلمت على يديه ، وسألته عن اسمه فقال : أنا الخضر ولأنك مكتوب من السعداء جئتك وأخذت بيدك من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام .

ثم نطق بالشهادتين فجعلت أرددهما حتى استيقظت من نومى، فأخبروا الملك به وفرح لإسلامه فرحاً عظيماً ، ثم أحضره وقال له : ألك مطلب عندى ؟ فقال : أود أن أكون فى خدمة إبراهيم ومن رجاله، فقال : لك ما وددت .

حزن جوان وغاظه إسلام يعقوب وهزيمة الروم فذهب إلى جمهور الرومى وحضه على قتال جيش الملك الظاهر وأفهمه أن المسيح يأمره بذلك، فركب فى جيشه، وكان عند الملك الظاهر وجيشه قبل أن يرحلوا، ودارت

معركة قتل فيها جمهور وولى جيشه مهزوماً، وكان الذى قتله إبراهيم .

لم يسكت جوان عن إشعال نار الحرب فذهب إلى ابنه عيسى الجماهرى وحثه على أن يقاتل الملك الظاهر ويثأر لأبيه بقتل الملك الظاهر، فعرض على أمه ناقلة الحصون ما يدفعه إليه جوان من الأخذ بثأر أبيه فقالت : لا تطع هذا الذى ليس له إلا الفتنة وإضرام نيران القتال، ويكفينى منك أن تسرق إبراهيم الحورانى الذى قتل والدك ، وكان عيسى محتالا ماهراً ، فذهب فى التو والساعة وتنكر فى صورة عربى وسرق إبراهيم ليلا ووضعه أمام والدته ، وقال : هذا قاتل أبى ، ونريد أن نمزق جسمه لنطفئ نار الحزن المتأججة فى صدورنا ، فقالت : يا عيسى ، أبوك إبراهيم هذا، وأنا زوجته وأمك ، ولا ينفعنا إلا أن نسلم ونملأ صدرك بنور الإيمان ، واعلم بأنى مسلمة وأبوك إبراهيم مسلم فقاطعها قائلا : وأنا معكم ونطق بالشهادتين ، فحمدت الله تعالى وقالت : اخرج بنا إلى جيش الملك الظاهر لنرحل معهم إلى مصر ، وفى جوف الليل كان إبراهيم وزوجته وابنه عند الملك الظاهر وقصوا عليه ما حصل فشكر الله تعالى وفرح بهم ، ثم ارتحلوا إلى مصر ، أما ناقلة الحصون فقد أسكنها إبراهيم فى قلعة حوران ولبث هو وابنه مع الملك الظاهر فى منزلة واحدة .

٩

كان للكندفرون ملك أرمينية بنت اسمها رنقيص رغبت فى زيارة لقمامة القدسية ، فكتب أبوها إلى الملك الظاهر يرجو منه أن تكون حراستها فى كفالته حتى تزور وترجع ، فلبى رجاءه وكتب له أن يكون آمناً عليها فى مجيئها وإقامتها وعودتها ، ثم كتب إلى عرقوص فى مدينة الرخام أن يحرسها ويحافظ عليها حتى ترجع إلى أبيها سالمة شاكرة .

أخذ عرقوص عمه إسماعيل ونصيراً النمر وعشرة من أبناء الأمراء الأبطال وانتظر رنقيص فى يافة ، فلما حضرت ومعها وزير أبيها وخمسمائة بطريق سار بها إلى القمامة وأنزلها فى قصر خاص بها ، ونزل هو ورجاله فى قصر بجانب قصرها ، وكان إبراهيم قد أرسله الملك الظاهر ليساعده فنزل معهم ، ورأت رنقيص فى أثناء مسيرها ونزولها من عرقوص رجولة وشهامة وكرماً ونبلا فملأ قلبها ، وكان سرورها فى رؤيته وشوقها إليه فى غيبته ، وتمنت أن تكون له زوجة وإن صبأت ودخلت فى دينه .

وبعد ثلاثة أيام من نزولها أرسلت إلى عرقوص ، فكان عندها ، فقالت له : لقد ضقت ذرعاً بمقامى فى هذا القصر ، وأحب أن أذهب إلى بيت المقدس ، لأنفس عنى كرب الغربة ، فأخذها إليه وتركها فيه ، ودخل هو وسعد فى مسجد كان بجانبه . واستقبلها بالقمامة بطريقها الكبير استقبالا

جميلا، وأنست به وقالت :إنى سائلتك عن تعبير لرؤيا رأيتها فى منامى، فقال : ما رأيت إلا الخير ، فقالت : رأيت كأنى جالسة بين غربان سود ، فأحسست ضيقاً وكراهية لهم فقمت من بينهم وإذا أنا بين طيور بيض ، فدخلت بينهم ، فانقض على طير منهم كأنه العقاب ، ونقرنى فى حجرى وقال : كتبت لك السعادة ، فوجدت الزفير يخرج من فمى دخاناً أسود، وأحسست الشهيق نسيماً عطراً يملأ صدرى بهجة وانشراحاً ، وبينما أنا غارقة فى الفرح بهذا النسيم خطفنى غراب وألقانى بين الغربان وخرج من بطنى جوهرة بقيت فى حجرى مدة ، ثم مشت وتبعها الغربان فدخلت منهن بين الطيور البيض . وسعيت فى طلبها فوجدتنى فى مخزن للجواهر بين الطيور البيض حتى جاء الطير الذى كان قد انقض على فاختطفنى وجعلنى فى حوزته حيث يقيم ، وهذه رؤياى ، فبهت البطريق وقال : ما سمعت فى حياتى بمثل هذه الرؤيا ، ويمكنك أن تبطليها بالاستحمام الآن بماء المعمودية ، فقالت : فى غد يكون ذلك ، ثم خرجت وسألت عن عرقوص فقيل : إنه فى هذا المسجد ، فذهبت إليه ووقفت ببابه فرأت رجلا بالمسجد فأشارت إليه فلما جاءها قالت له : ادع لى الأمير عرقوصاً ، فمضى إليه وقال : بنت رومية بباب المسجد تدعوك إليها ، فجاءها على عجل ، فقالت له : إن لى رغبة فى أن أدخل هذا المسجد ، فقال : حتى يأذن لك الشيخ النواوى ، وهأنذا ذاهب إليه أستأذنه ، فدخلت على أعقابه ، وكانت بجانب الشيخ وهو يستأذنه ،

وهم عرقوص أن يردها حتى يأذن لها فقال الشيخ : اصبر يا عرقوص ولا تردها ، فقالت : أريد أن أقص عليك رؤياى لتفسيرها وتأويلها ، فقال : وما هى ؟ فقصت عليه رؤياها ، فقال : ستدخلين فى دين الإسلام ، ويتزوج منك بطل من بيت الملك ، وتلدين بنتاً يربيها أهل الضلال ، ولكن عاقبتها سليمة ، فقالت : وقد رغبت أن أسلم من الآن ، فأسلمت على يد الشيخ النواوى فى المسجد ، وأبرم عقد زواجها من عرقوص ثم خرجت من المسجد وعزمت على الرحيل ، وأخذ عرقوص حجة مكتوبة من وزيرها أنه أخذها سليمة ، ومضى جميعهم معها ، فلما كانوا أمام مدينة الرخام أصرّ عرقوص على أن يضيفهم فى قصره، ليأكلوا من طعامه، فذهبت معه هى ومن معها من الوزير والبطارقة، وبعد مضى سبعة أيام قال وزير أبيها لعرقوص : كثر خيرك ، وزدت بسطة فى المال : وائذن لنا بالرحيل ، فقال عرقوص : إذا أردتم العودة أنتم فمع السلامة ، أما رنقيص فإنها أسلمت وتزوجت منها وعاشرتها معاشرة الأزواج ، فقال : ويل لك من أبيها ، وكيف تهدر دمك وتبيع حياتك برغبة كنت فى غنى عنها ، فقال عرقوص : خير لك أن تعود سالماً أنت ومن معك ، فحاجه فى تأنيب وتقريع ، فجرد عرقوص سيفه وأطاح به رأسه ، وأمر رجاله أن يطردوا البطارقة شر طردة ، فطردوهم ورجعوا إلى أبيها ، وحكوا له ما حصل ، فاربد وجهه من الغيظ . فقال له أحد وزرائه : اكتب إلى ملك العرب بما جرى ، واطلب منه أن يرسل إليك

ابنتك وعرقوصاً لتجزيه على جريمته وإلا خسفت به وبدياره الأرض ، فكتب إليه بذلك . فقال الملك لإبراهيم وكان قد رحل إلى مصر حين رحلوا من بيت المقدس : كيف كان ذلك وأخفيته عنى؟ فقال : ما حصل هذا وأنا عندهم وربما وقع بعد أن جئت وتركتهم ، فقد أسلمناها إلى الوزير عند رحيلها من بيت المقدس سليمة ، وهذه حجة من الوزير بذلك ، وأراه الحجة التى كتبها الوزير عند قيامهم من بيت المقدس ، فأمر الملك رسول الكندفرون أن يقيم عنده حتى ينظر فى هذه الدعوى . وما لبث أن جاءه كتاب من صاحب الإسكندرية يقول له : ورد المدينة ابنا الملك الكندفرون ومعهما جوان اللعين فى جيش كبير فدخل المدينة واستولى عليها وفررنا من وجهه إلى مدينة رشيد ، فأمر الملك أن يجهز الجيش للرحيل إلى الإسكندرية ، فجهز وساروا حتى حطوا أمام المدينة فوجدوها مغلقة الأبواب ومدافع الأعداء على أسوارها، فوقفوا فى حيرة مظلمة لا يعرفون لهم منها مخرجاً، وجاءهم شيحة فدلهم على سرداب نافذ إلى المدينة ، فكشفوا عن بابه الغطاء الصخرى ودخلوا منه إلى المدينة وبغتوا الأعداء فيها ، وأعملوا فيهم سيوفهم وطردوهم وقتلوا ابنى الكندفرون ، وطهروها من الأعداء ، وعادوا إلى القاهرة .

وذات ليلة تنكر الملك الظاهر هو وإبراهيم وخرجا يجوسان خلال المدينة حتى كانا فى النحاسين ، فرأيا قصراً عجيباً ، فسأل الملك عنه إبراهيم فقال : ما رأيته قبل هذه الليلة ، فطافا به فلم يجدا له باباً . فتركوه إلى

الغد ، ولما طلع النهار ذهبا إليه فلم يجداه ، فسألا عنه فقيل لهما : هل جننتما ؟ ما رأينا فى هذا المكان قصراً ، فرجعا وهما فى حيرة تشبه الذهول .

ولما جن الليل مضيا إلى القصر فوجداه ، وطافا به فوجدا غلاماً جالساً ببابه ، فسلم الملك عليه فقال : وعلى ملك الإسلام السلام ، ولكنه لم يعبأ به ولم يتحرك من مكانه ، ثم قال : لا تؤاخذنى فإنى عاجز لا أستطيع النهوض . وكشف ثوبه عن رجليه ، فنظر الملك إليه نظرة فاحصة فوجد نصفه الأسفل من حجر . فسأله : من أنت ؟ وكيف كنت على هذه الحال ؟ فقال : أنا ابن خادمك شمس الدين السحرتى ، وكنت أتجر فى مال أبى ، فجاءتنى عجوز اسمها الفلفلة ، وهى كاهنة ساحرة ، واشترت منى بضاعة ، وربحت منها كثيراً ، وذات يوم أضافتنى وأخذتنى إلى منزلها ، وراودتنى عن نفسى فعصمنى الله منها فسحرتنى كما ترى ؟ ! فقال : وأين هذه الكاهنة ؟ فقال : إنها فى هذا القصر ، وهى تسمع الآن حديثنا . وطلعت العجوز عليهم بغتة وقالت : ماذا تبغى من العجوز الكاهنة ؟ ثم صاحت قائلة : حديد ... وإذا بالملك وإبراهيم قد حبسا فى قيود وأغلال من حديد ، ثم جردت سيفها وأرادت أن تقتلهما وكان الملك قد تضرع إلى الله بقلبه وطلب منه أن يكشف عنهما السوء . وإذا بأحد رجاله قد أقبل وضرب العجوز الكاهنة بسيفه من خلفها فوقعت جثة هامدة ، فغاب القصر ونهض الغلام وعلا صياح الجن : أراحك الله أيها الملك كما أرحتنا من شر هذه العجوز الساحرة .

وبينما عرقوص جالس هو وزوجته رنقيص فى قصره إذ به يراها قد امتدت إليها يد مارد وخطفتها ففزعت وقالت : لا تتركنى يا سيدى ثم غابت عن ناظريه . وأحضرها المارد أمام رومية الساحرة ، فقالت لها : هل أسلمت يا رنقيص ؟ فقالت : نعم ، وتزوجت من عرقوص وحملت منه ، فقالت : أنت معى حتى تلدى ، فعاشت معها حتى ولدت بنتاً سمتها مريم الحمقاء . أما عرقوص فإنه حزن على زوجته وانتظر ما يجرى به القدر فى شأنها .

وكان سبب خطف الساحرة لزوجة عرقوص قتله أخاً لها فى إحدى الوقائع بين الروم والمسلمين .

١٠

كان لجوان اللعين جواسيس ينقلون إليه أخبار شيحة ، كما كان لشيحة جواسيس ينقلون إليه أخبار جوان . فمر ذات يوم جوان بمدينة إسبانير . فقال للبرتقش : مضت مدة طويلة وأنا بعيد عن هذه المدينة ، فقال البرتقش : من أجل ذلك سلمت من الفتن والدمار ، ولم يقتل منها ملك ، فإنك لا تدخل مدينة إلا حل بها الخراب وقتل ملكها ، فقال جوان : وماذا يضيرنى إن مات الروم والعرب جميعهم؟ فقال البرتقش لك ما شئت .

ودخل جوان المدينة وذهب إلى ملكها ضابح فسلم عليه وحياه الملك وقربه إليه ثم قال : لعلك قدمت إلينا بخير ، فقال : ما جئت إلا لأبلغك أنه قد فرض عليك قتال العرب وإلا غضب المسيح عليك ، فقال ضابح : حتى أستفتى الرمل ، وكان الملك يعرف ذلك ، ثم نظر فى الرمل نظرته فوجد أنه لا يبلغ مناه من العرب ما دام شيحة فيهم ، ثم قال لجوان : لن أحارب العرب ما دام شيحة حيًّا ، وكان قد حضر هذا الحديث جاسوس شيحة ، فقام إليه وأخبره ، فقال شيحة : لا يكون إلا الخير إن شاء الله ، ثم ذهب إلى الملك وعرض عليه أمراً جادله فيه وأغلظ فى جدله حتى أغضب الملك وأمر بشنقه على باب ديوانه ،

وأصر الملك أن ينفذ أمره . فنفذه جنوده ، وشنقوا شيحة ودفنوه، وذاع نبأ قتل شيحة ودفنه وبلغ جوان فذهب إلى ضابح ، وطلب إليه أن يفى بوعده ويحارب العرب ، فركب فى جيش جرار وذهب إلى السويدية وعسكر عندها . وبلغ بنى إسماعيل ذلك فجمعوا جموعهم وذهبوا إلى السويدية وعسكروا تجاه ضابح وجيشه ، وجاءهم الملك الظاهر بجيش جرار ، وقبل أن يبدأ القتال كتب الملك إلى ضابح أن أرسل جوان اللعين وارجع بجيشك سالماً وإلا كنت أنت وجيشك من الهالكين ، فأجابه ضابح بتحريض من جوان: ما جئت إلا لفنائكم والاستيلاء على أرضكم وديارکم ، فكيف أعود بأمر منكم وأعطيكم جوان عالم الملة طواعية؟ سترى فى الغد دماءكم تجرى على الأرض جريان السيل وسترى من منا سيرتد على عقبه خائباً مدحوراً. قرأ الملك الكتاب فقال : ما أجهلك يا ضابح وغداً تلقى جزاء جهلك .

وقامت المعركة فى الصباح ودامت على أشدها إلى الليل ، فسكت القتال . ووجد ضابح أن الأرض صبغت بدماء رجاله ، فقال لجوان: قد أغويتنى وسعيت فى فناء رجالى، وهؤلاء العرب ما قتل منهم جندى واحد ، وما أوقعنى فى هذه الورطة إلا رأيك المشئوم ، فقال: لا خوف على جيشك ، وسأحيي لك من قتل منهم ، فقال: قم وأرنى ذلك ، فقال : سيكون ذلك فى نهاية القتال ، واعلم بأن النصر لا يكون إلا على يديك وبسيفك ولا بد أن تبارز أبطال العرب وتقتلهم واحداً بعد واحد



شيحة يعرض ألعابه السحرية

حتى تلقى الرعب فى قلوبهم ويرتدوا على أعقابهم خاسرين ، فقال : إنى لن أخشى أحداً وسترى غداً ما يكون ، وفى تلك الليلة دخل على الملك شيحة فعجب حين رآه ،وقال إبراهيم : ألم أقل لكم : إن القطط لها سبعة أرواح أما شيحة فله سمائة روح ؟ ! وقال الملك :ولم فعلت ذلك يا شيحة ؟فقال : سمعت أن هذا الملك أبى أن يطيع جوان ويقاتل العرب إلا بعد موتى . ففعلت ما فعلت حتى أمحو غروره وجهله بتدبير جيشه وخيبة جوان فى رأيه. وإنى ذاهب إليه الآن والأمر بيد الله .

وذهب شيحة إلى ضابح فى صورة فتى أمرد جميل له من العمر خمس عشرة سنة وعلى رأسه طرطور محلى بالخرز المختلف الألوان فدخل عليه وقال إنى مضحك الملوك الراجى عطاءهم . وكان جوان بجانبه، فاقشعر بدنه وقال للبرتقش : إن قلبى يحدثنى أن هذا الفتى شيحة . فقال البرتقش : لقد قلت : إن شيحة مات ودفن ،وقد رأيت ذلك بعينيك فكيف تقول : إنه شيحة ؟ ! ورأى ضابح جوان يحدث البرتقش عقب قدوم الفتى فسأله : ما ذا تقول يا جوان؟ فقال : وقع فى نفسى أن هذا الفتى شيحة : فقال : وأين قولك لى : إنه مات ودفن ورأيت ذلك بعينى رأسك ، ثم أغريتنى بقتال العرب ؟ اسمع يا جوان ؛ سأقتلك بسيفى هذا إن كان شيحة حياً لم يمت ، وأخذ شيحة يعرض عليهم ألعابه وهم يضحكون ، ورغب الملك ورجاله ما عدا جوان فى أن يبقى هذا الفتى المضحك بينهم ، فلبث فيهم يضحكهم هذه الليلة ، وقال له ضابح : نم

تحت سريرى ولا تخرج من عندى .

وفى الليل نهض شيحة وأراد أن يضرب الملك فى صدره فأحس واستيقظ قبل أن يضربه وأمسكه وقال : بحق من تعبده من أنت من العرب ؟ فقال : أنا شيحة ، فقال : ولكن جوان أخبرنى أن شيحة قد مات ، فقال : كذب عليك لأنه يريد هلاكك وهلاك قومك، فأمر ضابح بجوان أن يحضر فى الحال وقال له : ألم تخبرنى أن شيحة قد مات ثم أغويتنى وأغريتنى بقتال العرب ؟ ها هو ذا شيحة أمامك ، وهو حى لم يمت . فقال جوان : اقتله ، وبذلك تطمئن على نفسك وجيشك . فقال : وما الذى أفعله بك أنت ؟ ثم أمر بحبس شيحة .

أما جوان فإنه ضربه مائة سوط وألقاه والبرتقش فى السجن. وفى الصباح نزل ضابح الميدان وقال: لقد حبست شيحة وجوان، وسفك الدماء حرام فى كل الأديان،فليبرز لى ملككم والأمر بعد ذلك بيننا لمن غلب ، فقال الظاهر : من دعى فليجب ،ثم ركب جواده وكان فى الميدان، وجعلا يتجالدان حتى مضى النهار وكل منهما طامع فى صاحبه وفى اليوم الثانى نزل إليه الملك وكان أن أصيب جواده فى فخذه فجرى مسرعاً بالملك من شدة الألم وكان جريه نحو جيش ضابح ، ووجد الملك أنه بين أعدائه فأحاطوا به وأمسكوه حتى رجع ضابح وأمر أن يسجن مع شيحة . ولم تمض تلك الليلة حتى كان أبناء شيحة قد أطلقوا بحيلهم، الملك وشيحة ، وحملوهما إلى خيمة الملك ففرح الجيش بقدومهما ،

وفى اليوم الثالث كانت منية ضابح على يد إبراهيم فأذاقه موتاً أليماً على مشهد من جيشه ، وحاول جيشه بتحريض جوان الذى خرج من سجنه عقب موت ضابح أن يثأر من العرب ، ولكنهم أصيبوا بالدمار الماحق ففروا مذعورين ، وانتصر العرب عليهم انتصاراً عظيماً ، ثم رجعوا إلى مصر آمنين غانمين .

لم يجد جوان ملجأ يلوذ به غير الهرب ، ورأى فى ركوبه البحر الأمن على نفسه وعلى البرتقش تابعه ، فوجد على الساحل مركباً فركب فيه هو والبرتقش ، ونشطا فى التجديف وهو يجرى بهما على وجه الماء حتى بعدا عن الساحل واختفيا عن الأنظار ، وما لبث جوان يفكر : أين يتجه بالمركب حتى رأى سفناً حربية تجرى فوق الماء نحوهما . فقال له البرتقش : فررت من الموت إلى الموت ، وكأنك تسعى إلى المصايب سعياً ، فما حللت فى مكان إلا نعق فيه غراب البين ، وما انتهى البرتقش من قوله حتى أحاطت بهما السفن الحربية وحصرتهما ، ثم قبض عليهما . فلجأ جوان إلى المكر والحيلة . وأخذ يتلو آيات من الإنجيل فى صوت الكاهن المتفانى فى العبادة ، فسأل رئيس البحارة البرتقش عنه ، فقال : هذا عالم الملة وخليل المسيح ورسوله إلى الكهنة ، وباب الخير والبركة جوان صاحب الرأى والهمة ، ففرح وقال : إنه طلبة الصهيج ملك الجزائر السود ، وقد وجدناه بعد أن أعيانا التفتيش عنه فى كل مكان . وذهبوا به إلى الصهيج فاحتفى به حفاوة عظيمة . وقال :

طلبتك فى كل مكان وتعب رجالى فى البحث عنك لتحول بيننا وبين كارثة ماحقة . فانشرح صدر جوان وقال : وما تلك الكارثة ؟ فقال : لى ابن أخ اسمه ميروفش وهو فاتك قادر خطب ابنتى ميرونة لنفسه . ولكنها راغبة فى الزواج من أخيه طولنج الذى خطبها من قبله ، وإن أنا طردت ميروفش أهلكنا بسيفه ، وقد وكلت إليك أمر ابنتى لتزوجها ممن تشاء منهما فى سلام وعافية .

فطلب جوان ميروفش فلما حضر بين يديه قال الملك : هذا جوان عالم الملة وقد جعلته وكيلا فى زواج ابنتى ، وأصبح أمره النافذ فيها ، فقال ميروفش : حينئذ أطلبها من جوان ، فقال جوان : على أن تعطينا صداقها ، فقال : وما صداقها ؟ فقال جوان : رأس ملك العرب ، فقال : ولك ما طلبت ، ثم تركه وانصرف إلى منزله ليعد عدته للرحيل .

وجاءه جوان ليلا فأجلسه وحياه ثم قال جوان : ما جئتك الآن إلا لأدلك على وسيلة تمكنك من ملك العرب دون أن تجرد سيفك ، فقال : إن أهون شىء عندى أن أجرده فى وجه من أشاء ، فقال : ولكن ما يدرك باللين لا ينبغى أن يلجأ فيه إلى الشدة ، فقال : وماذا رأيت ؟ فقال جوان : أن تذهب إلى ملك العرب شاكياً ظلم عمك وظلمى فى أمر زواجك ، وتنسب إلى ملتنا كل خزى وفضيحة وتلقى بنفسك فى أحضانه ليدفع عنك ظلمنا ويحقق لك مأربك ، وتدخل فى دين العرب رياء ونفاقاً ليتخذك الملك من حاشيته وخاصته ، وسأزورك فى بيتك هناك لأرشدك إلى

ما تفعله بعد أن يثقوا بك ويطمئنوا إليك، فقال : سمعاً وطاعة وسأكون عندهم كما شئت .

ذهب ميروفش إلى مصر واستأذن فى المثول بين يدى الملك الظاهر ، فأذن له . ولما وقف بين يديه قال : أنا ميروفش ابن أخى ملك الجزائر السود وقد ظلمنى عمى الذى ألقى مقاليده فى يد جوان الخبيث الماكر، ثم حكى قصة زواجه، وعرفه الصداق الذى طلبه جوان، ثم قال: وقد نظرت فى أمر هذا الصداق ، وكيف تكون الخطيئة التى لا يقرها دين سماوى أساساً لبناء الزوجية ، فسألت جوان : وهل ذلك يرضى المسيح الذى نحن على شريعته ؟ فقال: لقد وصانى أن أبلغك رضاه وحضه إياك على تنفيذه ، فأظهرت لهم الخضوع لأمر المسيح وطاعته ولكنى أنكرته بينى وبين نفسى وعزمت على أن أفارق أرضهم ، وأخرج من دينهم إلى دين الإسلام الذى ينشر العدل ويحرم قتل النفس إلا بالحق، فجئتك منيباً إلى الله، ثم نطق بالشهادتين . ففرح الملك وأدناه من مجلسه وجعله من خاصته وأعضاء مشورته، ولكن إبراهيم رابه أمر ميروفش وظن أن إسلامه خدعة يبغى من ورائها أمراً خطيراً .

لبث ميروفش فى خدمة الملك الظاهر فى طاعة ووفاء ، ثم دخل عليه جوان فسلم عليه وحكى له ما حصل بينه وبين الملك الظاهر وكيف أنه صدقه هو ورجاله ما عدا إبراهيم الحورانى ، فإنه غير مطمئن، وهو يعتقد فى قرارة صدره أنى منافق مخادع ، وما أسلمت إلا لأمر فى نفسى أبغى به

الكيد للعرب وملكهم ، ولا يفتأ يحض الملك على الاحتراس منى ، ولكن الملك لا يقره على رأيه ، فقال جوان : وقد جئتك الآن لأتم لك الخطة وأرشدك إلى ما تفعله ، فقال : وإنى مطيعك فيما تأمرنى به فقال جوان : فى ليلة الجمعة القادمة انحر ذبيحة وادع إليها الفقراء ليأكلوا منها وادع معهم الأمراء والملك ، ثم كرر هذه الوليمة مرتين . فإذا جاءوك فى المرة الثالثة فاصرف الفقراء ثم بنج الأمراء والملك . ثم اقطع رأس الملك وخذه وارحل . وسأمكث فى منزلك هذا مستخفياً فنفذ ميروفش ما وصاه به جوان ، وبعد أن كتفهم أشار جوان عليه أن يقتل الملك ويأخذ رأسه فقال : لن أقتله إلا فى مدينة عمى ليكون لى الفخر الأكبر . ثم أيقظهم من إغمائهم ، والتفت الملك فوجد ميروفش وجوان ، فقال : ما هذا ؟ فقال ميروفش : هذا أجلك الذى انتهى ، وقال جوان : من يخلصك من يدى الآن يا ملك العرب ؟ فقال : الذى خلقنى فهو يحفظنى منك ومن كل كيد وخيانة ، صدقت يا إبراهيم ، فقد كان شكك خيراً وأصدق من يقيننا .

وجاء شيحة إذ ذاك ديوان الملك فسأل عنه فقال إبراهيم : إن الملك وجماعة من الأمراء قد اختفوا أو سرقوا ، وحكى له مجيء ميروفش وارتيابه فيه ، فقال شيحة : صدقت يا إبراهيم ، ثم خرج من الديوان .

حبس ميروفش الملك والأمراء فى بيته ، وأخفاهم فى مطمورة كانت فيه ، وكان لا يزال يخفى أمره حتى يجيئه أخوه فى جيشه حسب تدبير جوان اللعين ، وكان يختلف إلى ديوان الملك كعادته ويبدى أسفه على فقد الملك والأمراء .

فتنكر شيحة فى صورته وذهب إلى بيته وهو فى الديوان ، فأطلق سراحهم ، وقبض على جوان والبرتقش ثم مضى بهم إلى الديوان ودخلوا جميعهم على من فيه، وكان من بينهم إبراهيم وميروفش فلما رأوهم نهضوا إليهم فرحين أما ميروفش فإنه كاد يصعق من خزيه وخوفه على نفسه، فأمر الملك أن يصلب ميروفش ويرمى بالنبال حتى يموت فصدعوا بأمره ومات بسبب غدره واتباعه جوان الأثيم.أما أخوه طوبلنج فإنه قدم فى جيش إلى مصر ليساعد ميروفش أخاه، فعثر به عرقوص فى طريقه ، وكان قد رحل برجاله آتياً إلى مصر حين بلغه فقد الملك والأمراء . ودارت بينهما معركة قتل فيها طوبلنج وهرب رجاله مذعورين. واستمر عرقوص سائراً حتى دخل مصر فوجد ميروفش قد قتل، وجوان والبرتقش فى الديوان ينتظران حكم الملك الظاهر فيه .

أراد جوان أن يفلت من أيدى الملك ورجاله فلجأ إلى مكره وأسر إلى عرقوص قولا جعل عرقوص يشفع فيه لدى الملك ويرجو منه أن يخلى سبيله هذه المرة على أن يكون ضامناً له ، فأجاب الملك رجاء عرقوص وأمر بإطلاق جوان وتابعه ، فأطلقا وخرجا من المدينة مسرعين .

أسر جوان لعرقوص ما خدعه به فقال : اشفع لى عند الملك وأنا أدلك على بنت ملك من ملوك الروم تسلم على يديك وتتزوج منها وترزق بذرية صالحة تنفع الإسلام والعرب ، ويكون لك شأن عظيم عند ربك يوم الدين ، فقال : ومن هذه البنت ؟ فقال : بنت

الصهيج ملك الجزائر السود بمدينة الصخر ، وكان التنافس فى الزواج منها بين ميروفش وأخيه طوبلنج سبباً فى قتلهما ، وسأذهب إلى أبيها بعد أن يخلى سبيلى وأساعدك فى الزواج منها كما ساعدتنى ، ولن أنسى صنيعك هذا ما حييت ، فصدقه عرقوص وشفع له ، وأخلى سبيله .

أمر عرقوص عمه إسماعيل أن يعود برجاله إلى مدينة الرخام ، أما عرقوص فإنه انفلت إلى مدينة الصخر بالجزائر السود ، فدخلها متنكراً فى زى أهلها ، ونظم نفسه فى جيش الملك كأنه جندى من جنوده ، وكان الملك الصهيج يخرج فى ثلة من جنوده للصيد ، وكان عرقوص من بينهم .

١١

وذات يوم خرج الصهيج للصيد وعرقوص فى جنده الذين معه ، فطلع عليهم سبع كأنه الفيل ضخامة ، وجعل يفتك بفرسانه واحداً بعد واحد حتى فزع الملك ، وخاف على نفسه ولم يجرؤ أحد من بقية جنده أن يخرج إليه ، فقال الملك : لقد وهبت ابنتى ميرونه لأى فارس يقتل هذا الأسد أو يطرده حتى ننجو من شره فتقدم عرقوص وقال : إن قتلته يا مولاى زوجتنى ابنتك ميرونة ؟ فقال : نعم وحق المسيح ، فجرد عرقوص سيفه ومضى إلى الأسد راجلا ، ورآه الأسد مقبلا عليه فزأر زأرة انخلعت لها قلوب الملك ورجاله ، وأجابه عرقوص بصيحة مثلها وهم الأسد بالوثوب عليه ، فلقيه عرقوص بضربة من سيفه شقته نصفين . ثم رجع إلى الملك مترفقاً فى مشيته من تيهه وفرحته ، فاحتضنه الملك وقبله فى رأسه وسأله : من أين ؟ وما اسمك ؟ فقال : أنا من دير نجران وتربيت فى القمامة واسمى عزم المسيح ، فقال : لولا أنك عزم المسيح ما قتلت الأسد ونجيتنا من شره ، ثم أخذه إلى قصره وزوجه ابنته ، ودخل بها وكان من أعز أهله عنده .

دخل عرقوص على زوجته وهى فرحة به لأنه فاق الأبطال ونجى أباها ورجاله من مخالب الموت ، ولكن أفزعها أنها وجدت منه إباء وانصرافاً

عنها ، فسألته عن ذلك فقال : إننى من قوم لا يقتربون من النجاسة ، فجعلت تنظر فى ثيابها وفى يديها ورجليها ثم قالت: ولكنى نظيفة ولا أرى فى ثيابى ما يغضبك، فقال: نجاسة القلوب أبعث على الاشمئزاز والكراهية من نجاسة الثياب، فقالت : وكيف ينجس القلب ؟ وكيف يُعرف أنه نجس ؟ فقال : ينجس بالكفر ويطهر بالإيمان، وأخذ يتلو عليها آيات من القرآن مبيناً لها مزايا الإسلام وأنه مبعث السعادة والنعيم . وكان قد أراد الله أن يشرح صدرها للإسلام فأسلمت، وأبرم عقد الزواج على شريعته وعاش معها وهما يخفيان إسلامهما عن الملك وقومه ، وكان يقضى يومه مع أبيها فى ديوانه ، وليله معها فى قصرها .

وذات يوم دخل جوان على الملك قادماً من سفره ، فقال له الملك : لقد خدعت ابنى أخى حتى قتلتهما بسيوف العرب ، فقال : جوان : ما فعلت ذلك إلا من أجلك ، فقد أخبرنى المسيح أنهما إن بقيا ولم يقتلا ، قتلا عمهما وأخذا ملكه من بعده ، وكان عرقوص جالساً فقال : صدق أبونا جوان .

ولما انفض المجلس أخذ عرقوص جوان إلى بيته وقال له : أريد أن تهادنى حتى آخذ زوجتى وأرحل إلى مدينتى ، فقال جوان : لك ذلك ، وإنى مسافر من الآن ولا أعود إلى هذه المدينة إلا بعد أن تغادرها أنت وزوجتك ، ثم سلم عليه وركب أتانته ، وأفهمه أنه مرتحل من ساعته ، وأخذ تابعه ومضى .

لم يرحل جوان ولكنه ذهب إلى الصهيج ليلا وقال له: أنا ما قتلت ابنى أخيك ولكن الذى قتلهما ذلك الفارس الذى زوجته ابنتك ميرونة ، وما هو بعزم المسيح ولا من دير نجران كما قال ، إنه من أمراء العرب واسمه عرقوص صاحب مدينة الرخام ، فغضب الصهيج وقال : وما الرأى يا جوان ؟ فقال : إذا جاء الديوان فى الغد فضع فى الشراب بنجاً وأسقه ، فإذا أغمى عليه كتفناه وقتلناه، وفعل الملك ما أشار به جوان ، فلما كتفه رجاله أيقظه جوان وأمر الملك بقتله ، فقال البرتقش : لا تغرنك أيها الملك قدرتك على عرقوص الآن لأنكم خدعتموه ومكرتم به وكتفتموه ، فإن من ورائه أسوداً من العرب لا يقعدون عن الأخذ بثأره ، وستكون أنت وملكك وديارك ثمناً له ، فخاف الملك وأمر بإلقائه فى السجن ، وخرج جوان مغيظاً من تابعه البرتقش إذ كان السبب فى دفع الموت عنه ، فمضى به إلى الكاهنة السوداء وأخبرها بما فعله وما قاله تابعه ، فقالت: خذ هذا الكتاب إلى الملك الصهيج وائتنى بعرقوص من سجنه ، وقد أمرت الملك فى كتابى أن يعطيكه،وجاءها به جوان فلما رأته أعجبها شكله وأشفقت أن تطعم الموت بطلا شهماً مثله ، فقالت له : سأعذبك ولا أقتلك ، فإن تعذيب مثلك أحب إلى من قتله ، وخشى جوان أن يكون من ورائه رجال يحمونه ، فخرج يمشى فى الخلاء مرسلا بصره فى نواحيه فوجد إسماعيل ونصيراً النمر قادمين ، للبحث عنه لأنه لم يرجع إلى مدينته فارتد على عقبه مسرعاً إلى الكاهنة وأخبرها ، فأمرت رهطاً من الجن أن يخطفوهما فى الحال

ويحضروهما بين يديها ففعلوا .

وسألتهما الكاهنة : لم قدمتما إلى أرض الروم وليست لكما فيها حاجة ؟ فقال إسماعيل : نبحث عن ملكنا عرقوص ، فإن وجدناه فى خير فرحنا ، وإن وجدناه فى شر كنا له فدية ، فقالت لا فرحتما ولا كنتما له فدية ، ولكنكما أشرفتما على الهلاك ، وليس بينكما وبينه إلا كلمة تخرج من فى ، فقالا : ما كانت كلمة كاهنة مثلك قضاء لا يدفع ، وإن يد الله فوق أيديكم ، وقد وعدنا النصر والتأييد . وقطع حديثهم هذا دخول جماعة من البطارقة ، وفيهم غلام أمرد فتقدم إلى الكاهنة ، وقال : من هؤلاء الذين معك يا أمى ؟ فقالت : هذا جوان عالم الملة وتابعه ، وهذان عربيان قدما أرضنا فقبضت عليهما وعزمت على قتلهما ، فقال : وما ذنبهما عندك؟ فقالت : يحدثك عنهما جوان عالم الملة فهو أعلم بهما منى ، فقال جوان : هذان من أمراء العرب الذين قتلوا ابنى أخى ملك الجزائر السود ، وقد قبضنا عليهما وأردنا قتلهما ، ولكن البرتقش خوفنا من العرب ، فقال الغلام وكان اسمه مركن : وهل تعرف أنت بلاد العرب؟ فقال جوان : نعم ، فقال احبسوا هذين ، وتعال معى لتدلنى عليها فقد عزمت على ألا أترك واحداً منهم ينشق نسيم الحياة ، فقالت الكاهنة : إذا فتحت مدينة الرخام فابعث إلىّ فى الحال ، فإنى راغبة فى أن أعيش فيها . فقال : ستكونين فيها بعد أيام .

أخذ مركن جوان والبرتقش وركب فى جيش إلى مدينة الرخام ففتحها بعد جهد جهيد ، وكتب إلى الكاهنة كتاباً يدعوها إلى الرحيل إلى المدينة

لتقيم فيها حسب رغبتها ، وأرسل به كبير البطارقة .

أخذ كبير البطارقة الكتاب ودخل على الكاهنة وناوله إياها ، ففضته وأخذت تقرأ وهى تبتسم ، وما انتهت من قراءته حتى أخذها نوم عميق ، وتقدم كبير البطارقة وذبحها بخنجره ، ثم تركها ودخل يجوس فى قصرها فرأى جارية تصلى فى غرفتها ، فاختبأ وانتظر يرقبها ولما فرغت من صلاتها رفعت يديها إلى السماء ، وقالت : اللهم كما هديتنى للإسلام وحكمت علىّ بالأسر عند الكفار ورزقتنى هذا الغلام ، اهده للإيمان ، واجمع بينى وبينه فإنك أرحم الراحمين .

فتقدم كبير البطارقة إليها وسلم عليها فردت السلام فزعة مضطربة ، وقالت : من أنت ؟ فقال : لا بأس عليك أنا جمال الدين شيحة ، ومن أنت ؟ فقالت : أدركنى . . . أنا جارية الأمير مسعود ، وابنى هذا الغلام المسمى « مركن » وهو مسلم وأبوه قرا أصلان المغربى ، ولكنى فى خوف عليك من الكاهنة الساحرة ، فقال : لا خوف ، فقد ذبحتها ، فقامت فرحة وقادته إلى السجن الذى فيه عرقوص وصاحباه ، ثم رحلوا جميعهم إلى جيش العرب المهزوم عند مدينة الرخام ، فاستقبلوهم فرحين ، وبرق لهم نجم الأمل فى النصر المبين .

ولما جن الليل ذهب شيحة إلى الأعداء ، وكانوا لا يزالون معسكرين أمام مدينة الرخام ، فبنج الغلام « مركن » والبرتقش وجوان ، ثم سرقهم ونقلهم إلى جيش العرب ، وترك ورقة على فراش مركن مكتوباً فيها

أسرنا « مركن » وجوان والبرتقش ، واعلموا أن مركن مسلم بؤيد العرب ، وقد جاء بكم لفنائكم ، فمن بقى منكم بعد الصباح أذقناه شراب الموت. فلما استيقظوا ولم يجدوا قائدهم ولا جوان والبرتقش ،وعرفوا ما فى الورقة دب فى صدورهم دبيب الخوف ، وظنوا أن مركن قدم بهم إلى هذه المدينة ليهلكهم فشدوا رحالهم وأسرعوا إلى ديارهم خائبين.

وبحث شيحة عن قرا أصلان فى جيش المسلمين ، ولما وجده جمعه بزوجته وابنه مركن ، وعرفته أمه أنه أبوه ، ففرح به ودخل فى دينه ، وأصر أن يكون من أبطال العرب النابهين .

وذات ليلة رأى الملك الظاهر فى منامه ما أفزعه ، وكان ذلك قبيل الفجر ، فاستيقظ مضطرباً ، وقام فتوضأ وتهجد وجعل ، يذكر الله حتى صلى الصبح ، ثم أخذ يتلو ما تيسر من القرآن .

وفى ضحوة النهار ذهب إلى الديوان وجلس فى جمع من وزرائه وأمرائه ، وعلمائه ، فقال لهم : رأيت فى المنام الليلة كأنى جالس على كرسى فى بستان ، فانقض طير أسود وخطف التاج من فوق رأسى وحط به بعيداً عنى ، ومشى به سبع خطوات ، ثم حطت طائرة ونازعته التاج ، ولكنه غلبها ، وإذا سبع أقبل فضرب الطير فى رأسه ، وألقاه بعيداً ، فأخذت التاج ولبسته ، ثم انتبهت من نومى ، فقال أحد العلماء : سيأخذ منك الملك رومى ، ويمكث فيه سبع ساعات أو سبعة أيام أو سبعة أسابيع أو سبعة أعوام ، وتأتى امرأة من قوم المعتدى أسلمت وتحاول

دفع العدوان عنك وتلقى تعباً ونصباً ، ثم يأتى أحد أولياء الله فيرد إليك ملكك وتاجه ، بعد أن تمضى مدة هذه المحنة .

وذات يوم تتابعت على الملك الظاهر وهو جالس فى ديوانه من المدن كتب يقول كل منها : إن فلاناً لم يعد إلى المدينة منذ دعوته إليك وأخذته وقد غاب عن المدينة مدة طويلة . ولا ينبغى أن يترك المدينة أميرها وصاحبها هذه المدة ، فإن كان عندك وليس له عمل يقوم به أو منفعة يؤديها فأرسله إلى مدينته ، فعجب الملك وخاصته ، وقالوا : أين ذهب أمراء المدن وما دعوت واحداً منهم ؟ وبينما هم فى حيرتهم هذه جاءه كتاب من صاحب غزة يقول : إن عندنا فى الميناء مركب كبير يظهر عليه قصر جميل بالليل ويختفى بالنهار ، ونحن فى حيرة من أمره ، فإذا رأيت أن تراه فنحن فى انتظارك .

أخذ الملك أمراءه وسافر إلى غزة ليرى هذا القصر ولما كان فى المدينة اهتم بأمر هذا القصر ، فكان يراه ليلا ، وإذا ذهب إليه فى النهار يجده قد اختفى ، ولبث على هذه الحال ثلاث ليال متتابعة . وفى الليلة الرابعة ذهبوا إليه فوجدوه ووجدوا بابه مفتوحاً ، فدخله الملك وإبراهيم وسعد وجماعة من الفداوية وبقية الأمراء ، وأخذو يتنقلون فى أرجائه فأدهشهم ما فيه من أثاث فاخر وتماثيل وصور ذهبية رائعة ، ورأوا جوان جالساً فيه وأمامه كاهن طويل ترمى عيناه بالشرر ، فقال جوان : وقعتم فى المصيدة ، وقال الكاهن : أمسكوهم : فوجد الملك وأمراءه أنفسهم

فى الأغلال والقيود ، والمركب يمخر بهم عباب الماء ، أما القصر وما فيه من الأثاث والتماثيل فلم يكن له أثر . ففزعوا من هذه المكيدة التى دبرها جوان لهم ، وقال الملك : أرجو ألا يكون شيحة فينا ، فقال البرتقش إنه فيكم وما ترك جوان منكم أحداً ، فقال الملك : وأين تذهبون بنا ؟ فقال البرتقش : سأحكى لك ، على أن تعدنى إن وقعت فى أيديكم ألا تضربنى فقال : أخبرنا ولك ما قلت : إن روميل ملك مدينة العروق والنهر الحرار طلب من أخيه صورميل أن يزوجه ابنته ، فقال له : لا يمكننى أن أفعل شيئاً إلا إذا أفتى عالم الملة جوان بجواز هذا الزواج ، فأحضر روميل جوان وعرض عليه الأمر ، فقال له : إن دفعت المهر الذى أطلبه زوجنا كها ، فقال : وما ذلك المهر ؟ فقال جوان : أن تأتينى برءوس الملك الظاهر وامرائه ، وكان روميل هذا كاهناً ساحراً له سلطان على مردة الجن ، فأخذ هذا المركب وسافر به إلى غزة ،وصنع بسحره هذا القصر الذى جاء بكم حتى وجدتم أنفسكم فى أغلالكم وقيودكم ، فقال الملك : ما جاءتنا هذه النكبة إلا على يد شيحة لأنه كلما أردنا قتل جوان لنستريح من شره ، شفع فيه وقال لم يحن وقت قتله ، وإن وقع جوان فى يد ى هذه المرة فلا بد من قتله ، ولن أسمع فيه شفاعة. فقال الأمراء : وإن لم تقتله أنت قتلناه نحن .

وصلوا إلى مدينة العروق ، ونقل الأسرى إلى ديوان روميل الكاهن ، وجلس ومن حوله جوان والبرتقش وخاصته ، فقال روميل : يا جوان : هأنذا قد أحضرت ملك العرب وأمراءه ، فقال : لا ينفعنا حضورهم إلا إن قتلتهم ، فأمر روميل

أن يقتلوا، فنظر الملك الظاهر إلى السماء وقال: أغثنا يا إلهى فإنك على كل شىء قدير. فما أتم دعاءه حتى كان عبد الله المغاورى فى الديوان، فقال لروميل: يا عدو الله، أمن أجل بنت تتزوجها تقتل ملوك العرب وأبطالهم؟! ثم ضربه بجريدة خضراء ضربة أردته قتيلا، وأشار إلى الملك الظاهر وأمرائه بيده فانطلقوا من قيودهم وأغلالهم، وهم جوان والبرتقش أن يفرا ويهربا فلم يستطيعا أن يقوما، وكأنهما ثبتا فى كرسييهما، وأمر المغاورى الملك والأمراء أن يقتلوا من فى الديوان من الأعداء فقتلوهم، وأسروا جوان والبرتقش وساروا متجهين إلى مصر. وكان دليلهم ورائدهم جمال الدين شيحة. ولما استقروا فى مصر جمع الملك العلماء والأمراء وهم بجوان ليقتله على مرأى منهم، فاعترضه شيحة ومنعه، وثار الجدل فى قتل جوان وحماية شيحة له، حتى رأوا يداً هائلة امتدت إلى جوان وأخذته من بينهم وارتفعت به إلى طبقات الجو العالية حتى اختفى عن أنظارهم.

كان فى بلاد الشام مدينة اسمها قارصة، وفيها كاهن ساحر اسمه قبطاويل وله بنت، فأراد أن يتزوجها فأنكر العلماء عليه أن يتزوج ابنته، فقال: لا بد من ذلك، فقالوا له لا يجوز ذلك إلا فى كتاب عند جوان عالم الملة اسمه «العنوز» وفيه البنت لأبيها تجوز ولأخيها تجوز، فأمر قبطاويل مارداً من مردة الجن أن يأتيه بجوان حيث يكون، فجاءه وخطفه من بين الملك والأمراء، فلما حضر بين أيدى الكاهن قبطاويل وعلمائه، سأله عن الكتاب الذى عنده، فقال: نعم هو عندى وهو يجيز للأب أن يتزوج من ابنته إن دفع صداقها، فقال وما صداقها فقال: أن تقتل ملك العرب وأمراءه وتستولى على بلاده وتمحو من

الوجود دولتهم، فقال: ما طلبت منى إلا يسيراً من الأمر، ثم أمر مارداً من مردة الجن أن يخطف الملك الظاهر ويلقيه خلف جبل قاف، فاختطفه المارد وطار به وهو يسبح الله ويذكره، فأصاب المارد شهاب أحرقه ونزل الملك يهوى على كثيب من الرمل مغمى عليه، ولما أفاق وجد نفسه فى مكان قفر لا أنيس به، فمشى قليلا حتى أقبل المساء فوجد ثعبانين يجريان أحدهما يبغى على الآخر ويريد أن يقتله، فضرب الباغى بسيفه وقتله، وانتفض الثعبان الآخر، فإذا به فتاة تحمد الله وتقول: نجاك الله كما نجيتنى، أنا بانة بنت الملك الأبيض، وهذا الذى قتلته لبخ ابن الملك الأسود وهو كافر، وأرادنى له، ولكنى أبيت لكفره وجحوده، ولولاك ما نجوت من شره، فمن أنت أيها الإنسى الكريم؟ فعرفها الملك بنفسه وما وقع له ولأمرائه. فقالت: سر معى إلى أبى، فلعله يجزيك بما قدمت لابنته من الخير، ويعينك على أعدائك ويردك إلى بلادك ويعيد إليك ملكك، فسار معها، ولما رآه أبوها قال: أهلا بملك العرب، ثم أجلسه وقال: إنك لن تعود إلى بلادك: إلا بعد سبع سنين، وهذا ما قدره الله عليك، فأقم معنا حتى ينتهى ما بقى منها، فأقام فى سعة من العيش ورخائه.

ولما انتهت المدة أحضر الملك الأبيض مارداً من الجن وأمره أن يطير بالملك الظاهر إلى بلاد توريز العجم، فحمله وطار به حتى أنزله فيها وتركه.

وسار الملك حتى دخل على هلاوون فى قصره، فعرفه الملك بنفسه فأجلسه هلاوون وأكرمه، ثم استشار وزيريه فيما يفعله بعدوه الملك الظاهر، أما رشيد الدولة فإنه أشار عليه أن يكرم مثواه ليقدم له بذلك معروفاً يحفظ عنده ويذكره

له ، وأما الوزير الآخر فإنه أشار عليه أن يقتله ليشفى غليل صدره، ويكون له هيبة عند ملوك الروم بقتله ، فأطاع هلاوون رأى الوزير الأول وأطلقه، فسار إلى الخلاء ماشياً إلى حيث لا يدرى،وبينما هو سائر عثر فى طريقه على خيام منصوبة وفيها رجال من العرب فأوى إليهم واستقبلوه بالفرح والسرور وأخذوه إلى رئيسهم ، فحياه وأجلسه إلى جانبه وأحضر الطعام فأكل معهم . وعلى غفلة منه وضع البنج فى قدح الشراب وناوله إياه فشرب وما لبث أن غلبه النوم وأطبق عليه الإغماء ثم كتفه وأعطاه شيئاً أيقظه. فنظر إليه وإلى من حوله فوجدهم قد لبسوا ثياب الروم بعد أن كانوا يلبسون ثياب العرب ، فقال : ما هذا الذى أراه منكم ، لقد كنتم من العرب والآن أجدكم من الروم وقد كتفتمونى . فما شأنكم معى ؟ فقال : أنا قبطان الملك هلاوون وقد خرجت فى هؤلاء البطارقة للقبض عليك . وذلك ما فعلناه .

ثم ركبوا فى فلكهم وجرى بهم فى البحر إلى مدينة هلاوون ، ولكن الرياح غضبت فثارت ودفعت الفلك تجرى فى سبيلها حتى دخلت بها ميناء الملكة تيجان ، على غير استئذان من حراسها ، فسألوا ربانها ، فقال : هذا فلك الملك هلاوون وأنا ربانه ، فأخبروا الملكة أن بالميناء سفينة فيها ربان الملك هلاوون ورجاله ، فقالت : اقتلوهم ، فهجموا عليهم وقتلوا بعضهم وأسروا بقيتهم . ورأوا الملك الظاهر على غير شكلهم وهو بينهم مكتف مقيد ، فسألوا الأسرى من رجال هلاوون : ومن هذا الذى كتفتموه؟ فقالوا الظاهر ملك العرب ، فأطلقوه وأخذوه إلى الملكة وقالوا لها : هذا ملك

العرب وجدناه أسيراً فى يد الروم وقد كتفوه وقيدوه، فأطلقناه من كتافه وقيوده وجئنا به إليك، فقالت: أأنت الظاهر بيبرس؟ فقال: نعم، فقالت: شرفت بك دياري، فأقم معى عزيزاً كريماً، وذلك قضاء الله وعما قليل يكشف الله عنك الكرب وينعم عليك بالعودة إلى بلادك، ثم أطلقت الأسرى وقالت: بلغوا هلاوون ملككم أن ملك العرب عندى فإذا رغب فى الموت فليطلبه منى.

كانت تاج ناس بنت قبطاويل كلما استفتت الرمل عرفت منه أن قتل أبيها سيكون على يديها، وأنها ستدخل فى دين الله، وأنها ستتزوج من جمال الدين شيحة، فأمرت المارد أن يأتيها به حيث يكون، فطار فى الجو باحثاً عنه حتى وجده فى مصر فاختطفه وطار به، ووضعه بين يديها، فقالت له ما عرفته من الرمل كلما استنقيته، ثم سألته: ماذا ترى؟ فقال: إنى لك كما تريدين، فقالت له: علمنى أولا كيف أدخل فى دين الإسلام، فعلمها وأسلمت وأنابت إلى ربها وصارت من المؤمنات، ثم أحضر اثنين من خدمها وأسلما، وأبرم عقد زواجه بها أمامهما ثم سألها: هل تعرفين أين الملك الظاهر الآن، فقامت إلى رملها ونظرت فيه مستفتية، ثم قالت: إنه فى مدينة الملكة تيجان، فقال: أحب أن أكون عنده، فأحضرت المارد وأمرته أن يحملهما إلى قصر تيجان فى مدينتها، فحملهما وطار بهما حتى وضعهما فى قصر تيجان.

ورأت تاج ناس أن الحرب قائمة بين تيجان وهلاوون فأمرت المارد أن يلقى على هلاوون وجنوده حجارة تدمرهم، فقال: سمعاً وطاعة.

وجد هلاوون أن الحجارة تصب عليهم من السماء صبًّا فتدمر كل من

أصابته ونزلت عليه،ووجدوا أنهم لا طاقة لهم بدفعها ولا الصبر على خطرها ففروا هاربين. ودخل جمال الدين على الملك الظاهر ففرح به،ثم حكى له ما فعلته تاج ناس، فزاد سروره بها وقال : إنى راغب أن أزوج عرقوصاً تيجان كما تزوجت تاج ناس ، فأمرت المارد أن يأتيهم بعرقوص فغاب قليلا ثم جاءهم به ، وتعارفوا وتم زواجه من تيجان ، ثم جمعت رجالها وجنودها ورحل جميعهم إلى الشام، ومنها إلى مصر . وكان الملك كلما مر بمدينة تبعه جنودها وأمراؤها . حتى صار فى جيش يهز الأرض بسيره هزاً ،واستمروا سائرين حتى أشرفوا على مصر ، ونقل خبرهم إلى قبطاويل وجوان .

غضب قبطاويل على ابنته تاج ناس وخرج إليها فى جنوده ، ثم طلب ابنته فخرجت إليه ، فقال لها : تركت دين آبائك وأجدادك وجئت لقتالى ونسيت أننى الذى علمتك السحر ، فقالت : وسأحاربك بما علمتنى وما النصر إلا من عند الله ، وكان كلما هجم عليها بباب من أبواب السحر أبطلته حتى كاد أن يستيئس ويفلس، وإذا بإمرأة ساحرة قد أقبلت فى حلة خضراء، وقالت : إنك يا عدو الله تفسد فى الأرض، ثم ضربته على وجهه فخرس لسانه وجمد فى مكانه،وتقدمت إليه ابنته فضربته بالسيف ضربة، شقته نصفين ، ومضى شيحة إلى جوان، فقال : مرحباً بسلالة إبليس اللعين ، فقال : يا أبا محمد اعتقنى هذه النوبة، فقال : بعد أن تأخذ نصيبك من الضرب والتعذيب. وهم شيحة ليضربه وإذا به قد خطف من أمامه . ونزلت عليه من الجو ورقة فأخذها وقرأ ما فيها فوجده: قتلتم أخى

قبطاويل وسأقتلكم فيه ولا أبقى منكم أحداً ، وغداً ستنظرون . فقالت تاج ناس : لا يهولنك وعيده ، وغداً نكون عنده فى قلوصة .

كان لقبطاويل أخ جبار عنيد اسمه قبطال وهو كاهن ساحر وله من الجن أعوان ، ولما علم أن أخاه قتلته ابنته ، أعلن أنه لن يتركها حتى يقتلها ، فقيل له : إنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً إلا بمعونة جوان وكيده ، فأمر مارداً من أعوانه فخطفه من بين يدى شيحة ، وجاءه به ، فقال له قبطال : لقد قتلت أخى وحرمتنى منه ، فقال : وكيف يقتل ساحراً مثل أخيك رجل مثلى لايعرف من السحر شيئاً؟ ما قتل أخاك إلا ابنته تاج ناس ،وقد أسلمت وتزوجت من شيحة ، فإن أردت أن تثأر له فاقتلها واقتل معها ملك العرب وأمراءهم ، فإن كنت عاجزاً فالزم عقر دارك خائباً ذليلا ، فاحتدم الغيظ فى صدره وقال : وما أنا بساكت عن العرب حتى أفنيهم وأملك أرضهم وديارهم ، وسترى يا جوان غداً ما يكون ، وبات عازماً على غزوهم ومحو آثارهم .

بغت قبطال بجيش العرب وهو معسكر أمام مدينته قلوصة ، فخرج إليهم منذراً متوعداً وقال : سأقضى عليكم بسيفى هذا فارساً من بعد فارس ، فمن أراد منكم أن يذوق طعم الموت فليبرز إلى ، فأسرع إليه أيدمر البهلوان فأسره وطوح به إلى مدينته ، ثم أسر من بعده خمسة أبطال ، ودق طبل الهدنة ، ودخل شيحة على زوجته غضبان أسفاً وقال : أخشى أن يقتل عمك قبطال من أسرهم من فرسان العرب ، فقالت : لا خوف عليهم ،

وأمرت المارد خادمها أن يبدل بهم خمسة أبطال من الروم، ويلبسهم ثيابهم ويضعهم مكانهم، ويأتيها بفرسان العرب الذين أسرهم عمها ففعل ما أمرت، ولما رجع قبطال وهو فرح بمن أسرهم قال له جوان: اقطع رءوس الأسرى. وطوح بها فى وجوه العرب لتملأ صدورهم رعباً وخوفاً ، ففعل ما أمره به جوان، فقال الملك الظاهر : أرأيت يا شيحة كيف فعل قبطال بأبطال العرب؟ فقال شيحة : لا خوف على أبطالنا ، وهذه رءوس أبطال من الروم ، وحكى له ما فعلته زوجته تاج ناس ، فقال : تقبل الله إيمانها وجعلها خير عون لعباده الصالحين ، ثم دام الأمر على هذه الحال يومين، وفى اليوم الثالث أسر قبطال أيدمر البهلوان وأحضره ليقتله ، فلما رآه جوان قال: انتظر يا قبطال، لقد أسرت هذا فى اليوم الأول وقتلته . فكيف رجع إليك وحاربك حتى أسرته، فاستفتى قبطال رمله فوجد أن الذين قتلهم من أبطال الروم ، وأما أبطال العرب فقد رجعوا إلى قومهم سالمين، وأن هذا من صنع ابنة أخيه الساحرة ، فقال جوان : أليس لك حيلة فيها؟ فقال : عندى ألف حيلة، ثم سحر نفسه فكان مثل زوجها شيحة ومشى حتى دخل عليها ؟ فاستقبلته كما تستقبل زوجها وأحضرت له الطعام فأكل وناولته قدح الشراب فشرب نصفه ، ثم وضع فيه بنجاً ، وقال لها اشربى معى هذا القدح فإنى وجدته لذيذاً وأحببت أن تشاركينى فيه، فشربت وسقطت مغشياً عليها، وأمر مارداً من أعوانه أن يحملها إلى مدينته ، ثم انطلق راجعاً ، وحبسها عنده، ولما دخل شيحة على زوجته ولم يجدها فزع إلى الملك وأخبره، وقال

ما سرقها إلا عمها بسحره ، فقال : الله أكبر وأقوى ، ينصر من يشاء ، وهو القوى العزيز ، ثم ابتهل إلى الله أن يكشف عن العرب كيد هذا الساحر ، فاستجاب له ، وجاءه عبد الله المغاورى فأبطل سحر هذا اللعين ، وأمر العرب أن يدخلوا المدينة ويعملوا فيها سيوفهم ، فانفلتوا كالجراد ، وجعلوا يقتلون الأعداء ، وهجموا على قبطال فى مكانه فضربه إبراهيم بسيفه ضربة أراقت دمه وأعدمته الحياة ، وملكوا المدينة وأعتقوا تاج ناس من سجنها ، ثم رجعوا إلى مصر ظافرين .

١٢

وجاء كتاب من شيخ عرب الطور يقول : جاءتنا سفينة من بلاد الهند وفيها ستون وزيراً يحملون الهدايا ويريدون لقاء الملك الظاهر ، فأمر الملك بإحضارهم ، فلما حضروا سلموا وقدموا إليه الهدايا من قماش وسكر وأعواد من ذهب وفضة وغير ذلك من كل شيء طريف وثمين ، وقال كبيرهم : نحن وزراء ستين ملكاً من ملوك الهند ، وفيها مدينة اسمها السن والكوكب ، وملكها الحكيم لوكيان ، وله تلاميذ يتلقون منه الحكمة ، وفيهم تلميذ اسمه مجرم ، وقد عهد إليه بملكه ، لأنه كان عقيماً لم يعقب ، وقد مات لوكيان ، وتولى الملك من بعده تلميذه مجرم ، ولما مرض أخوه نكدان مرضاً حارت فيه الأطباء ، أحضر له طبيباً من بلاد الصين وفحصه وصنع له طعاماً يأكل منه فبرئ فى الحال ، فقال له مجرم : خذ ما شئت من المال وعلمنا كيف نصنع هذا الطعام . فقال : إنه من لحم الموتى من بنى الإنسان ، ثم رحل الطبيب إلى بلاده ، وعاوده المرض فجعل أخوه (مجرم) يحفر القبور ويأتيه بلحوم الموتى ، وهو يأكلها بنهم حتى صار غولا ، وسمى نكدان الغول . وطلب منا هذا الملك أن نعطيه الخراج أرقاء ليذبحهم لأخيه المنهوم ، ولما نفد الأرقاء طلب أن نرسل إليه أولادنا فامتنعنا فحاربنا بسحره وضايقنا وملأ صدورنا رعباً . وقدم علينا درويش فألمته حالتنا وقال : إن أردتم كشف هذا الظلم عنكم ، فاذهبوا إلى

الملك الظاهر فى مصر واستعينوا به، فإنه يعين المنكوب وينصف المظلوم والمغلوب ، وذلك ما جئناك فيه ، فقال لوزيره : خذهم عندك ، وأحسن مقامهم حتى أدعوهم .

أقاموا عند الوزير سنة ، وما دعاهم الملك إليه ولا سأل عنهم ، فقالوا: لوزيره : طال بنا الانتظار ولا ندرى ما وقع فى بلادنا فهلا ذكرت الملك بنا ؟ فبلغ الملك ما قالوه فأحضرهم وأرضاهم بالكلم الطيب ، وقال لهم : سافروا إلى بلادكم وإنى لاحق بكم ، بعد أن أفرغ لكم ، فسافروا وهم يعلمون أنه فى شغل شاغل عنهم .

وذات يوم قدم إليه أعجمى وقال : إنى من خوارزم ومعى تجارة أريد بيعها بعد أن تأذن لى ، فقال : بع ما شئت على الرحب والسعة ، وبعد أيام جاءه هذا الأعجمى فى ديوانه واستأذنه فى العودة إلى بلاده بعد أن باع تجارته ، فقال له الملك : مع السلامة ، ولعلك ربحت فى بلادنا فقال الأعجمى : ما وجدت إلا كل خير ، ولكن معى فرساً أمه من خيل البحر ومن الخطأ أن أبيعه لمن لا يعرفه ، فقال الملك : هاته فإنه ينفعنى . فلما أحضره ورآه عثمان ، قال : الله الله! وهذه مكيدة من بلاد الهند ، وما هذا فرس ، ولكنه جنى فى صورته ، فنهض إبراهيم وأطاح برأس الأعجمى فاختفى الفرس ، ولا يعلم أحد أين ذهب ، فأخذ العجب مأخذه من نفوس الملك وجلسائه .

ودعى الملك إلى حفلة وفاء النيل فى السفينة التى أعدت له ، فركب

فيها ومعه جمع كبير من الوزراء والأمراء والأعيان، ومخرت بهم عباب النيل وهم فرحون بما أنعم الله عليهم من الماء الذى به حياتهم وحياة أرضهم . وتواثب السمك على السفينة وهى تجرى فى شكل عجيب جميل ، وأطل عليه الملك فوجد سمكة كبيرة بجوار السفينة وفى فمها كتاب وكأنها تقول للملك خذ هذا الكتاب من فمى ، فمد الملك يده ليأخذه من فمها فوثب السمك من حولها وأمسك الملك وجذبه وهوى به فى أعماق الماء ، والتقمه النهر وغاب عن الأعين ، فذهل الجمع وفزعوا إلى الغطاسين ، ففتشوا باحثين عن الملك فى النهر فما عثروا له على أثر .

وذاع هذا الخبر وأطبق الحزن على المدينة وحارت عقول الوزراء والأمراء، وقال إبراهيم : ما أظن هذا إلا كيد ساحر وهو باطل حيث أتى ، فإن علماء النجوم قالوا : إن جوان سيموت بسيف الملك . وهذا جوان لايزال حيًّا يرزق ، فقال محمد السعيد : لا يعلم الغيب إلا الله ، وإذا كان هؤلاء العلماء لا يعلمون شيئاً عن كنوز الأرض فكيف نصدقهم إذا جاءونا بخبر السماء ؟ ! !

وبينما هم فى اضطرابهم هذا قدم إليهم شيحة ، وبعد أن سلم عليهم وجلس قال لمحمد السعيد : اجلس مكان أبيك حتى يعود ، فإنه ذهب إلى مدينة السن والكوكب فى الهند راكباً ، ولكنى سأدركه ماشياً ، والله يهون علينا كل عسير : فقال إبراهيم : ذلك حق ، ثم قال لهم شيحة : وقد جعلت إبراهيم نائباً عنى فى القلاع ، فإذا بلغكم موتى فاختاروا من

تشاعون ، ثم تركهم ومضى إلى زوجته تاج ناس فى قلوصة ، وحكى لها ما حصل للملك الظاهر فقالت : خطفه كاهن كافر فى مدينة السن والكوكب بالهند ، فقال : إن من واجبك أن تساعدينى فى عودته ؛ فقالت : على شرط ألا تجعل فى عصمتك زوجة غيرى ، فقال : ذلك لا يكون أبداً . فقالت : لو علمت ما تلاقيه هناك من الأهوال وعلمت مبلغ حاجتك إلى المعونة لرضيت ، فقال : إنى وهبت حياتى للجهاد فى سبيل الله ، ولا أفتأ أطلب منه المعونة والتأييد ، وقد توكلت على ربى وسلامى عليك » . وتركها وخرج .

كان خطف الملك من السفينة بسبب مجرم الكاهن ملك السن والكوكب ، فقد كلف أحد أتباعه من الجن أن يأتيه بالملك بأية وسيلة ، وتمكن هذا التابع من خطفه يوم الاحتفال بوفاء النيل .

ولما كان الملك بين يدى مجرم ملك السن والكوكب قال له مقرعاً : أأنت الظاهر الذى طمعت فى هلاكى وتخريب بلادى؟! لقد خطفك أحد أتباعى من بين رجالك وحرسك ، وما استطعت أن تحمى نفسك ، فقال الملك : أبشر بهلاكك وخراب بلادك ، لقد منعنى عن المجىء إليك بعد الشقة على جنودى ، وما دمت قد أسرتنى فأبشر بالهلاك والدمار ، فاغتاظ مجرم وأراد أن يذبحه ويضعه أمام أخيه ليأكله ، فقال الوزير : انتظر حتى يأتى رجاله لتذبحهم معه ، فقال : مجرم له : وهل يستطيع أحد من رجاله أن يجىء إلى بلادى وهم لا يعرفون الطريق إليها ؟ فقال :

كلهم سيجيئون ، وفيهم شيحة الذى له طرق لا يعرفها أتباعك من الجن ، فحبسه فى سجن وحده وقال : هذا قبرك الذى ستموت فيه صبراً .

أما جمال الدين شيحة فإنه سار حتى كان فى واد غاص بالذئاب ، فاحتال على أحدها حتى ذبحه وسلخه ، ولبس جلده وبدا كأنه ذئب ، وطمع فيه ذئب كبير يريد افتراسه ، فتذكر ابنه محمداً السابق ، وقال : ليتك معى يا محمد ، فإنك أقدر منى على هذه الوحوش الضارية ، فضحك الذئب الكبير وقال : هأنذا ابنك محمد أيها الوالد ، فأنس به ورجعا إلى صورتهما ومضيا فى طريقهما حتى كانا على شاطئ بحر ، فوجدا سفينة هندية راسية ، لأن أصحابها يأخذون حاجتهم من المياه العذبة من تلك الأرض ، وعرفا منهم أنهم ذاهبون إلى الهند ، فسألاهم أن يأخذوهما معهم ، على أن يعطياهم أربعين ديناراً ، فرضوا وركبا معهم فى السفينة .

وبينما هم سائرون عصفت الرياح وهاج البحر وتواثبت الأمواج وأظلم الجو وطلع عليهم من البحر أربع « هوايش » أحاطت بالسفينة ، فقال بعضهم لبعض : يحسن أن نلقى هذين الرجلين الغريبين إلى « الهوايش » لتتلهى بأكلهما ونفتدى بهما إلى أن ننجو بالسفينة ، فأحضر كبيرهم شيحة وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى الشيخ « بزبوز » ، فقال : وما اسم رفيقك ؟ فقال : اسمه الشيخ « عنطوز » ، فقال : إن قدرتما على دفع هذه « الهوايش » عنا نجونا ونجوتما وإلا ألقينا كما إليها وافتدينا بكما

فقال شيحة : أنا أردها عنكم وأطعمكم من لحمها إن أحضرتم لى أربعة خراف ، فجاءوه بها ، فذبح الخروف الأول ومزج لحمه بالسم القاتل وألقم « الهايشة » الأولى لحمه ، فماتت لساعتها ، وكذلك فعل مع الثانية والثالثة ، أما الرابعة فأطعمها لحم الخروف الرابع بعد أن ذبحه ومزج لحمه بالبنج ، فخدرت وأغمى عليها وطفت على وجه الماء كأنها ميتة وقال لهم خذوها وكلوا لحمها ، فأخرجوها من الماء وقطعوها وشووها وأكلوها ، وسارت بهم السفينة ، ولما رست بهم على الشاطىء لأخذ المياه العذبة ، أشار محمد على أبيه أن ينزلا إلى الأرض ويتوكلا على الله مخافة أن يغدر بهما أصحاب السفينة ، فوافق هذا ما فى نفسه ونزلا من السفينة وأخذا يمشيان فى الأرض على هدى من الرجاء والأمل ، حتى كانا عند مدينة السن والكوكب ، فقال محمد السابق : كل منا يمشى وحده ويسلك سبيله إلى أن يأذن الله باجتماعنا .

دخل شيحة المدينة وجلس فى مكان بها وبسط الرمل أمامه ، كأنه « رمال » يستوحى الرمل ويستفتيه ، فمر به الملك مجرم فى موكبه ، فلما رآه أقبل إليه وقال : أريد منك يا « رمال » أن تعرف لى من رملك اسماً أوله شين وآخره هاء فجعل يخط بإصبعه فى الرمل ، ثم التفت إليه وقال : هذا شيحة يا سيدى ، فقال : هل تعرفه ؟ فقال : لا أعرف أحداً ، ولكن الرمل عرفنى هذا الاسم ، فأمر أن يطرح فى السجن مع الملك الظاهر ، فلما كان عنده وعرفه ، قال الملك : لاحول ولا قوة إلا بالله . وكان

محمد السابق مع الملك فى موكبه كأنه أحد رجاله، فعرف مكان الملك وأبيه، وفى الليل استطاع أن يفتح باب السجن ويدخل إليهما، ثم قال لهما: اتبعانى لنفر من هذه المدينة، فمشوا قليلا وإذا هم فى سجن آخر ذى أربعة جدران وليس له باب، فأسلموا أمرهم إلى الله، وقال الملك: هذا قضاء الله الذى لا راد له، ثم سأل محمداً السابق أن يحدثه: كيف قدم هو وأبوه إلى هذه المدينة. فأخذ يحدثه ويقص عليه، واستفتى الملك مجرم الرمل ليعرف: هل وراء الملك ومن معه أبطال يخشى على نفسه منهم، فعرفه أن من خلفهم أبطالا شداداً هم عرقوص وإسماعيل ونصير النمر، فأمر أتباعه من الجن أن يخطفوهم فجاءوه بهم وألقاهم فى السجن مع الملك وشيحة وابنه، وكان المفتاح مع ابنته «بنورة».

رأت «بنورة» فى منامها ذات ليلة أن القيامة قامت وحشر الناس للحساب، وأنها أمر بها أن تلقى فى النار، فاستجارت برجل من الجمع، فأخذها وأدخلها الجنة، فسألته: ما اسمك يا سيدى؟ فقال: معروف ابن حجر، وأنت زوجة ابنى عرقوص الذى حبسه أبوك فى السجن الذى تحملين مفتاحه، فإذا أردت أن تنقذى نفسك من النار وتدخلى الجنة فاقتلى أباك الكافر وادخلى فى دين الإسلام، وقد رأيت بعينى رأسك مصير المؤمن والكافر فى هذا اليوم العصيب، فاستيقظت بنورة من نومها وقلبها ينبض بمحبة الإيمان والرغبة فيه، ودخلت على الملك وصحبه، وقصت رؤياها عليهم، وأسلمت على أيديهم وزوجوها من عرقوص، ثم

قالت : علمونى كيف أحتال لقتل مجرم الكافر ، الذى وقف سدًّا منيعاً بين المرء وربه ، وحاجزاً بين المرء وسعادته ، فقال شيحة : خذى هذا السم القاتل لساعته وضعيه فى طعامه أو شرابه . فأخذته وخرجت ، ولما أحضرت الطعام لأبيها وضعت فيه السم فمات لوقته. ثم مضت إلى عمها نكدان ووضعت السم فى اللحم الذى يأكله ، فانقلب فى الحال مستلقياً على ظهره ولا روح فيه ، ثم دخلت على الملك وصحبه وبلغتهم نبأ قتلها لأبيها وعمها ، فشكروا لها معروفها وقال شيحة : وعلى أنا إتمام ما بدأته ، ثم أخرج مرآة الصور ، وجعل بها الملك الظاهر فى صورة أبيها وجعل نفسه فى صورة عمها ،وأخفوا على المدينة قتل مجرم وأخيه ، وجلس الملك الظاهر على عرش المدينة وأرسل مع أتباع بنورة كتباً إلى الملوك التابعين لأبيها يقول فيها : قد كنتم أرسلتم وزراءكم إلينا لتنقذكم من ظلم مجرم ، وقد جئتكم وقتلت الملك الظالم وتوليت الحكم فى مدينته فإذا قرأتم كتابى هذا فأرسلوا وزراءكم ومعهم جنود محاربون حتى أقضى على أشياعه وأعوانه وأمحو من الوجود آثاره لتعيشوا فى سلام وأمن هانئين ، ولما كانت جيوشهم فى المدينة ظهر الملك فى صورته ،وظهر شيحة فى صورته ،ونادى الملك فيهم أن اضربوا أعداءكم بسيوفكم ، وكان قد غاظهم ظلم مجرم فاستماتوا فى القتال ، حتى انتصروا ونشر الملك الإسلام فى المدينة وأجلس بنورة على عرش أبيها ، ثم أمرت تابعها أن يحمل الملك وصحبه إلى مصر ، فحملهم وأرجعهم إليها سالمين .

١٣

كان الملك الظاهر قد ركب الفلك ومعه عرقوص وثلة من رجاله وجنوده ، وكان يريد أن يتفقد الساحل ، وبينما يجرى بهم الفلك ثارت رياح البحر ودفعت الفلك إلى جزيرة فيه ، فقال عرقوص سأنزل فى هذه الجزيرة وآتيكم بخبرها ، فقال الملك : لن تذهب إليها وحدك وسأكون معك .

وسار الملك وعرقوص فى تلك الجزيرة قليلا ، وإذا بعرقوص قد خطف وطار فى الجو حتى غاب عن عينى الملك الظاهر وهو لا يدرى من خطفه ولا إلى أين ذهب ، فرجع إلى الفلك حزيناً وهو مصر ألا يبرح مكانه حتى يقف على مصير عرقوص . ولما علم رجاله وجنوده بما وقع لعرقوص حزنوا عليه حزناً أليماً .

وجاء الليل ولفهم فى ثياب من ظلامه ونومه ، ثم استيقظوا فى الصباح فوجدوا أنفسهم فى ميناء الإسكندرية ، أما الجزيرة التى كانوا عندها فهم لا يعرفون مكانها ، فأسلموا الأمر لله وانتظروا ما يأتى به القدر .

أما عرقوص فإن المارد الذى خطفه أنزله فى قصر يبسم بالنعيم ويشرق بالجمال ، فما لبث فيه قليلا حتى جاءته فتاة فى ربيع حياتها تشع جمالا

وسحراً ، فى ثياب براقة تنم عن أنها من بنات الملوك الإفرنج ، فحدثها بلغتها قائلا : أين أنا الآن ؟ فقالت : أنت عندى فأنا زهرة بنت الملك الكاهن رصيد، ولا خوف عليك إن كنت « عرقوصاً » ، فقال : وأنا عرقوص يا بنت الكرام ، ولكن أين أنا الآن ؛ ومن الذى جاء بى ؟ ولأى شىء هذا ؟ فقالت : أنت الآن فى جزائر الزهور التى لأبى الملك الكاهن رصيد، واستمع لما أقول : بلغ أبى هذا من الكبر عتياً وما رزق من الأولاد إلا ببنت واحدة ، وهى زهرة التى تحدثك وتجيبك عما سألت ، فبنى لى هذا القصر وأسكننى فيه ،وذات يوم استفتى رمله : هل يدوم الملك لى من بعده أو ينازعنى فيه أحد من أعدائه ، فأوحى إليه رمله أن أحد ملوك النصارى سيعكر علىّ صفو الملك من بعد أبى ، فصنع لى بسحره بذلة إن لبستها لا يؤثر فى سلاح لعدو ،ثم استفتى رمله مرة ثانية فعرف منه أنى سأنتصر على يد مسلم من المسلمين اسمه عرقوص ، فقال لى : إذا رأيت العدو قد أقبل فافركى هذا بيدك وستجدين المارد قد جاءك بعرقوص ووضعه بين يديك ، فإذا جاء فامنحيه جواداً من خيل البحر وهو فى مكان كذا ، وقد كلفت مارداً من الجن يقوم بشئونه والمحافظة عليه ، حتى يأتى عرقوص ويأخذه ليقاتل عليه أعداءك ، وفى مكان كذا حلة سحرية لعرقوص يلبسها فى أثناء القتال لتحميه من سيوف الأعداء ، ومعها عقد من الجوهر به أربعون جوهرة قيمة كل واحدة فيها خراج بلاد الروم ، وقال أبى : إذا قهر عرقوص أعداءك ، ونظف البلاد منهم

فاقتليه، فقلت له : وكيف أقتله بعد معروفه هذا، وأعيش بلا زوج ولا أنيس ؟ ! فأحضر لى بنتاً جميلة ، وقال : هذه البنت تؤنسك وتعيش معك ، وما مضى على أبى بعد هذا أيام حتّى مات .

وعلى مقربة من جزائر الزهور الجزيرة الصفراء وملكها صافور الكاهن ، فقال لوزيره : إن ملك جزائر الزهور قد مات، وأريد أن آخذ ابنته زهرة وأملك جزائره ، فقال الوزير : أرسل إلى ابنته واخطبها لنفسك ، فإن رضيت بزواجك منها فقد أخذتها وملكت جزائرها ، وإن أبت فحاربها ولك الآن عذرك فى قتالها، قالت زهرة : فبعث إلى رسالة يخطبنى فيها فأجبته : ما كانت الخطبة بالرسائل دون تعارف، ولهذا وجب عليك أن تسلك سبله ، حتّى تعرفنى وأعرفك، وأطلعك على ما فى نفسى كما تطلعنى على ما فى نفسك حتّى تكون الحياة الزوجية دائمة وسعيدة، ولا بأس من حضورك ليرى كل منا صاحبه ، ثم نهضت إلى الرصد ففركته وكلفت المارد أن يأتينى بك ويذهب بفلك الملك الظاهر إلى ميناء الإسكندرية وهذا ما فعلته ، وهذه قصتّى ، وأنا بين يديك . وكان قلبها قد امتلأ بمحبته ، والرغبة فى الزواج منه ، فقال عرقوص : وماذا أردت من عملك هذا ؟ فقالت : ما أردت إلاّ أن تطرد هذا الملك عنى ، وتكفينى شره ، ثم لى معك بعد هذا كلام ، ولكن قبل أن تخطو خطوة فيما عزمت عليه خذ هذه الحلة التى صنعها أبى والبسها حتّى لا يؤثر فيك سحر هذا الملك وسيفه ، وأنا ألبس هذه الحلة أيضاً حتّى لا يؤثر فىّ سحره وسيفه ، ثم

لبس كل منهما حلته .

وبعد أيام قدم الملك صافور فى جنده ، لأنه توقع ألا ترضى به ، وحينئذ يحاربها ويأخذها غصباً ، وعسكر فى مكان مشرف على قصر زهرة ، وأرسل إليها وزيره ، فلما دخل عليها لقيه عرقوص وسأله : فيم جئت ؟ فقال : إنى رسول الملك صافور إلى الملكة زهرة لأخطبها إليه ، فقال له : ارجع إلى ملكك وقل له : إن الملكة زهرة وجزائرها فى يد عرقوص صاحب مدينة الرخام ، فإن أردت الخير لنفسك فارجع أنت وجندك إلى مدينتك فى سلامة وعافية ، وإلا فالسيف بينى وبينه والله يفعل ما يشاء . فلما رجع الوزير وأخبره بما قاله عرقوص استشاط غضباً وأصر على قتاله .

وفى الصباح كان قد صف الجنود وانتظروا أمره بالقتال ، وأسرع عرقوص إلى الميدان على فرس البحر وجال فيه وقال : يا معشر النصارى ، إن صافور ملككم قد ساقكم إلى ساحة الوغى من أجل زواجه من الملكة زهرة ، وإن سفك الدماء بغير حق محرم فى جميع الأديان السماوية ، والحق يقضى ألا يلقى بغيره إلى التهلكة من أجل نفسه ، فإن كان مصراً على ما أراده فليبرز هو نفسه لقتالى فإن غلبته لقى جزاءه وكان لكم الأمر من بعده ، وإن غلبنى كان جديراً بما طلبه ، فأثار هذا القول الحمية فى رأس صافور وأسرع بجواده إليه ، وقامت بينهما مبارزة عنيفة أنجلت عن أسر الملك صافور ، فأخذه عرقوص ومضى به إلى قصر الملكة زهرة ،

وقال لها : هذا غريمك بين يديك فاحكمى فيه بما تشائين ، فقال الملك صافور : أيتها الملكة الكريمة ، العفو شيمة النفوس الكبيرة ، وعهد منى إليك أن أكون فى طاعتك وألا أخونك ما حييت ، فأكبرت نفسها أن تضن بالعفو على ملك ندم وأناب وتضرع ورجا ؛ وقالت لعرقوص : أعتقه ليذهب إلى جنده ، فأركبه جواداً كريماً وأخلى سبيله .

وكان جنده قد أرادوا أن يقاتلوا بعد أسره ، ولكن الوزير منعهم وقال : انتظروا حتى الصباح ، فلعل الأمر يجرى فى ملككم على غير ما تخشون ، وفى الثلث الأول من الليل قدم عليهم ملكهم ففرحوا به وجعل يحدثهم عن عظمة عرقوص وكريم سجاياه ، ثم أعد هدية ثمينة من الماس والجواهر الكريمة والأقمشة الفاخرة ، ومضى بها فى الصباح إلى الملك عرقوص والملكة زهرة وأكد بها عهده على الولاء والسلام ، ثم ودعهما ورجع بجنده إلى دياره.

أما زهرة فإنها خلت بعرقوص وقالت له : إنى قد رغبت فى الإسلام وأن تكون لى زوجاً ، فهل لك أن تنقذنى من ظلمة الكفر وتكفلنى فى تلك الحياة ، ويكون لك السلطان على هذه الجزائر ولعلك بهذا تكون سبباً فى هداية كثير من الناس فأجابها إلى ما طلبت ، وأسلمت وتزوجها وعاش معها قرابة شهرين ، ثم رجع إلى مدينته .

* * *

كان جوان قد سرق ابن الوزير يقطمر أخى الملك الظاهر من زوجته مريم الحمقاء ، وذهب به إلى دردنيش ملك درونه وقال له إذا

أنت ربيت هذا الطفل كان قوة فى يدك تدحر بها العرب والمصريين وملكهم الظاهر وعرفه بأبيه ، فسماه دردنيش عزّ النصرانية ، وقام على تربيته وتعليمه ضروب الفروسية والبطولة حتّى كان بطلا مغواراً تهابه الأسود الكواسر، وبعد عشرين سنة جاءه جوان والبرتقش فرأى عز النصرانية فقال : هذا الفتى أشبه بالملك الظاهر فى خلقه ، ثم سأله : هل هو الطفل الذى تركه عنده وأمره بتربيته ليتخذه عضداً له وقوة فى التنكيل بالمسلمين ؟ ، فقال دردنيش : إنه منحنيه المسيح وإنى لراغب الآن فى أن أزوجه ، فقال له جوان إنى أعرفك بامرأة جميلة هى خير زوجة لابنك وهى مريم الحمقاء بنت عرقوص صاحب مدينة الرخام ، وهى فى مصر الآن ، فقال دردنيش : ومن الذى يستطيع إحضارها من مصر . فقال أحد رجاله واسمه طرفة أنا آتيك بها ، فقال : إن جئتنى بها رفعت منزلتك وأغدقت عليك نعمتى ، فسافر طرفة إلى مصر وأقام بها حتّى عرفها وعرف مكانها ، ثم تسلل إليها فى ظلام الليل وبنجها وحملها ورجع بها إلى الملك دردنيش ، فقال لابنه عز النصرانية : هذه مريم الحمقاء التى اختارها لك عالم الملة جوان قد أحضرناها لك لتكون لك زوجة ، فلما رآها أحس من نفسه ميلا إليها فأخذها ومضى بها إلى قصره ، ولما خلا بها قالت له : ماذا تريد منى أيها الفتى ؟ فقال : أعجبنى جمالك ، وملأت قلبى ميلاً إليك ، ولكنى كلما دفعت نفسى إلى أن أتخذك زوجة لى اضطربت وتبدد عزمى فى ثورة هذا الاضطراب ،

وأنا من أجل هذا فى حيرة ، ولكنى مع هذا لن تطاوعنى نفسى على أن أفرط فيك ، أو أفارقك على أية حال ، وسأحارب من طلبك من المصريين ، ثم أسكنها بيته وأجرى عليها نعمته ،وكان يجلس إليها يتحدثان من حين إلى حين ، وكانت تحدثه بلغة الإفرنج فى قوة وفصاحة ، فسألها : أنت مسلمة ولكنى أجدك تجيدين لغتنا فما سبب ذلك ، فحكت له تاريخها وعرفته أصلها وأنها تزوجت بالوزير يقطمر أخى الملك الظاهر ثم بكت فسألها عن بكائها فقالت : رزقت منه بغلام جميل تبدو عليه ملامح البطولة ؛ فسرقه منى جوان اللعين ولا أعرف له مكاناً إلى الآن . فقال لها : أتصدقين أنى لا أعرف لى أمًّا حتى هذه الساعة ؟ فقالت : وهل تصدق أن يولد مولود من غير أم ؟ ودار فى خلدها أن عز النصرانية هذا ابنها الذى سرقه جوان وسألت ربها أن يصدق حدسها ويحقق ظنها!

ودخل الوزير يقطمر على أخيه الملك الظاهر حزيناً وأخبره بسرقة زوجته مريم ؛ فابتأس الملك وأمر أن ينتشر جواسيسه للبحث عنها ليطلبها حيث تكون ، فتعب كثير منهم ثم رجعوا فاشلين ، ولكن سعداً ألقى به طوافه فى مدينة الملك دردنيش وتنسم الأخبار فى كل مكان حتى سمع سارقها وهو يقص على أصحابه قصة سرقتها مفتخراً بما فعله ، وعرف منه مكانها ، فلزمه حتى عرف بيته ، ثم انسل فى الظلام ودخل عليه فى حجرة نومه وعرض عليه الإسلام ، ولما أبى وامتنع قتله ولبس ثيابه وتنكر فى شكله وذهب إلى ديوان الملك ليحل محله ، والتزم الصمت مدعياً أنه

مريض بلسانه ، فأشفق عليه عز النصرانية وقال له : تعال معى يا طرفة إلى بيتى لأعالجك حتى يشفى لسانك ، ولما أخذه وخلابه وتفرس فى وجهه ساوره الشك فى أمره ، فقال له : اسمع يا هذا ، بربك إلا صدقتنى ، ألست من المسلمين وقدمت إلى هذه المدينة لحاجة فى نفسك ؟ فقال سعد : بلى ، وقد جئت للبحث عن مريم الحمقاء بنت عرقوص ، زوجة الوزير يقطمر أخى الملك الظاهر ، فأحس عز النصرانية ببرد الراحة فى قوله ، وقال : إنها عندى وسأجمعك بها ، ثم أخذه ودخل به عليها وقال لها : أتعرفين هذا المسلم ؟ فلما نظرت إليه قالت : أهلا بك يا سعد وهل جئت وحدك ؟ فقال : نعم ، ولكن أبطال المسلمين انتشروا فى البلاد يبحثون عنك ، فقالت : ارجع إلى الملك وأخبره أنى فى مكانى هذا ، والتفتت إلى عز النصرانية ، وقالت : أخل سبيله ، ومكنه من العودة ليحضر إليك زوجى ، فإذا حضر أمكنك أن تقتله وحينئذ أخلص لك وأتزوج منك ، فقال عز النصرانية : وإنى لفى شوق إلى قتال المسلمين ، ثم أطلق سراحه فانفلت سعد كأنه الريح وجاء إلى الملك وأخبره ، فأناب عنه ابنه محمداً السعيد ، وركب هو فى جيشه واتخذ سعداً دليله ورائده وسار يقطع صعب الأرض وسهلها إلى مدينة الملك دردنيش .

أما عز النصرانية فإنه لبث ينتظر قدوم المسلمين ، وفى أثناء ذلك وجد الناس يقبلون على جوان ويحتفلون به ويطيعونه فسأل الملك دردنيش وقال : من هذا يا أبى الذى يقبل الناس عليه ويحترمونه؟ فقال : هذا

جوان عالم الملة ، يعلم الناس الدين ويقول إنه خليفة المسيح ، فقال : ولكنه فى رأيى كذاب منافق لا يسعى إلا فى الفساد والنكد، والدليل على ذلك أنك حين استشرته فى زوجة لى ،لم يشر عليك بفتاة فى سنى خالية غير متزوجة ، ولكنه اختار امرأة هى منى كأمى، وهى فى عصمة رجل من المسلمين، ولا يريد بهذا إلا إثارة الفتنة وإشعال نار الحرب بيننا وبين المسلمين. فلما سمع البرتقش هذا قال لجوان : وجب عليك أن تهرب من هذه المدينة فإنى أعتقد الآن أن عز النصرانية أبوه يقطمر وأمه مريم الحمقاء ، فقال : انتظر حتى نرى ما سيكون .

قدم الملك الظاهر ونشبت الحرب بينه وبين دردنيش ثلاثة أيام أسر الملك دردنيش فى نهايتها ، وسأله الملك الظاهر عما دفعه إلى سرقة مريم فقال : أغرانى عالم الملة جوان ، فأمر بحبسه ووكل أمره إلى المقدم سعد، وفى أثناء الليل نهض دردنيش من نومه يردد الشهادتين ،ويتحسر على ذلك العمر الذى قضاه فى الكفر والضلال ، فأخبر سعد إبراهيم بإسلامه ودخلا عليه وسألاه عن سبب إسلامه ، فقال : جاءنى فى المنام رجل اسمه معروف ابن حجر وقال : إنك من أهل الإسلام ، وقد آن أوان إسلامك ، وعلمنى النطق بالشهادتين ،وقال : إن عز النصرانية ابن يقطمر وأمه مريم الحمقاء التى سرقتها ، وأنا معروف بن حجر ، فأخذاه ودخلا به على الملك الظاهر وأخبراه بإسلامه ، وقال دردنيش ، وسأحضر إليكم عز النصرانية وأمه ،وسأعلن فى قومى إسلامى وأدعوهم إليه فمن أسلم منهم

فهو منى ومن لم يسلم طردته من مدينتى . فأخلى الملك سبيله وعاد إلى مدينته ودعا قومه إلى الإسلام فتبعوه ، وأسلم عز النصرانية وأرسله إلى الملك وأمه ،وسماه الملك أحمد العزيز، وانبثق نور الإسلام فى هذه المدينة بعد أن كان يخيم عليها ظلام الكفر والضلال .

أما جوان والبرتقش فإنهما هربا إلى خرافة المجنون ملك وادى الدخان ، وشكواله إسلام دردنيش وقومه، وإسلام عز النصرانية الذى كان يعده لهدم الإسلام وإهلاك المسلمين، فقال له : سأسرق لك عز النصرانية هذا ، ثم سلط عليه من لازمه حتى خلا به ، ثم بنجه وحمله إلى خرافة المجنون ، ووضعه بين يديه فى مجاسه، فأعطاه جوان شيئاً أيقظه وقال له : صبأت وأسلمت فما أصابك؟ فقال : ما أصابنى إلا الخير، فقد هديت إلى الحق ،وأصبحت مثل آبائى وهم ملوك فى المسلمين ، فقال : وسأحرم عليك رؤية أحد منهم ، ثم أخذه وربطه على عمود فى دير الدخان ، وقال له : إن كان فى المسلمين سر فليخلصوك من ورطتك ولينفسوا عنك كربتك ، ثم أغلق عليه الدير وتركه ،وأودع سيفه وحلته عند بنت راهبة فيه نذرها للمسيح ملك سرادينة ، وشاء القدر أن يلقى محبته فى قلب هذه الفتاة الراهبة ، فجاءته وفكت رباطه،وسألته عن حاله فقصها عليها ، ثم حذرته من خرافة المجنون وعتوه وظلمه ، فسألها عن مكانه فقالت : فى ذلك القصر الذى يجاور الدير ، فقال : وأين مكان السلاح ؟ فقالت لا أعرفه، ولكن عندى سيفك وحلتك ، ونهضت فأحضرتهما إليه ، فلبس الحلة

وأمسك سيفه ومضى إلى القصر ودخل على خرافة المجنون بغتة فوجده جالساً مع جوان والبرتقش ، فابتدر الملك بضربة من سيفه شق بها رأسه ، وقال لجوان والبرتقش إن تحركتما أو نطقتما بكلمة فعلت بكما ما فعلته بهذا المجنون ، ثم أمر البرتقش أن يكتف جوان فكتفه . وأقبل هو فكتف البرتقش ، وحبسهما فى مخدع بالدير ، وأخذ يجوس خلاله فسمع صوتاً يقول : إن كنت أحمد العزيز ، وإن كان يقطمر والدك ومريم الحمقاء أمك فارفع هذا اللوح الرخامى الذى أمامك ، وادخل هذه المطمورة ، وستجد الحكيم «قطعنين» ميتاً وعند رأسه سيف اسمه الصمصام فخذه ولا تأخذ شيئاً غيره ، فإنه محفوظ لك ، فدخل وأخذ السيف وخرج ، ثم سمع ضجة فى الدير فمضى نحوها فألفى جماعة من المسلمين أرسلهم الملك إليه لينقذوه ، وفيهم إبراهيم فسلم عليهم ، ثم أخذوا جوان والبرتقش وخرجوا من الدير إلى الملك الظاهر ، وكان ذلك فى ظلام الليل ، وفى أثناء سيرهم انتحى أحمد ناحية ليريق ماء ، واستمر الجماعة فى سيرهم ظنًّا منهم أنه سيتبعهم ، ولكنه ضل الطريق حتى بعد ، فجعل يمشى حتى وجد صومعة فى ضوء الصبح فاتجه إليها ، ولما دنا منها وجد شيخاً كبيراً فيها ، فقال له أهلا بأحمد العزيز . إن لك عندى فرساً أبوه من البحر ، وعليه سرج مرصع بالذهب وهو محفوظ لك فى هذه المغارة — وأشار إليها — فاذهب إليها وخذه منها ، ولكن أجلى يا بنى قد انتهى فاصبر حتى تدفننى ، ثم شهق الشيخ شهقة ومات ، فأقبل إليه ، وواراه



جوان وقد حكم عليه بالقتل

التراب ، ومضى إلى المغارة فأخذ الفرس وركبه وسار قليلا ، فسمع المقدم إبراهيم ينادى ، يا أحمد . . . فأسرع إليه والتقيا، وسأله أين كنت فحكى له ما حصل . ثم ذهبا إلى دردنه عند الملك الظاهر وأعاد عليه قصته ، ثم سمى الملك الظاهر دردنيش محمداً الدرويش وتركه ورجع إلى مصر بجيشه ، ومعهم جوان والبرتقش .

ولما اطمأن الملك واستراح من تعب السفر أحضر جوان والبرتقش وجعل يؤنبهما ويبين لهما ما هما فيه من ضلال ، وأنهما إن لم يتوبا ويدخلا فى دين الإسلام قتلهما .

أما البرتقش فإنه أعلن إسلامه وتوبته وقال لجوان : إنى برىء منك من هذه الساعة ، وما صبرت على صحبتك وأنت غارق فى الكفر والغى إلا لأحافظ على عباد الله الصالحين من شرك وأذاك ، وطمعاً فى أنك تعتبر بما يقع لك من ألوان التعذيب وضروب الخزى والفضيحة ، ولكن الله طبع على قلبك فعميت عن الهدى .

وأما جوان فإنه أصر على كفره ، فحكم الملك الظاهر بقتله وصلبه ، وأمر أن يذاع هذا النبأ فى المدينة ليشهد الناس قتله فى اليوم المعلوم .

ولما حان الوقت المعلوم جىء به مقيداً مكتفاً وصلب على عمود فى ساحة واسعة جمع لها الناس من كل صوب ، ورجمه الجنود بالنبال حتى مات ، فانكشفت عن الملوك غمته وذهب شؤم طلعته ، وعاش الناس فى ظل ظليل من السلام والوئام .

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٤٦٥٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧٤٩-٢	ISBN

١ / ٨٦ / ١١٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

